

# تاريخ المغرب العربي

المتصور الموحدى

٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م

الجزء السابع

دكتور

سعد زغلول عبد الحميد



الناشر // منتقاة بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

**الناشر : منشأة المعارف ، جلال حذى وشركاه**

44 شارع سعد زغلول - محطة الرمل - الاسكندرية - ت/ف 4853055/4873303 الإسكندرية

Email : monchaa@maktoob.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف : غير مسموح بطبع أى جزء من أجزاء الكتاب أو خزنه فى أى نظام لحزن المعلومات واسترجاعها ، أو نقله على أية وسيلة سواء أكانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية ، أو استنساخاً ، أو تسجيلاً أو غيرها إلا بإذن كتابى من الناشر

اسم الكتاب : تاريخ المغرب العربى جـ 7

اسم المؤلف : د. سعد زغلول عبد الحميد

رقم الايداع : 2005/16624

التقليم الدولى : 6 - 1341 - 03 - 977

التجهيزات الفنية

كتسابة كمبيوتر: مكتب سيف للكمبيوتر

تصميم غلاف : مكتب سلطان للكمبيوتر

طباعة : شركة الجلال للطباعة



# تاريخ المغرب العربي

## الجزء السابع

### المنصور الموحدي

٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م

الدكتور

سعد زغلول عبد الحميد

## مقدمة

تعتبر حركة محمد بن تومرت التى انتهت بقيام الإمبراطورية الموحدية من الأحداث الحاسمة بالنسبة لتاريخ الغرب الأفريقى - الأوروبى .

ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى / ٥هـ كان على العناصر العربية فى بلاد المغرب الإسلامية أن تترك مكانها لعناصر محلية أخرى ( من البربر ) جديرة بإقامة دول فتية قادرة على وضع حد للفوضى الداخلية ومواجهة العدو فى الخارج . وهكذا كان على كل من الدولتين : الموحدية والمرابطية أن تتبع الواحدة منها الأخرى - وهما دولتان مغربيتان من دول البربر .

ففى مطلع القرن الثانى عشر / ٦هـ قام من يدعى محمد بن تومرت كآمر بالمعروف وأخذ على عاتقه عملية اصلاح دينى فى بلاد المغرب . وبفضل الظروف التى خدمته بشكل رائع ، وبفضل رحلته العلمية وتكوينه العلمى فى الشرق ، نجح أن يجمع حوله قبائل مصمودة فى جبال درن ( أطلس العليا ) ، وكون مذهباً جديداً ، أشبه ما يكون بحزب سياسى دينى ، هو حزب الموحدين ( أو مذهب التوحيد ) .

وكان هدف هذا الحزب هو الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول ، وقمع الخلافات الدينية ، وتحقيق الوحدة فى عالم اسلامى جديد ، يتصف بالسلامة الصحية وبالقوة التى تمكنه من مواجهة أعداء الخارج من غير المسلمين .

وهكذا نظم ابن تومرت جماعة الموحدين على أساس دينى - سياسى مشترك . فقد احتفظ بالسلطة الروحية الدينية لنفسه واتخذ لقب المهدي أو الإمام المعصوم ، وجعل على رأس السلطة العسكرية - تابعه المخلص عبدالمؤمن بن على المشهور . وانتهى صراعه ضد المرابطين أصحاب السلطة وقتئذ ، بالنجاح . وبعد وفاته ( ٥٢٤هـ / ١١٣٠م ) استمر عبدالمؤمن فى قيادة الصراع بمهارة أدت الى الإستيلاء على العاصمة مراکش ( ٥٤١هـ / ١١٤٦م ) . ونجح عبدالمؤمن فى طرد النورماندين الصقليين من أفريقية ، وبذلك حقق وحدة

كل بلاد المغرب . وعندئذ قام بغزو الأندلس ، واتخذ لقب الخليفة ، وبذلك أقام أسرة ملكية حاكمة ، هي أسرة : " بنو عبد المؤمن " .

حقيقة أن مؤسسى الدولتين البربريتين ( المرابطية والموحدية ) قاموا بالدعوة إلى الإصلاح الدينى ، وحققوا تغييرات فى المجالات الدينية والاجتماعية ، ولكن الأكيد هو أن الجهاد وحده ضد الكافر هو الذى حقق لهم المجد والفخار . ففى نظر أهل ذلك العصر كان الجهاد وحده الذى يعمل له الحساب وهكذا يحدد انتصار الزلاقة ( Sacralias : ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ) الذى أحرزه يوسف بن تاشفين قمة الذروة فى التاريخ المرابطى ، وكذلك الأمر بالنسبة لمعركة الأرك ( Alarcos : ٥٩٠ هـ / ١١٩٥ م ) التى أحرزها يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن التى تعتبر أعظم إنجازات الأسرة الموحدية ، كما آذنت هزيمة العقاب ( LasNavas de Tolosa : ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ) على عهد الناصر الى ضياع اسبانيا الإسلامية ، من حيث كانت بداية النهاية بالنسبة لدولة بنى عبد المؤمن الموحدية .

وهكذا يمكن اعتبار العصر الموحدى بشكل عام ، بمثابة آخر عملية تقويم لدولة المسلمين فى مواجهة حرب الإسترداد الأسبانية ( Reconquista ) ، وعلى الأخص فى عهد المنصور ، الذى يعتبر ذروة العصر الموحدى ، كما هو خطوة البداية نحو إضمحلال تلك الدولة .

ولكل ذلك رأينا أنه ربما كان من المفيد تكريس دراسة خاصة لعصر يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ( ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ - ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ) ومع ذلك فإن دراستنا لن تقتصر على الأعمال السياسية ، ولا على التظاهرات العسكرية ، إذا شتمت بشكل عام ، على المظاهر الحضارية فى تلك الفترة ، على قدر ماتسمح به الوثائق المصدرية .

ونحن لا ندعى أننا وجدنا وثائق جديدة فى هذا المجال ، وذلك أن بحثنا يرتكز أساسا إما على مؤلفات الكتاب العرب المعروفين ، وإما على الأعمال

القديمة أو الحديثة للعلماء المتخصصين في دراسة حضارة الغرب الإسلامي .

**ومع ذلك فسنحاول أن نقدم بعض المعلومات الجديدة .**

وفي هذا المقام يجب علينا التوجه بالشكر والإحترام إلى الأستاذ / ليفي بروفنسال له الرحمة - صاحب الأعمال التي لا غنى عنها لدراسة تاريخ الموحدين . ونحن نعتز بالجميل لكل الأساتذة والعلماء أصحاب الأبحاث الصبورة التي تستمر في تقديم الخدمات التي لا تقدر للدراسين .

### **المصادر:**

قبل أن نعرض للموضوع ، يحسن بنا أن نلقى بنظرة سريعة على المصادر الرئيسية لتاريخ الموحدين ، وخاصة تلك التي تتعلق بعصر المنصور .

وهذه المصادر ليست ثرية ، كما أنها ليست كثيرة . ورغم المكتشفات الحديثة فيجب الأمل في أن يقدم لنا المستقبل لمعطيات جديدة ، فبدون ذلك ستظل معارفنا في كثير من المجالات محدودة ، كما ستبقى ناقصة في عديد من النقاط .

وسنعرض بالترتيب الوثائق الرسمية ، والأعمال التاريخية المصدرية ، ومعجمات السير ، والأعمال الجغرافية ثم الكتب التاريخية الثانوية المحدودة الأهمية ، وننهي العرض بكتب الرحالة .

### **الوثائق الرسمية:**

إذا كان مما لا جدل فيه في دراسة التاريخ أن يكون للوثائق الرسمية قيمة رئيسية ، فإن الرسائل الـ ٣٧ ( السبعة والثلاثين ) التي نشرت ثم درست بمعرفة ١. ليفي - بروفنسال ( الرباط ١٩٤١ ، باريس ١٩٤٢ ) ، تكون في مقدمة ما يشار إليه . فأصالتها بصفة خاصة ، لا شك فيها من حيث أن محتواها جميعاً يوجد كما كان في شكله الأولى دون أية تعليقات من حيث الشكل أو المضمون .

وهي من حيث المحتوى يمكن أن تصنف في طبقتين أولاهما : تلك التي تعالج المذهب الموحدى / وثانيتهما : تلك التي لها سمة سياسية خالصة . ونحن نقتصر هنا على تحليل ٩ ( تسع ) من الرسائل الصادرة باسم أبى يوسف يعقوب المنصور . والأولى مهمة بخاصة ، فيما يتعلق بتاريخ إعلان ولايته . إنها تحسم هذه المسألة التي كانت قلقة حتى الآن من حيث أنها أتت لتؤيد التاريخ الذى حدده صاحب البيان المغرب ( الذى بدأ نشره تحت عنوان Anonimo أو ابن بسام - انظر ثبت المصادر ) ابن عذارى ، وهو يومي ١ ، ٢ من شهر جمادى الأولى من سنة ٥٨٠ هـ / ١٠ ، ١١ من أغسطس ١١٨٤ م ، بينما يحدده عبدالواحد المراكشى ، المؤلف المعاصر بعد أكثر من شهر من ذلك التاريخ .

والرسالة الثانية مهمة بالنسبة لتنظيم الشرطة والإشراف على الأسواق . والقسم الأخير الخاص بالزكاة مهم بصفة خاصة لدراسة النظم المالية . والرسائل الأربع التالية تخص العمليات العسكرية التي قام بها بنو غانية والغز في أقصى الشرق من الدولة الموحدية . وهي تعطى الكثير من التفاصيل التي لا توجد في غيرها ، وتلقى بالضوء على الكثير من المعلومات المختصرة أو المشوهة جزئياً في غيرها من المراجع .

والرسالتان الأخيرتان تتعلقان بالعمليات العسكرية التي قام بها يعقوب في الأندلس ، وهما تتفقان مع رواية ابن عذارى ( Anonimo ) والأولى تدحض جزئياً رواية ابن خلدون ، والثانية تتحدث عن حملة عسكرية في وادى التاجه الأوسط وتضيف تفاصيل دقيقة الى المعلومات التي يقدمها كل من ابن خلدون وصاحب الروض المعطار .

وإلى هذه المجموعة من الرسائل الرسمية ، يجب أن تضاف القطعة الأولى من الوثائق التي لم تنشر في التاريخ الموحدى ( مذكرات البيدق ) التي نشرت وترجمت بمعرفة أ. ليفي - بروفنسال ( باريس ، ١٩٢٨ ) . أما القطعة



الثانية فتكون على العكس من ذلك عملاً شخصياً وهي تذكر بالتالى فيما بعد . والرسائل فى القطعة الاولى تتعلق ببداية المجتمع الموحدى . وهذه الرسائل المذهبية المطولة لابن تومرت ولعبد المؤمن تمثل إدانة عنيفة لمذهب التجسيم لدى المرابطين - موجهة للأتباع والمقاومين من الموحدين .

والى جانب ذلك نذكر الوثائق الدولية الموحدية المحفوظة فى أرشيفات بيزا وفلورنسا والتي نشرت ودرست بمعرفة أمارى ( فلورنسا ، ١٨٦٣ ) ودى ماس-لاترى ( باريس ، ١٨٦٦ ) ، والتي تصنف فى نفس الدرجة ، وهي مهمة بالنسبة للتاريخ الإقتصادى لذلك العصر .

بعد ذلك يأتى كتاب ابن صاحب الصلاة ، المعنون بـ "المن بالإمامة" ( مخطوط إكسفورد ، مارس ٤٣٣ ، ونشر عبد الهادى التازى ، ١٩٦٤ ) ، الذى يحوى كماً ضخماً من الرسائل الرسمية . بعضها صدرت باسم عبد المؤمن بمناسبة فتح أفريقية وإخضاع المهدية . وبعضها الآخر صدر باسم أبى يعقوب يوسف ، والى إشبيلية ثم أميراً بعد وفاة عبد المؤمن ، وأخيراً خليفة ، وهي : إجابات لرسائل عبد المؤمن ، وخطابات دوريه تؤكد العدالة للجميع . هذا ، وأرسلت غيرها بمناسبة هزيمة ابن مردنيش ، باسم أبى حفص عمر بن عبد المؤمن الوزير فى حياة والده ، وهو شخصية عارمة ، ومنافس خطر ليوسف الذى كان قد اكتفى بلقب الأمير فقط . ورسائل أخرى فى النهاية باسم إخوة آخرين ليوسف ، وهم حكام الولايات الأفريقية والمغربية والاندلسية ، وذلك فى مناسبات متعددة ، مثل : الإنتصارات العسكرية ، والإعتراف بيوسف كأمير للمؤمنين . ودائرة معارف القلقشندي المعنونة بـ "صبح الأعشى" ( نشر القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٨ ) تحفظ لنا هى الأخرى بعض الرسائل الموحدية الرسمية أو الرسائل الموجهة للموحدين من الخارج ، وهي وثائق هامة بالنسبة لنظام ديوان الرسائل كما هي مهمة بالنسبة للتاريخ السياسى ، وإن ظلت أصالتها موضع شك .



وبالإضافة إلى الوثائق الرسمية ، ليس لدينا من المصادر إلا مؤلفات أو مصنفات مجموعة : من تاريخية وغير تاريخية ، من : معاصرة أو متأخرة . ونحن نحاول هنا أن نتعرف على محتوياتها ، ومصادر كل منها ، وبيان العلاقات القائمة بين بعض هذه الوثائق والبعض الآخر .

ومن بين هذا الصنف الأخير نبدأ بذكر كتاب محمد بن تومرت "أعز ما يطلب" (الجزائر ، ١٩٠٣ ) ، وهو عمل أصيل لمنشئ الدولة الموحدية ، وأول منبع لمذهب أهل التوحيد . ففيه يعرض ابن تومرت المبادئ الأولية للعقيدة ، وهي ابتداء الفكرة الروحية والتجريدية للذات الإلهية ، المستوحاة من عقيدة المعتزلة ، والتي ، كما يقول ، لا تتفق مع أية فكرة أخرى تقرب من قريب أو من بعيد من أفكار التجسيم . وهي بعد ذلك مستوحاة من المذهب الشيعي ، مذهب الإمام المعصوم الذي ينبغي الخضوع له خضوعاً تاماً بصفته أميراً للمؤمنين . وهذا المذهب يهاجم بقوة كل الأفكار الدينية وكذلك القائمين على إدارة الجماعة الإسلامية في الغرب ( الإفريقي الأسباني ) في ذلك العهد ، ويملي في ضرورة قتالهم دون عفو أو رحمة ، هنا أو هناك ، وبكل الوسائل المتاحة .

وتأليف عبد الواحد المراكشي وهو "المعجب" ( نشر دوزي ، ليدن ، ١٨٤٧ ) جدير بأن يقدم لنا معلومات كافية عن دولة الموحدين الفتيحة . فالمؤلف كان على صلة بالأحداث وقتئذ ، بطريقة أو بأخرى حيث كان منغمساً عن قرب بجزء منها . فهو من مواليد مراكش سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م ، في أوائل عهد المنصور ، وكان تأليفه لكتابه سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، في المشرق في أغلب الاحتمالات .

وتاريخ عبد الواحد المراكشي ينقسم الى فترتين مختلفتين ، لهما قيمة تاريخية غير متساوية . والفترة الاولى خاصة بالاندلس منذ الفتح حتى نشأة الدولة الموحدية ، والثانية في تاريخ الموحدين صرفاً . وهذه الأخيرة تمثل العمل

الرئيسي للمؤلف ، من حيث أن معلوماته هنا ذات قيمة كبيرة ، فهو على طول الرواية يذكر مصادره، عن شهود العيان ممن يوثق بهم بشكل عام ، أو عن مصادر عالية وجديرة بالإحترام ، مثل : يحيى حفيد عبدالمؤمن . وهو إذ كان في الحقيقة يؤلف كتابه مستقلاً تماماً عن الأسرة الحاكمة ، بعيداً عن ضغوط رجال الدولة ، فإنه يظهر في رواياته غير منحاز إلى درجة كبيرة .

وفوق ذلك فرغم أن المراكشي كان بعيداً عن كتب تاريخ الموحدين ، فإن معلوماته يمكن أن تعتبر من أكثر المعلومات أصالة ، ولو أنه يظهر في عدد منها أحياناً ، قدر ، من عدم الدقة بسبب ضعف ذاكرته . ففي فاس شاهد بنفسه إحراق كتب الفروع والفلسفة . وكذلك كان حاضراً في مراكش عندما وزع المنصور في إحتفال سنوي الهدايا والنقود على الأطفال الأيتام المتجمعين بالقرب من القصر الملكي . وهو يصف بفن وبكثير من الوضوح والتفصيل المواكب الخلافية ، ويستطرد طويلاً عن الإحتفال بصلاة الجمعة . واليه يرجع الفضل في إمدادنا بمعلومات جديدة ، مثل بدايات ابن رشد ، وأحوال اليهود ، وكيفية العمل في بیمارستان ( مستشفى ) مراكش .

ومن وجهة النظر الأدبية يقدم لنا كتاب عبد الواحد المراكشي نماذج وفيرة من الأشعار . ويأتي بعد ذلك الجزء الثاني من كتاب "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة . ( مخطوط أكسفورد ونشرة التازي ) وهو من المصادر الرئيسية للتاريخ الموحدي . إنه يعالج الفترة من ٥٥٩ إلى ٥٦٩ هـ / ١١٦٤ - ١١٧٤ م إلى جانب أعمال عمومية تمت بعد ذلك في إشبيلية وضواحيها ، على عهد يوسف وبداية عهد المنصور .

ويصف دوزي في مقدمته لكتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي ( ص ٩ ) ، ابن صاحب الصلاة بأنه عميل موحدي ، أكثرى للتغني بأمجاد الأسرة المالكة ، وأنه حسبما يري لا يقارن بعبد الواحد صاحب الرواية الواضحة والأمانة غير المتحيزة . والظاهر أن الحقيقة قد تكون غير ذلك . فإن صاحب الصلاة إذ قد

يظهر لنا كمؤرخ عادي ، ولكنه لا يتوانى عن أن يقدم لنا معلومات مطولة ، جديرة بالثقة ، وفضلاً عن العديد من الرسائل الرسمية التي تعطي الروايات التي يقدمها في مؤلفه الكثير من الأصالة والجدية . حقيقة إنه لا يعلق عادة على الرسائل الرسمية التي يعرضها ، ولا على الأحداث ، كما لا يستخلص النتائج ولا يشير إلى الأهداف المنشودة . ولكن المؤرخ الحديث - الذي يقع على عاتقه كل ذلك - لا يكون إلا سعيداً بهذا الوضع .

وإلى جانب الرسائل الرسمية ، يقدم ابن صاحب الصلاة معلومات فريدة عن عدد من الأحداث التي كان بالنسبة لها ، في مناسبات متعددة ، شاهد عيان . والمعلومات الخاصة بأعمال التخريب التي قام بها ابن مردنيش وصهره ابن همشك في الأندلس لها قيمتها من حيث الإسهاب والأصالة . وكذلك الأمر بالنسبة لروايته عن إقامة عبدالمؤمن بجبل طارق سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، إلى جانب معلومات أخرى .

وهكذا فهو عندما يتكلم عن الإعدادات التي قام بها عبدالمؤمن في صراعه ضد نصارى الأندلس ، يعدد ١٢٠ مركبا شاهداً بنفسه على تركيبات البناء الـ ٢٠ ( مائتين ) في دار صناعة السفن في ميناء المعمور بمصب وادي سبو بالقرب من سلا . وفي جبل الفتح يحضر بنفسه مع الطلبة للقاء السيدين : أبي حفص وأبي سعيد ، وهما ابنا عبدالمؤمن ، وكان أولهما يشغل منصب الوزير والآخر ولاية قرطبة - وتم لقاء المجاملة بشكل احتفالي في حضور الشعراء .

وكما هي العادة حينئذ ، فإن مؤلف ابن صاحب الصلاة له قيمة أدبية معتبرة فهو في مناسبات عديدة يعرض قطعاً شعرية مطولة تتغنى بمدائح عبدالمؤمن وأبنائه .

ومما يؤسف له أن الجزء الثالث الذي كان يمكن أن يقدم لنا معلومات جيدة عن عصر المنصور يعتبر في حكم المفقود . فالمعلومات الثمينة التي يقدمها لنا

عن العمل الإنشائي الذى قام به المنصور فى أشبيلية ، وخاصة ما يتعلق بإنشاء منارة المسجد الجامع الذى يؤكد هذه الفكرة . وحتى الآن وجب علينا الإكتفاء من ابن صاحب الصلاة ببعض المعلومات التى احتفظ لنا بها بيان ابن عذارى Anonimo وكذلك روض القرطاس لابن أبى زرع ، إلى جانب بعض القطع المتناثرة فى كتب التاريخ المتأخرة .

إن القطعة التى نشرت من بيان ابن عذارى تحت اسم "مخطوط مدريد وكوبنهاجن" المجهول "ElAnonimo de Madridy Copenhagen" والذى نشر وترجمه ويثى ( Huici ) ( بلنسية ١٩١٧ ) يمثل التاريخ الأكثر شمولاً بالنسبة للتاريخ الموحدى فى الفترة ما بين ٥٦٦هـ / ١١٧٠م و ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م فبالمقارنة مع المصادر الأخرى لتاريخ بنى عبدالمؤمن ، يكون له قيمة لا تقدر بثمن نظراً لصحة أخباره ودقة معلوماتية .

ومع ذلك فإن هذا التاريخ ليس كاملاً بشكل تام . فهو ينقصه بداية الموحدين ، فالجزء الباقي يبدأ بيوسف بن عبدالمؤمن بعد أن صار خليفة . وهو يمتد على طول الأحداث الرئيسية على عهده فى الأندلس ، وفى أفريقيا والمغرب حتى استشهاده أمام شنترين ( Santaren ) .

والأمر كذلك بالنسبة لعهد المنصور وكذلك الناصر حتى كارثة العقاب ( Las Navas de Talosa ) التى تحدد بداية ضعف الدولة الموحدية الفتية .

فقد أصابها الهرم حتى تركت المكان للفوضى الداخلية ، والتراجع والتنازلات الإقليمية فى الأندلس ، ومؤامرت البلاط والصراعات الداخلية فى سبيل الوصول إلى سدة الحكم ، وهى الأحداث التعسة التى ستغيب فيها البدايات العظيمة للدولة المؤمنية .

وإذا نظرنا فى الفصول التى تتعلق بعهد المنصور نجد أن المؤلف يصف بإسهاب آخر حملات يوسف فى الأندلس ، وهى التى انتهت بوصول يعقوب المنصور الى سدة الحكم . فهو يصف إعدادات الحملة وتنقلات الخليفة على



رأس فتواته بنوع من الإطالة في المعلومات والدقة في التفصيل بطريقة لا نعهدها في التواريخ الأخرى المعروفة لنا حتى الآن : فالمسير من فاس يوم الثلاثاء ٤ محرم ٥٨٠هـ / ١٧ أبريل ١١٨٤م ، والنزول في سبتة ، وركوب البحر يوم الخميس ٥ صفر ، والرسو في جبل الفتح ... الخ والمؤلف يقتبس هنا كما جيداً من معلوماته من ابن صاحب الصلاة ، ومن مؤلف آخر اسمه يوسف بن عمر ، وهو شاهد عيان يظن في صحة روايته . وهو يعرض باستفاضة إلى عودة الخليفة الجديد إلى مراكش . ويصف الـ ١٣ مراكب التي قادها أمير البحر أبو العباس الصقلي بعد أن كانت قد جهزت في طريقه من أجل عبور الخليفة وحاشيته ، وكان احتفال الوداع في إشبيلية ، ثم وصف الطريق حتى ميناء الركوب ، وهو يذكر البعثة التي أتت لأداء فروض الولاء والطاعة للخليفة .

وبإستثناء بعض الأخطاء البسيطة ، تتمثل مساوئ الكتاب في الخروم الكثيرة والأخطاء التي ترجع إلى النسخ ، الأمر الذي يجعل القراءة في تلك المواضع من الصعوبة بمكان .

ومع أن العمل في مجمله مهم بالنسبة لتاريخ المغرب ، فإن الجزء الأول من البيان المغرب الذي ينسب إلى نفس المؤلف ، والذي نشره دوزي ( ليدن ١٨٤٨-١٨٥١ ) ، وترجمة فانيان ( الجزائر ١٩٠١-١٩٠٤ ) ويعالج تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي سنة ١٢٠٥م / ٦٠٢هـ ، فهو ثانوي الأهمية بالنسبة لبداية الموحدين .

وأما كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع ( نشر طورنبرج ١٨٤٣ ) فهو من أعمال الجمع والتأليف في القرن الرابع عشر ( ١٣٢٦م ) ، ويعتبر وثيقة ذات أهمية بالغة لتاريخ المغرب لأكثر من ٥ ( خمسة ) قرون .

وهو يعرفنا به ( خمسة ) أسر ملكية ، توالى على حكم المغرب الأقصى ، وهي : الإدارة مؤسسو فاس ، وزناته الذين انتزعوا منهم الحكم ، والمرابطون

مؤسسوا مراكش ، وخلفاؤهم الموحدون ، وأخيرا يعرف ببنى مرين ، وراثـة  
الموحدين فى أملاكهم الغربية .

ويكفى النظر فى المؤلف لتقرير أنه استقى معلوماته من وثائق معاصرة  
أصيلة . وهكذا فهو يقدم لنا جملة من التواريخ الدقيقة جداً فى بعض الأحيان  
، إذ لا تحمل سنة الحدث ، ويوم وقوعه ، بل الساعة التى وقع فيها أيضاً . وإلى  
جانب هذه التوقيتات الدقيقة ، يعطينا معلومات مبهمة تثير دهشة القارئ  
( انظر أ.ف. جوتييه ، ماضى أفريقيا ، ص ٦٦-٦٧ ) .

وفىما يتعلق بالجزء الخاص بالعصر الموحدى ، يقدم المؤلف هنا ، وفى  
مواضع أخرى روايات تاريخية ، وقصصاً أسطورية تماماً ، مما اصطنعتـه الدعاية  
المناهضة للموحدين بعد سقوط دولتهم .

فالمقتبسات المختلفة التى أخذها من ابن صاحب الصلاة ليست محققة فقط  
بل أنها متناقضة أحياناً . فالمؤلف فى غمرة اهتمامه بالأى يترك أى معلومة ما ،  
يحدد مثلاً التواريخ المختلفة لوفاة محمد بن تومرت حسبما حددتها المصادر  
المتنوعة .

وإذا إكتفينا هنا بالمعلومات التاريخية فقط لذاتها ، فنحن لن نتوقف عند  
عدم انتظامها ، أو تناقضاتها ولا عند افتقادها لروح النقد من جانب المؤلف .  
وذلك أن الإختيار الجدى لتلك الكمية الهائلة من المادة المعلوماتية يعتبر حقاً  
من عمل المؤرخ .

ومن وجهة نظرنا فإن أبى زرع يعرفنا بما فيه الكفاية ( وهو ما لم يفعله  
المؤلفون الآخرون ) عن المنشآت التى بناها عبدالمؤمن ، وابنه يوسف ، وحفيده  
يعقوب . وعندما يتعلق الأمر بالعمليات العسكرية التى قام بها هؤلاء الحكام  
فإن معلوماته تزداد حينئذ دقة . فحصار شنترين بمعرفة يوسف ، وانتصار  
يعقوب فى الأرك ( الأركوس ) ، وكارثة العقاب على عهد الناصر ، كل هذه  
الأحداث وصفت تفصيلاً ، وبفن كبير ، وأكثر من ذلك فإن وصفها تم بكثير

من المهارة ، كما بدقة شاهد العيان . وهذا الأمر يشير الظن بأن مؤلفنا اغترف عن هذه النقاط معلومات من مصادر صحيحة الأصالة مما لم يصل إلينا منها نظير.

والجزء الثانى من "الوثائق التى لم تنشر عن تاريخ الموحدين :للبيدق" ،  
والتي كتبت فى مطلع القرن الثالث عشر والتي نشرها الأستاذ بروفنسال فلها  
أهمية عظيمة من حيث التعريف بتنظيم جماعة الموحدين الناشئة تحت  
إشراف ابن تومرت ، وتطورها على عهد عبدالمؤمن وخلفائه الأوائل . ويكون  
فهمنا أكثر لأهمية قيمة هذه الوثيقة بالنسبة للتاريخ الاجتماعى إذا أخذنا  
بعين الاعتبار إن المؤلفين عادة ما يهتمون بالتاريخ السياسى وحده . وأهم  
التفصيلات هى ذات العلاقة بأسرة محمد بن تومرت ، وأصدقائه فى مصر ،  
وبحاشيته ، وبمجلس العشرة ، وبمجلس الخمسين . والأكثر أهمية من ذلك  
هى قائمة المعلومات الخاصة بقبائل الموحدين ، النواة العسكرية القوية "لحزب  
التوحيد" . والقائمة تحوى أجزاء كل قبيلة ومختلف عناصرها التركيبية .  
ودرجة الأقدمية فى تكوين "حزب التوحيد" تمثل العنصر الأساسى فى نظام  
التسلسل . ويعدد المؤلف أصناف عبيد المخزن من التابعين ثم يعالج التنظيم  
الداخلى للقبيلة . ويصف لنا المؤلف عملية "التمييز" للموحدين ، وهى نوع  
من التطهير الذى يتم فى قلب الحزب لتصفية العناصر المشكوك فى أمرها .  
ورغم أهمية المعلومات عن هذا الأمر إلا أنها ينقصها الوضوح . والغريب فى  
الأمر أن مشرقيا هو ابن الأثير ، هو الذى فهم أكثر من غيره هذه العملية  
وشرحها بأكثر الطرق وضوحاً .

والقطعة الثالثة من البيدق ليست مهمة بالنسبة لنا إلا فيما يتعلق بالتاريخ  
السياسى لأوائل الموحدين من عهد ابن تومرت الى أيام يوسف .  
واختصاراً . فإن القطعة الثانية ، الوحيدة من نوعها ، وهى ذات الأهمية  
الكبرى بالنسبة لنا .

أما عن الحوليات التاريخية للمؤرخ المشرقي ابن الأثير ( نشرة طورنبرج، ١٨٦٢-١٨٧٦ )، فهي مصدر جدير بالثقة لعدد من النقاط من التاريخ الموحدى، ويبدأ المؤلف عمله المسمى بالكامل فى سنة ١١٩٧م / ٥٩٤هـ على عهد الثالث من الحكام المؤمنين ، فى الوقت الذى كان انتصار الأرك (الأركوس) الشهيد يدوى فى كل عالم الإسلام ، وحيث كانت ذكريات عبدالمؤمن وابن تومرت باقية لم تنس بعد . ولا يمكن اتهام عمل ابن الأثير فى هذا المقام إلا بأنه كان يكتب فى الموصل بالعراق بعيداً عن مراکش حيث كانت تنسج خيوط التاريخ الموحدى ، فى المغرب الأقصى . وعلى العكس من ذلك فإنه إذا لم يكن المؤلف قد ذهب بنفسه الى المغرب، فلا شك أنه التقى فى المشرق بكثير من المغاربة الذى شدتهم الى هناك رحلة الحج . وفوق ذلك فمن المحتمل إنه نظر عن هذا الطريق ، فى مؤرخات أصيلة، فرمما يكون قد عرف تاريخ ابن صاحب الصلاة . هذا ، كما أن أصالة مصادره ربما تأكدت عندما تقارن معلوماته بما فى الرسائل الرسمية من أخبار خاصة بخلفاء عبدالمؤمن ، أو بتعيين أبنائه حكاما للولايات .

وفيما يتعلق بالمنصور ليس لدينا معلومات إلا عن معركة الأرك . وعن هذا الموضوع يظهر المؤرخ راغباً فى اعطاء معلومات دقيقة ، رغم ما يحيط بأصالتها من شك كثير أو قليل .

ومعظم هذه الروايات يقدمها النويرى ( المتوفى ١٣٣٢م / ٧٣٣هـ ) فى دائرة معارفه المسماة "نهاية الأرب فى فنون العرب" .

ورغم وقته المتأخر (آخر القرن الـ ١٤م / ٨هـ) فإن تاريخ ابن خلدون الضخم، المعروف بالعبر (نشرة القاهرة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م) ، مهم بالنسبة للعهد الموحدى . ونحن نترك جانباً مركز المؤلف الاجتماعى ، من حيث كونه رجل دولة ، عالماً بالسياسة، وصاحب عبقرية وذكاء مرموق . واستقلالية فى الرأى ، ومنهج علمى ( فى النقد ، والتحليل ، والإختبار الدقيق للمصادر ):



فسابقونا تحدثوا عن كل ذلك . وفيما يتعلق بتاريخ الموحدين الذى يهمنا ، نكتفى ببيان أهميته .

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المؤلف مغربى لم يفكر أولاً ، لا فى دراسة تاريخ بلاده ، فيمكن أن نقيّم بشكل أفضل تاريخ الجزء الخاص بالبربر بالمقارنة مع الأقسام التى خصصها للتاريخ العالمى .

وأهم ما يميز تاريخ المغرب لابن خلدون هو أنه يعتبر القبيلة – عربية أو بربرية – بمثابة الوحدة السياسية بالإمتياز . وهكذا ، فإن تاريخ الإمبراطوريات العظمى التى قامت فى أفريقيا الشمالية ، يعتبر حقيقة تاريخ اتحادات لقبائل مختلفة ، وفى داخله تتمتع كل قبيلة بحياتها السياسية الخاصة ، ولكن تاريخ الأسرة الحاكمة – بمعنى القبيلة الحاكمة – يكون فى مقدمة مسرح الأحداث . وهكذا يتكلم ابن خلدون بتفصيل فى أكثر من موضع عن الأمبراطورية الموحدية ، وذلك عندما يستعرض تاريخ قبائل المصامدة أو تاريخ حلفائها ، من : هرغة ، وكومية ، وبنو الرند . وصنهاجة الطبقة الثالثة ( الجيل ) ، وبنو جامع . وهو يعرض التاريخ الموحدى أيضاً عندما يدرس تاريخ القبائل العربية التى قامت فيه بدورها ، مثل : بنى هلال وبنى سليم بتفريعاتهم المختلفة . ويعرض ابن خلدون تاريخ كل جماعة عرقية ، ويتبع أثرها عبر القرون منذ البدايات الأولى ، مبينا دور كل منها فى البلاد التى نزلتها ، وتحت كل نظم الحكم التى عرفتها .

وفى النهاية يخصص المؤلف فصلاً خاصة لتاريخ الدولة الموحدية ، بمعنى من بداية الأسرة الحاكمة الى ابن تومرت ، وإلى خلفائه وإلى الأحداث الرئيسية التى دارت على عهود مختلف الحكام . والأهمية الكبرى لعمل ابن خلدون تتمثل فى أنه يقتبس معلوماته من كتب تاريخية موثقة ، مثل : ابن صاحب الصلاة وابن القطان .

## معاجم النسير والطبقات:

‘ول ما نذكر منها كتاب ابن خلكان المعنون بـ“ وفيات الأعيان (نشر القاهرة، ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م) الذي يعدد بعض الشخصيات الموحدية الكبرى . مثل : ابن تومرت ، وعبدالمؤمن ، ويوسف ويعقوب ، وأبى بكر بن زهر ، وغيرهم ، وابن خلكان الذي يؤلف سيره في القرن الثالث عشر / ٧هـ ، حوالى نهاية الدولة الموحدية (٦٥٤-٦٧٢هـ / ١٢٥٦ - ١٢٧٤م) يعطينا حشداً من المعلومات القيمة التى تؤكد أصالتها . وسيرة ابن تومرت من بينها تعتبر كاملة تقريباً .

وكذلك الأمر بالنسبة لسير عبدالمؤمن ، ويوسف ، ويعقوب . فالمؤلف يصف الملامح الشخصية وسيرة كل منهم قبل وصوله الى عرش الخلافة . وإلى جانب عدد من المقتبسات من ابن الأثير ومن عبد الواحد المراكشى نجد بعض التدقيقات الاصيل . فبمناسبة وقعة الأرك ، يقدم بعض ما سجله من يسمى بـ تاج الدين عبدالله بن حماوية الذى زار مراكش وألف تاريخاً عن دولة الموحدين . وهنا يقدم لنا معلومات أكيدة . ومن جهة أخرى يعيد الرسالة الموهومة المنسوبة الى ألفونسو والموجهة إلى يعقوب ، ولكنه يكتشف رسالة أخرى مثيلة موجهة إلى يوسف بن تاشفين ، وهو عندما يقع فى المازق لا يجد مخرجاً إلا فى مقولة “والله أعلم” .

وابن خلكان عندما يعرض لنهاية يعقوب التاريخية يتحفه بنهاية أخرى صوفية : فيعقوب يزهد فى عرض الدنيا ويقوم متخفياً برحلة الى المشرق حيث مات مجهولاً . وسنجد أصداء هذه النهاية الصوفية عند المتأخرين من الكتاب ، من ابن الخطيب إلى المقرئ والزركشى والسلاوى .

وإلى نفس طبقة الوفيات ترجع مجموعة من الكتب وإن كانت ذات طبيعة أكثر أدبية ولما كان مؤلفوها من الأدباء والشعراء فإنهم اهتموا بصفة خاصة بسير العلماء والأدباء والشعراء ، وبذلك ظهر اهتمامهم أكثر بالنشاطات

الادبية والعلمية . ومع ذلك فهذه المؤلفات تذكر كل الشخصيات الكبيرة تقريباً منذ القرن الـ ١١ إلى الـ ١٤ / ٥-٨ هـ وهى بالتالى ذات أهمية بالنسبة للتاريخ السياسى .

وأول ما نذكر منها كتاب ابن الأبار ( ت ١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ ) المعنون بـ " التكملة لكتاب الصلة " ( مدريد ، ١٨٨٧ ) ، وكتاب أبى الحسن على بن محمد بن على الرُعَيْنى ( ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م ) ، مخطوط الاسكوريال العربى رقم ١٧٢٩ ) والمسمى بالفهرسة أى قائمة أساتذته . وهذا المؤلف الأخير مهم بالنسبة للتاريخ الأدبى والحركة الفكرية . فالكاتب الذى يحرر فى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م يقدم لنا سير أساتذته ، وهم بعامة من قادة الحركة العلمية والعقلية فى العصر الموحدى ، فهو يحدد لنا تخصصاتهم ، والمحركات الفكرية التى اتبعوها ، والوظائف التى كانوا يشغلونها . وهو يذكر بالتوازى مع ذلك المؤلفات العلمية والأدبية والدينية والمدنية الأكثر شهرة فى ذلك العصر .

وبعد ذلك ثانى الجزآن من قائمة محمد بن محمد بن عبد الملك الأوسى المراكشى الذى عاش فى القرن الـ ٨ هـ / ١٤ م ، وهما مخطوطتان أحدهما محفوظة فى مكتبة الاسكوريال ( رقم ١٦٨٢ ) ، والأخرى بالمكتبة الوطنية بباريس ( رقم ٢١٥٦ ) . ويقدم لنا المؤلف مختصرات تراجم متعلقة بالثقفين والمفكرين من القرون الـ ٦ ، والـ ٧ ، والـ ٨ هـ / ١٢ ، ١٣ ، ١٤ م .

ومن بين السير التى يحويها مخطوط الاسكوريال نعدد سير : سعد السعود الأموى الظاهرى ( ٥١٥ - ٥٨٨ هـ / ١١١٩ - ١١٩٢ م ) ، وأبى القاسم سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصارى ، المعروف بابن الطيلسان ( من الزهاد ٥٤٣ - ٦٠٨ هـ / ١١٤٨ - ١٢١١ م ) وسيرة أبى الحسن سهل بن محمد بن سهل بن أحمد بن ملك الأزدي ، تلميذ ابن رشد ( ٥٥٩ - ٦٣٩ هـ / ١١٦٣ - ١٢٤١ م ) ، وأبى مدين شعيب بن الحسين الأنصارى ، وأبى زكريا المغيلي ، الزاهدين الشهيدين . . الخ .

ومن بين السير الموجودة في مخطوط باريس ، نعدد سيرة أبي الوليد بن رشد ، التي تحوى تفصيلات كثيرة ، وبخاصة ما يتعلق منها بالسخط على المفكر الكبير ، ولكن بداية تلك السيرة مفتقدة .

ونذكر أيضا كتاب ابن سعيد (ت ١٨٣هـ / ١٢٨٤م) ، وعنوانه "كتاب المغرب فى حلى المغرب " ( مخطوط دار الكتب بالقاهرة ، رقم ١٠٣ ) ، وهو نوع من قواميس السير ، الذى يهتم قبل كل شيء بالشعر .

فالمؤلف يهتم بنشاط أشخاصه فى ميدان الشعر ، وهو يقدم تحف من أشعار المشاهير ممن لهم باع طويل فى مجال القريض ، كما لا ينسى إعطاء بعض التفصيلات عن كل واحد منهم .

وأخيراً نذكر كتاب ابن الخطيب المعروف بالإحاطة فى أخبار غرناطة ( نشرة القاهرة ، ١٣١٩هـ ) ، والذى يعالج اللامعين من رجال غرناطة ، وهو يقدم عن هؤلاء الأشخاص سيرة تفصيلية ، وبين أنسابهم ، وشبابهم ، ونشاطهم السياسى والأدبى . وفيما يتصل بتاريخ الموحدين يقتبس المؤلف معلوماته من ابن عذارى ( المجهول ) وابن سعيد .

والى هذا الصنف من الكتب نلحق كتاب "نفع الطيب" الذى ألفه المقرئ (نشر القاهرة ، ١٢٧٩هـ) ، رغم أنه من نوع مختلف . فهذا الكتاب متميز من غير شك كمصدر للتاريخ السياسى ، والإجتماعى ، والأدبى لبلاد الأندلس منذ الفتح العربى الى نهاية حرب الإسترداد (الريكونكيستا) الأسبانية . ورغم وقته المتأخر ( القرن السابع عشر ) ، وأنه للامر العجيب قد ألف فى المشرق ، فإنه يحوى حشدا من المعلومات المجموعة فى مراكش بمعرفة المؤلف المغربى هو الآخر .

والتأليف يعتبر من أعمال التجميع التى تحوى كمية كبيرة من المعلومات التاريخية والأدبية ، التى عادة ما تجمع عشوائيا ، وهى ذات قيمة غير متكافئة



، إدهى مستفاعة من عديد من المؤلفين ، وموصولة بعضها مع بعض بحيث لا ينسى أى منها . وفيما يتعلق بالتاريخ الموحدى ، من : ابن تومرت وعبد المؤمن ويوسف ويعقوب ، لا يقدم المؤلف معلومات أصيلة ، فهو يغترف معلوماته عادة من ابن خلكان وابن الأثير ، وعلى العكس من ذلك فإن القسم من التاريخ الأدبى الخاص بالعصر مهم ، من حيث أخذ معلوماته أحسانا من كتب لم تصل إلينا ، وهكذا فإن كتاب النفع يقدم إلينا " فى شكل قاموس للسير ، وخلال تراجم العلماء والأدباء ، والشعراء والزهاد يمكن لنا أن نجتمع معلومات ذات طابع سياسى .

### المؤلفات ذات الطابع الجغرافى :

ألف كتاب البكرى من غير شك حوالى منتصف القرن الحادى عشر / ٥٥ هـ ، وكتاب الأدريسى حوالى منتصف القرن الثانى عشر / ٦٠ هـ ، وهما يظنان دون شك من مصادر المعلومات الأصيلة لكل بلاد الشمال الأفريقى فى العصر الوسيط .

والتجميع الجغرافى التاريخى المعروف بالإستبصار فى عجائب الأمصار ( ط . قينا ١٨٥٢ م ، وط جامعة الأسكندرية ١٩٥٨ م ) ، وهو مجهول المؤلف ، إذ ألهمه مغربى من القرن الثانى عشر / ٦٠ هـ يعتبر مهما لدراسة أوائل الموحدين ، ومن بين أجزائه الثلاثة التى يعالج فيها الأماكن المقدسة بالحجاز ، ومصر ، وبلاد المغرب ، فإن القسم الأخير هو الذى يهمنا ، وهو الذى نشر معظمه بمعرفة فون كريمير . ثم ترجم كله بمعرفة ١.فانيان . ورغم إنه يقتبس جزءاً كبيراً من البكرى ، فإن المؤلف المعاصر للمنصور يقدم معلومات عن : مكناسة الزيتون ، وفاس ، ومراكش التى تبين معرفة عميقة بتلك النواحي ، وفوق ذلك ، ففيما يتعلق بالصراع مع بنى غانية يقدم قطعة من رسالة رسمية صادرة من ديوان إنشاء يعقوب

وهكذا يظهر أن أهمية هذا الكتاب فيما يتعلق بالتاريخ السياسى للموحدين تأتي من كون المؤلف صاحب مركز اجتماعى متميز ( فرما كان كاتباً فى ديوان الانشاء على عهد يعقوب ) .

ونذكر أيضاً تجميع الحميرى المؤلف فى القرن الرابع عشر / ٨هـ والذى يحوى معلومات خاصة بالاندلس ( نشر ١. ليفى - بروفنسال ) ( القاهرة ١٩٣٧ - ليندن ١٩٣٨ ) فرغم أنه متأخر ، فإنه يحوى قطعة كبيرة من وصف الاندلس للبكرى ، وهى مفسقودة الآن ، وكذلك من وصف الادريسي ، فللحميرى الفضل فى إظهار كل منهما . وتجميع الحميرى يحوى هنا وهناك معلومات أخرى مقتبسة من أعمال لم تصل إلينا .

فبمناسبة الكلام عن كل مدينة يسجل أهم الأحداث التى دارت بها . وكما نعرف فلما كانت معظم مدن الأندلس الرئيسية قد سقطت فى أيدي المسيحيين عقب هزيمة الناصر الفاصلة سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م ، لم يكن من الغريب أن كان السقوط المأساوى لتلك المدن ، مختلطاً بأواخر الإنتصارات ، هو أهم أحداث العصر الموحدى . فعندما يعالج المؤلف مثلاً قلعة الأرك ، يتكلم عن انتصار المنصور فى هذا الموقع - ويلفت هذا الأمر انتباهه بشدة فيعالج بالتفصيل الأسباب والنتائج .

ومثل هذا يقال عن شلب وشنترين والعقاب وقلعة رباح ، وكثير غيرها من المدن التى تحكى عنها الروايات على نفس النسق . فهناك السقوط وآخر الإنتصارات اقتباساً من مؤلفات لم تصل إلينا .

وإلى هذه الأعمال يمكن أن نضيف قطعة لابن سعيد ترجمها أ. فانيان إلى الفرنسية تحت عنوان " منتخبات لم تنشر خاصة بالمغرب " ( الجزائر ، ١٩٢٤ ) ، وكتاب " مسالك الأبصار " الذى ألف فى القرن الرابع عشر / ٨هـ فى المشرق بمعرفة العمرى . فهذا لعمل يعادل القطعة الثانية من الوثائق التى لم تنشر

( أنظر البيدق )، والمخصصة لتنظيم الجماعة الموحدية الأولى . ولما كان المؤلف يقتبس جزءاً كبيراً من معلوماته من ابن سعيد ، فهو مأخوذ بذكريات الموحدين . وبالنسبة له فالمرينيون هم خلفاء الموحدين كما أن الحفصيين يعتبرون ورثتهم الشرعيون . وبناء على ذلك فهو يوضح أن شرائع الموحدين كانت سائدة في المغرب في القرن الرابع عشر هـ .

ومعظم المعلومات المتعلقة بتنظيم الجماعة الموحدية يعيد تقديمها القلقشندى في دائرة معارفه المسماه "صبح الأعشى" .

ومن أعمال الدرجة الثانية نذكر أولاً كتاب "الحلل الموشية" ( ط . الرباط ، ١٩٢٦ ) . وهنا يكرس المؤلف عمله لمدينة مراكش تماماً كما فعل صاحب روض القرطاس في تخصيص عمله لمدينة فاس . فهو يبدأ ببناء مراكش ، ويقص خبر بداية المرابطين ثم يعالج تاريخ الموحدين وبعده تاريخ المرينيين وهذا الأخير لا يزيد على بعض صفحات يمكن القول إنه لا قيمة لها .

وفيما يتعلق بتاريخ الموحدين ، يلاحظ أن المؤلف يمر سريعاً على الأحداث التالية لوفاة عبد المؤمن لكى يتفادى ، كما يقول ، إطالة مملة للرواية . وهو يذكر المؤلفين الذين نقل عنهم من القطع ، مثل : ابن جبير ، ابن رشيق ، وابن القطان وابن صاحب الصلاة ، وأبو علي الأشيري ، وابن اليسع ثم البيدق ، وهى المصادر المعروفة الجديرة بالثقة ، الأمر الذى يجعل لهذا المؤلف ذى الدرجة الثانية أهمية كبرى .

وهذا المرجع له أهمية أخرى من حيث أنه متعلق بصفة خاصة بالفترة الموحدية التى ندرسها . ومن هذا الوجه فمؤلفات الدرجة الثانية الأخرى لا ترقى الى مستواه من حيث انها تهتم مجملها بالعصور التاريخية التى يعيشها مؤلفوها .

ونذكر ضمن تلك الأعمال ، مؤلفات ابن الخطيب ، وخاصة "أعمال الأعلام" ، "ورقم الحلل" ، ولما كان المؤلف (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) من رجال السياسة والأدب ، مندمجاً في الأحداث المعاصرة فإن ذلك يرفع من قيمة أعماله من غير شك .

ففي كتاب أعمال الأعلام ربما أراد ابن الخطيب أن يؤلف عملاً تاريخياً شاملاً لكل عالم الإسلام ، معادلاً لذلك العمل الذي قام به ابن خلدون . والقسم الذي يهمننا منه هو الخاص بالاندلس ، والذي نشره أ. ليفي-بروفنسال (الرباط، ١٩٣٤) . وفي هذا الكتاب يستعرض المؤلف كل تاريخ إسبانيا الإسلامية ، وخاصة ملوك الطوائف ، ويلاحظ هنا أن تاريخ الأمويين قصير نسبياً ، وأنه غير متناسق الأجزاء ، وأن المنصور ابن أبي عامر يحظى بالإهتمام أكثر من غيره .

أما عن تاريخ الموحدين ، فهو لا يحظى بالمكانة التي ينبغي أن تكون له . فالمؤلف يعرض بالإشارة السريعة إليه في عدة صفحات فقط ، تاريخاً فيه الكثير من الفراغات .

والكتاب الآخر : "رقم الحلل" (ط. تونس، ١٣١٦هـ) ، مؤلف بالشعر الذي يعرف بالرجز، ويعالج تاريخ العالم العربي في المشرق والمغرب ، وهو من أعمال الدرجة الثانية . والشعر الذي يصحبه شرحاً بالنثر المسجوع ، يحوى تاريخ العرب منذ عهد الرسول حتى عصر بني نصر الغرناطيين .

وآخر ما يأتى من المصنفات هي كتب الرحلة ، ويوجد منها اثنتان تلفتان النظر ، وهما : رحلة ابن جبهر (ليدن، ١٩٠٧) وهي أولى ذلك النوع من الأدب الجغرافى ، وهي عبارة عن رحلة حج تمت سنة ٥٧٨هـ / ١١٧٩م ثم رحلة التجاني (التي ترجمها روسو الى الفرنسية ، باريس ١٨٥٣م) والتي تروى رحلة بيلاد افريقية سنة ٧-٦٠٦هـ / ١٣٠٦م . والرحلة الاولى ذات قيمة

ثمينة بالنسبة لعلاقات الموحدين - أو المغاربة بشكل عام - مع الشرق الإسلامي ومصر وحتى مع الممالك المسيحية في البحر المتوسط .

ورحلة التجاني التي تمت في مطلع القرن الـ ١٤ م / ٨ هـ في أفريقية ، مهمة جداً بالنسبة لتاريخ بني غانية في تلك البلاد ، وأن المعلومات النادرة التي يعطيها من ذلك الموضوع يعيد تقديمها ابن خلدون .

وفي نهاية عرضنا للمصادر ينبغي الإحاطة بإننا رأينا ألا نكثر من ذكر الأعمال من الدرجة الثانية، وذلك لعدم الجدوى هنا ، وأن أتى ذكرها عرضاً في إشارات بالدراسة أو بالهوامش ، حيث أمكن الإستفادة منها في بعض المواضع . ولا بأس إذن من ذكر بعضها لأهميته الخاصة ، مثل : مؤلف السلاوي ( الإستقصا ) ، وكتاب ابن أبي دينار ( المؤنس ) ثم تاريخ الزركشي ( تاريخ الدولتين ) .

وختاماً نشير الى غياب المؤرخات المسيحية في العصر الوسيط مما يعالج الموحدين . وأهم مؤرختين أصيلتين لا تعرض للموضوع الذي نعالجه إلا بشكل سطحي . فالمؤرخة العامة الأولى لأسبانيا ( Brimma Cmonica General de Espan ) تنسب إلى الفونس العاشر ( ط . مدريد ، ١٩٠٦ ) . وهي لا تشير إلا لما لمعركة الأرك : ( Alarcos ) والثانية : أسبانيا المقدسة ( Espana Sagrade ) ( الجزء ٣٥ ، ط . مدريد ١٧٨٦ ) وهي تهتم بشكل مختصر بتاريخ الكنيسة ولا تقدم إلا إشارات مبتسرة إلى الموحدين في الأندلس في ذلك العصر .

## القسم الأول التاريخ السياسي



ننسى أن اللهجة العربية لم تكن سائدة في كل أرجاء المملكة : ففي معظم القرن السادس الهجري / ١٢م كانت توجد جماعات بربرية وخاصة في الأماكن المرتفعة من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، مما لم يكن قد استعرب أبداً . هذه العناصر البربرية ، التي كونت قواعد المملكة ، احتفظت بشخصيتها المميزة طوال العصر الوسيط ، وفي ضوء هذه الإعتبارات العرقية واللغوية ، وبالتالي الاجتماعية يمكن أن نحدد في أراضي الدولة الموحدية ثلاثة أقسام متميزة ، هي : أفريقية ، والمغرب بتسميته الخاصة ، والأندلس .

### المغرب :

على عهد الموحدين كان على المغرب البربري أن يقوم بدور تاريخي من الطراز الأول . فلما كانت الحركة الموحدية قد قامت بمعونة بربر جبال الأطلس ( درن ) ، فقد قام المغرب الإسلامي لأول مرة بلفظ هيمنة المشرق ووصايته وبشكل نهائي<sup>(١)</sup> . وكان من الطبيعي أذن أن تجعل الدولة الجديدة من هذا المغرب وعاصمته مراكش مركزاً لكل نشاطه . فلقد اختيرت مراكش كعاصمة لموقعها المتميز استراتيجياً ، على حدود كل من صحراء لتوننة وجبال مصمودة . وكان من الطبيعي التركيز على المغرب الأقصى ، مهد الأباطورية ، التي كان يرسم حدودها الشمالية كل من المحيط الأطلنطي والبحر المتوسط . ومن الصعب ترسيم حدود دقيقة إلى حد ما من جهة الشرق بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط الذي يعتبر امتداداً نحو الشرق لسابقه . ولكنه ، وبشكل عام يمكن اعتبار إقليم مدينة تلمسان ، مدينة المغرب الأوسط ، هو الحد الفاصل بين البلدين<sup>(٢)</sup>

وهذه الحدود تسير بشكل أو بآخر على طول وادي ملوية وجبال تازا . وعلى نفس النسق تمتد جبال درن ( أطلس الصحراوية ) بشكل عام المغرب

(١) انظر ج . مارسه ، بلاد البربر الإسلامية والمشرق (بالفرنسية) ، ص ٢٥٣ وما بعدها .

هـ - عبد الواحد ، المعجب ص ٢٦١ .

(٢) هـ - أبو القدا ، الجغرافيا ، النص ص ١٢٢ ، والترجمة ، ج ٢ ص ١٦٨ . انظر الإستبصار ، ص ٦٤ .

الأقصا من جهة الجنوب .

وتكوّن قبائل مصمودة - سكان جبال درن - القسم الأعظم من السكان (١). وفي مدينة مراكش كانت تسكن مصمودة أَيْلا (٢). (دون حسان قبائل كومية - الزناتية - وهي قبائل أنصار الأسرة المؤمنية ، وأصلهم من بلاد تلمسان) . وحول المدينة تعدد قبائل نفيس ودكالة، وهم مستقرون ، أهل زراعة (٣) وكذلك الأمر بالنسبة لثلاث قبائل من مصمودة، غير موحدية ، بمعنى حليفة ، وهي : هزمير ، وهيلانه ثم هزرجة (٤) . وفي الشرق والغرب من أغمات تعيش قبائل وريكة المصمودية (٥) وفي السوس الأقصى جنوب وادي سوس كانت جزولة ولطة (٦) والإقليم الساحلي الواقع بين وادي تنسيفت ، نهر مراكش ، ووادي أم الربيع كانت تسكنه قبيلتان ، هما : هسكورة وصنهاحة (٧). وإلى جانب دكالة التي كونت معظم السكان هنا ، كانت توحيد برغواطة وهي كذلك من قبائل مصمودة التي تسكن شاطئ المحيط ، وتمتد حتى وادي بورجرج ومدينة سلا . والبرغواطيون يزدادون كثافة بخاصة في بلاد تامسنا (٨) ووادي بورجرج يحدد بالتقريب الحد الشمالي لبلاد مصمودة (٩) .

(١) ٣- من الصعب تحديد مواقع القبائل المصمودية في بلاد الأطلس . فالكتاب كثيرا ما يقدمون عنها معلومات عامة ، كما لم يهتموا أبداً بتعيين مواقع كل منها ، وبناء على ذلك ، واعتمادا على المعلومات التي بوثق في صحتها بشكل أو بآخر ، فإن تحديد مساكن القبائل المختلفة ليس إلا تقريبا .

(٢) ٥- الإدريسي ، ص ٧٠ .

(٣) ٥- الإستبصار ، ص ٢٠٩ والإدريسي ، ص ٧٠ . وهنا يحدد المؤلف أيضاً بني يدر ، ورجرجة ، وزودة ، وهسكورة ثم هزرجة . ونحن نظن أنه يحدد جميع القبائل التي تسكن المنطقة بشكل عام . وانظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٨ .

(٤) ١- عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٨ .

(٥) الإدريسي ، ص ٧٠ .

(٦) الإستبصار ، ص ٢١٢ .

(٧) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٦ .

(٨) الإستبصار ، ص ١٩٧ ، وانظر الإدريسي ، ص ٧٠ ، والبكري ، ص ١٣٤ ، وابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٠١ ، والترجمة ج ٢ ص ١٢٥ .

(٩) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٦ . ولكن ابن خلدون يقول إن غمارة من قبائل المصمودة وهو يعتمد على حقيقة أن بعض القبائل التي تحمل اسم مصمودة تسكن الإقليم الواقع ما بين كل من طنجة وسبتة . وهو يقول أيضاً أن قصر اجماز من حيث الركوب إلى طريفة يسمى قصر مصمودة .

ونحو الشمال تكون قبائل أخرى جمهرة السكان ففي منطقة مكناسة توجد قبائل تحمل نفس الاسم ( مكناسة ) ، ومن بينها تعدد قبائل بسيل ، ومغيلة وبنو مسعود (١) .

ونحو الشمال أيضا توجد بلاد قبائل غمارة حيث تمتد جبال الريف على طول ساحل البحر المتوسط من غساسة قرب مصب وادي ملوية (٢) ، إلى طنجة ، وذلك على امتداد مسيرة خمسة أيام . وعرضاً تمتد على مسافة خمسة أيام أيضاً . وهي تحوى مدن غساسة ، وطنجة ، ونكور ، وبادس ، وتيجيساس ، وتيطوان ، وسبتة ثم القصر (٣) .

وإذا كانت القبائل البربرية ، وبخاصة مصمودة ، تغطي كل بلاد المغرب الأقصى في العصر الموحدى ، فإن العنصر العربى لم يكن غائبا عن البلاد ، فابتداء من عهد عبدالمؤمن ، كان العبور العربى ما بين حين وآخر لا يأتى باحاريين منهم الى المغرب فقط . بل وبالعائلات العربية بالنساء والأطفال ، ومع مرور الوقت كانت أعداد العرب تزداد بفضل عمليات التهجير المتجددة . فعلى عهد المنصور وجد العرب وبخاصة فى سهول تاسنا وتادلا وكذلك فى دكالة (٤) . أما عن المغرب الأوسط الذى ليس له دور فى الأحداث ، فكان موطننا لقبائل مغراوة وبنويفرن وهى القبائل التى كانت تعيش مع مديونة ، ومغيلة ، وكومية ومطغرة وقبائل مطماطة ، ونحو الشرق كانت تمتد بلاد صنهاجة التى حوت كلا من الجزائر و متيجة وميديا والأقاليم المناخمة حتى بجاية (٥) .

(١) الإدريسي ، ص ٧٨ ، الإستبصار ١ ص ١٨٦-١٨٧ .

(٢) انظر ابن خلدون ، المعبر . والترجمة ، ج ١ ص ٩٦ والهامش ، حيث يفترض دسلان أن الامر ما يتعلق ببلدة حراوة الصغيرة .

(٣) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٠١ ، والترجمة ج ٢ ص ١٣٤ .

(٤) انظر فيما بعد ، ص ٨٨ وهامش ٢٨ .

(٥) أما عن قبائل كومية ومنها قبيلة عبد المؤمن فكان أصلاً من بلاد تلمسان . انظر فيما بعد ص ١٢٤ والهامش .

## بلاد أفريقية :

وعلى عكس المغرب كان لإفريقية سماتها المميزة ....

فبعد فتحها على البيزنطيين كانت قد أسلمت تماما في منتصف القرن الثامن الميلادي ( ٨٢ هـ ) ، ثم أنها عرفت السيادة العباسية والفاطمية اعتباراً من بداية القرن التاسع وحتى منتصف القرن الحادي عشر ( أواخر ٣ هـ - منتصف ٥ هـ ) ، ورغم ذلك فهي لم تحرم من التنعم بحكم ذاتي يكاد يكون كاملاً ، وعندما خرجت من وصاية المشرق (١) ، حوالى منتصف القرن الخامس الهجري ، تعرضت بمثابة عملية للأخذ بالثأر ، إلى الغارة الهلالية الرهيبة ، وما أتت به من تغيير عرقي هو الأكبر منذ الفتح العربي ، الأمر الذي كانت له نتائج بعيدة المدى ، من : الإضطراب السياسى والإقتصادى والإجتماعى ، هذه الأوضاع أدت الى تميز البلاد الإفريقية بنوع من الخصوصية الواضحة بالنسبة لبلاد المغرب ، لقد كان تعريب بلاد افريقية الواضح هو النتيجة الطبيعية لموقعها الجغرافى ، على الطريق الطويل المؤدى عبر السهوب الليبية إلى مصر وأسيا الشرقية .

بعد تأسيس المملكة الصقلية سنة ١١٣٩ م ( ٥٣٤ هـ ) ، بمعرفة روجر الأول، بدأت أفريقية تعاني من تدخلاته ، فعلى عهده من ١١٣٠ الى ١١٥٩ م ( ٥٢٤ - ٥٥٤ هـ ) ، نجح فى الغلبة على عدد من الموانئ المتتالية على طول الساحل الافريقى من بجاية إلى طرابلس . وكان على عبدالمؤمن أن يستخلص أفريقية من تهديد الخطر النورمندى ، وأن يضمها الى الدولة الموحدية الجديدة بعد أن قضى على بقايا الاسرتين الحمادية والزيرية ، ومع ذلك فرغم التخلص من الخطر الصقلى ، بقيت أفريقية على طول العهد الموحدى مهددة من قبل

( ١ ) انظر جورج مارسه ، بلاد المغرب ( البربر ) والمشرق الإسلامى ، ( بالفرنسية ) ، ص ١٩٣ وما بعدها .

## خطورة البدو المستمرة.

فمن ولاية طرابلس وحتى تخوم المغرب الأقصى كانت قبائل العرب من سليم وهلال وفروعها يظهرون بمظهر أصحاب السيادة ، وبشكل عام كان الأوائل من سليم يحتلون الجزء الشرقي الذي يعادل كلا من برقة وطرابلس ، بينما كان الهلالية يسيطرون على الجزء الغربي الذي يعادل افريقيا وتخومها في الغرب (١) ، فقد عبرت زغبة ، وهي فخذ من هلال ، وهم من الحلفاء المخلصين الموحديين (٢) ، الى جنوب المغرب الاوسط ، في منطقة الزاب وجبل راشد (٣) . ولما كانت قبائل سليم وهلال دائماً في حركة مستمرة ، عبر الصحراء من طرف الى الآخر ، بحثا عن المراعى أو المغامرات ، وكانوا بالتالى اعداء لكل نظام ، حريصين تماماً على استقلالهم الذاتى ، وهكذا كان عرب سليم يترددون على بلاد الجريد فى السنوات الجدية بحثا عن التمر (٤). أما عن سكان الجريد فكانوا مثل سكان قسطنطينية من اصول مسيحية (روم) قد أسلموا من بداية الفتح العربى (٥)، مثل : بنى بهلول (٦) ، أما عن القسم الأكبر من سكان الحضر فى قابس، والمهدية، وتونس ، وقفصة ، وبجاية... الخ ، فكانوا من صنهاجة وزناتة ، البربر المستعربين ، الذى ضم عبدالمؤمن ملكياتهم الصغيرة الى دولته ، وهكذا كان من بينهم عناصر من الاعداء الطبيعيين للموحدين وأخيرا نذكر بربر مطماطة الذين سكنوا البلاد التى أعطوها إسمهم ، والتى تقع بين قابس وبين بلاد الجريد (٧).

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٤-١٥ ، وانظر ح. مارس ، العرب فى بلاد البربر (الفرنسية) ، ص ١٥ وما يتبعها .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٠ ، ص ٤٠ .

(٣) ابن خلدون العبر ، ج ٦ ص ٢١ والترجمة ج ١ ص ٤٩ .

(٤) (الإنبصار ، ص ١٥٠ .

(٥) (الإنبصار ، ص ١٥٥ .

(٦) (الإنبصار ، ص ١٥٧ .

(٧) (الإنبصار ، ص ٣٧ .

## اسبانيا الإسلامية:

لما كانت الأندلس مسرحاً دائماً للصراعات بين المسلمين والنصارى ، اعتبرها الموحدون بمثابة الثغر الشمالى بالنسبة لدولتهم ، وهكذا كان ضم بلاد المسلمين فى أسبانيا الى دولة المرابطين ثم دولة الموحيدين أمراً طبيعياً . والحقيقة أن الوحدة التاريخية كانت نتيجة طبيعية للوحدة الجغرافية بين شبه جزيرة ايبيريا والبلاد المراكشية ، وبفضل الوحدة الجغرافية هذه أمكن للبربر الذين صاحبهم العرب أن يستقروا فى شبه الجزيرة بأعداد أكثر من هؤلاء الآخرين ، وهكذا فبينما استقر الإسكان العربى منذ القرن التاسع ( ٨٣ هـ ) فلم يستقبل الإمدادات متفرقة وبأعداد قليلة ، كانت الهجرة البربرية مستمرة بشكل عملى حتى العصر الموحدى ( ١ ) .

وأخيراً عندما أنهك العرب بفضل الحياة النعمة ، وعجزوا عن الدفاع عن الأندلس ضد الممالك المسيحية الأسبانية الشابة ، كان عليهم أن يتركوا مكانهم لبربر المغرب ، وكان سقوط طليطلة ( ١٠٨٥ م / ٤٧٨ هـ ) بين يدي ملك قشتالة هو الذى أدى الى خضوع الأندلس نهائياً لحكم الأفارقة ( من المربية ) . واضطرت كل من قشتالة ، والبرتغال ، وأراجون وكاتالونيا الى تقيص نشاطاتها شيئاً فشيئاً أمام الدروس الصعبة التى تلقوها من الموحيدين بعد المرابطين فى عدد من المرات . ومع ذلك فقد ظلت طليطلة دائماً بين يدي ملك قشتالة ، ولكى يزداد الأسى فإن يوسف والد المنصور الموحدى ، فقد حياته ثمناً لقضله فى حصار قلعة شنترين .

هكذا كان الموقف بشكل مبتسر للدولة الموحدية حوالى سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ هـ فبلاد افريقية كانت خاضعة وتكون جزءاً من الدولة ، ولكنها

( ١ ) ا.لهى - جروميسال ، اسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ( بالفرنسية ) ، ص ٢٣



كانت متميزة بخصوصيات مميزة ، كما أنها لم تكن قد هُدت تماماً من حيث كانت دائماً قاب قوسين أو أدنى من الثورة أو العبور الى معسكر الأعداء ، والاندلس كانت دائماً مصدراً لعدد من الصعوبات والخاوف المستمرة للأمير ، بينما المغرب الذى كان أكبر استقراراً نسبياً ، فقد كان مستعداً لتلبية النداء للدفاع عن الإسلام الغربى ضد أعدائه .

## أبويوسف يعقوب المنصور

### شباب يعقوب:

لا يقول المؤرخون المعاصرون شيئاً عن شباب أبى يوسف يعقوب ، فنحن نعرف فقط أنه كان أكبر أبناء ، أبى يعقوب يوسف ( بن عبد المؤمن ) (١) . وهو مولود حوالى سنة ٥٤٨هـ ( ٤-١١٥٣م ) (٢) . فى حياة عبد المؤمن ، وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى رواية البيهقي (٣) ، يكون مولده فى قصر عبد الكريم قرب سبتة ، من حيث يكون الجواز الى الأندلس ، ووالدته التى عرفت باسم " ساحرة " كانت " أم ولد " (٤) . أى مملوكة محررة بعد أن أنجبت ولداً لسيدها ،

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٧٦

(٢) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٨٩ ، البيهقي . ص ١١٦ ، ابن عذارى ، المجهول ، ص ٤٠ ، الزركشى ، ص ١٠ ، القرطاس ، ١٤٢ . ويقول عبد الواحد أنه كان فى الثانية والثلاثين ( ٣٢ ) من العمر عندما اعتلى العرش ، والبيهقي لا يقول شيئاً آخر عندما يؤكد أن مولده كان فى سنة ٥٤٨هـ ( ٤-١١٥٣ ) ، وعلى العكس يقول ابن خلكان ( ج ٣ ص ١٧٠ ) أنه ولد فى ربيع الأول ٥٥٤هـ ( ٢٦ مارس ١١٥٩ ) ، ويحدد ابن عذارى مولده بدقة فى ٢٠ من ذى الحجة ٥٥٤هـ ( ٥ يناير ١١٦٠ ) بشكل يجعل وماته وعمره فقط ٤١ سنة ، وصاحب القرطاس يضع ولادته حوالى نفس التاريخ ( ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ) .

(٣) البيهقي ص ١١٦ يقول أنه فى سنة ٥٤٨هـ عين يوسف واليا لإشبيلية بمعرفة والده عبد المؤمن وبعد ذلك يؤكد المؤلف أن يعقوب ولد فى قصر عبد الكريم ، وأن أخاه عمر الرشيد ولد فى البحر عندما كان المركب يتجه الى فادش ، ومن هناك كان على يوسف ، ومعه ساءه وأطفاله ، متابعة الطريق الى منصبه الجديد ، ويقول صاحب القرطاس ( ص ١٤٧ ) عكس ذلك أنه ولد فى قصر جده عبد المؤمن بمراكش

(٤) عبد الواحد ( المعجب ، ص ١٨٩ ) يقول أنها كانت أم ولد رومية مسيحية ، أما الآخرون من الكتاب ( البيهقي ، ص ١١٦ ، القرطاس ، ص ١٤٨ ) فيكتفون بالقول إنها كانت أمة ، ومع ذلك فإن اختلاف بشرة يعقوب مع بشرة والده الذى عرف بأنه كان شديد البياض ( انظر عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٣٤ ) يجعلنا نعتري أن والدته كانت أمة سوداء - وغير ذلك فقد كان لدى الخليعة وكبار رجال الدولة فى حرمهم -

والتي كان أهداها من يسمى بابن وزير الى يوسف ( والد يعقوب ) (١) أما عن أعمال يعقوب قبل الوصول الى الحكم فلا نعرف عنها الا أشياء قليلة جداً . فلقد تلقى مثل والده تعليماً متعمقاً في الدين ، وخاصة فيما يتعلق بالحديث وكان له تذوق حاد للشعر ، هذا ، كما شغل منصب الوزير لدى والده لمدة ثلاث سنوات (٢) . وأثناء الجهاد في اسبانيا عهد إليه بعدد من القيادات في الصراع ضد النصارى (٣) .

### إعلان ولاية يعقوب:

كان حدثاً طارئاً، ذلك الذي رفع يعقوب مبكراً الى سدة العرش في الدولة الموحدية . فعندما جرح والده جرحاً قاتلاً أمام تحصينات مدينة شنترين ، فم البرتغال ، وجه يعقوب الذي كان يرأس بعض قطاعات الجيش نحو اشبيلية وهو يخفى عن رجال الجيش وفاة والده الذي قضى نحيبه أثناء الطريق (٤) . وفي قضية اشبيلية (٥) أخذ العاهل الجديد البيعة . هذا ، ويقول عبدالواحد

---

- نساء سوداوات . وهكذا كان أبو سعيد بن عبد المؤمن ، والى غرناطة ، من غير شك ابناً لامة سوداء ، من حيث كان اسود البشرة جداً حتى أن وزيره ابن سعيد قارنه ذات يوم بعبده السود المشتريين من السوق بما لا يزيد على ٢٠ درهما (ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ص ٩٦ ، المقرئ ، ج ٢ ص ١٠٨) . والمعروف أن عبد المؤمن كان أبيص البشرة (عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٤١ ، القرطاس ، ص ١٣٣) وقارن لـ جوتييه (L. Douthe) ، مراكش ، ص ٢١١ ، ٢١٣ . حيث يحقق شخصية الأمير الذي كان يسمى بالسلطان الاسود ، والذي كان معاصراً للنولى أبي العباس السبتي (١١٥٦-١٢١٥ م / ٥٥١-٥٦٠ هـ) ، بلهى يوسف يعقوب المنصور (١) (البندق ، ص ١١٦ ، القرطاس ، ص ١٤٢) (ابن وقرير بدلا من ابن وزير ، وانظر الترجمة الأسبانية بمعرفة ويثي (Huet) ، ص ٢٢٢ .

- (٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٩ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٥ .  
(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٩ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٤٢ ، والترجمة ج ٢ ص ٢٠٤ .  
(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٨ ، ابن عذاري ، مجهول (Ananimo) ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ١٦٨ ، ابن خلدون ، المعبر ج ٦ ص ٢٤٠ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٢٠٥ ، القرطاس ، ص ١٤٢ .  
(٥) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٤٠ ، الزركشي ، ص ١٠ حيث أخذ يعقوب البيعة في المعسكر بعد وفاة والده مباشرة ، وعندما وصل الى اشبيلية تمت تلك البيعة بثانية أخرى (ربما كانت بيعة العامة)

المراكشي أنه كان مشاركاً في الحكم (وليا للعهد) على عهد والده (١). وهذه السياسة التي افتتحها عبد المؤمن كانت من جانبه دليل جرأة عبقرية ، فبفضلها أصبح حكم الدولة بالشراكة أمراً واقعاً ووراثياً في نفس الوقت ، فلما لم يكن هناك تقسيم لأعلى مستوى الدولة ولا فيما يتعلق بالمخصصات الشخصية ، كان الأمر لا يحتاج عند وفاة أحد الأميرين إلى إختيار (انتخاب) جديد ، إذ كان استمرار الثاني في الحكم يكفيه مجرد تجديد البيعة . وهكذا ابتكر عبد المؤمن سابقة ظلت تقليداً مستمراً عند خلفائه . وهكذا وجد مبدأ إختيار الأمير العام ما يصححه في ذلك التقليد الذي جعل الإختيار في العائلة المالكة ، وخاصة بين أبناء الأمير الحاكم ، ولكن هناك رسالة رسمية ، هي : الأولى من الرسائل الدورية المسجلة باسم يعقوب (٢) ، التي تفضل موضوع المشاركة في العرش وكذلك تاريخ إعلان يعقوب أميراً للمؤمنين ، وفيما يتعلق بالنقطة الأولى يذكر الأمير من يرأسهم بأن والده كان قد قرر أن يجعل منه ولياً للعهد في الوقت المناسب ، وبناء على ذلك فإن وفاته المفاجئة أثناء الحملة ضد شترين لم تكن إلا عائقاً مؤقتاً . وعن النقطة الثانية ، فإن التاريخ المحدد لإعلان الولاية في تلك الرسالة تتفق مع تاريخ ابن عذارى (٣).

(١) المعجب ، ص ١٩٢ .

(٢) رسائل موحدة ، ص ١٦٠ ، والدراسة ، ص ٥٦ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٠ ، بالقرطاس ، ص ١٤٢ ، والترجمة ، ص ٣٠٤ ، وقارن عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٨٣ -

حيث تحدد الرواية التاريخ متأخراً

(١). وهو ٢٠١ من جمادى سنة ٥٨٠ هـ (٢٧ يولييه ١١٨٤م).

ففى اشبيلية ، بعد عودة جميع العساكر أخذ يعقوب بنفسه البيعة من شعبه (٢). والحقيقة أن الكبار وحدهم الذين حضروا ، وخاصة أقارب الأمير ، ورؤساء القبائل ، وكبار الموظفين ، والأعيان من ممثلى جماهير الشعب والحاضرين من العسكر فمن بين السادة كان أبو سعيد عبدالرحمن بن عمر ، ابن عم الأمير ، أكثر المسارعين الى البيعة ، وهذه البيعة هى التى عرفت "ببيعة الخاصة" أى الأشراف . بعد ذلك كان على حكام الولايات أن يقوموا بأخذ البيعة من كل رعاياهم من جديد ، دون استثناء(٣). حيث يمكن أن يتضمن القسم اسم الخليفة الذى يحمله الأمير منذ ذلك الحين ، وهذه البيعة الأخيرة تعرف باسم "بيعة العامة".

وعندما تمت البيعة أعلن يعقوب عن وفاة والده التى كانت مخفية حتى ذلك الوقت (٤). هذه البيعة المزدوجة لخاصة الناس وعامتهم بالأندلس لم تكن نهائية ، وذلك أن بعض أفراد الأسرة المؤمنية رأى أن يعقوب غير أهل للولاية (٥)، وترددوا فى تقديم فروض الطاعة المفترضة عند تجديد الولاية ، الأمر الذى أدى إلى اتخاذ اللازم لإقامة حفل بيعة جديد فيما وراء العدو ، فى

---

(١) باكشر من شهرين فهو يضع وفاة أبى يعقوب يوسف فى ٧ من رجب سنة ٥٨٠ هـ (١٤ سبتمبر ١١٨٤ م) ، ولكن الرسالة صادرة من اشبيلية يوم ٧ جمادى الثانى ٥٨٠ (١٥ أغسطس ١١٨٤) . ومؤلف القرطاس يقترح ١٨ ربيع الثانى ٥٨٠ (٢٩ يونيه ١١٨٤) ، وهو تاريخ وفاة يوسف كتاريخ لإعلان ولاية يعقوب .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٠ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ١٦٣ ، والدراسة ، ص ٥٦ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٠ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٥) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ - حيث النص على أنه كان من بين إحوته وأعمامه منافسين ضارين ممن اعتبروه غير أهل للولاية ، بسبب سلوكه المنحرف أثناء شبابه .

مدينة سلا ، حيث أخذ الأمير بيعة أولئك الذين كانوا مترددين حتى ذلك الحين ، ومن بينهم عمومته من أبناء عبد المؤمن . هذا ، كما أخذ بيعة السيد أبي زكريا بن السيد أبي حفص ، الذي حضر من تلمسان مع مشايخ قبيلة زغبة ( العربية ) ( ١ ) . ويمكن أن نفترض بعد ذلك إقامة احتفالات أخرى لأخذ البيعة من عامة الشعب الذين كان على الأمير أن يعمل على توثيق صلته بهم . ومن وجهة النظر السياسية ، كان توحيد الرعية قد تأكد بأقوى الروابط مع الأمير عن طريق يمين الاخلاص والطاعة الذي يربط شخصيا بالأمير كل أفراد الرعية من المذكور في الدولة ومثل هذه الرابطة في مجتمع مشبع بالروح الدينية كانت لا تنفصم . فيمين الطاعة كان يتطلب إذن خضوعاً لا يحد لإرادة الأمير مما يمثّل أولاً في أداء الخدمة العسكرية الى جانب دفع الضريبة . وتدلنا الحوادث التالية على الأسباب التي جعلت من أداء يمين الطاعة والولاء ضرورة مفروضة من قبل الأمير الحاكم .

### السياسة الداخلية

#### الأسرة الملكية وسياسة الحلف العائلية :

يتمثل أحد أسباب ضعف الدولة الموحدية الهامة في ارتكاز قوة الأمير بشكل أساسي على قوة أسرته الخاصة . هذا . كما كان التمزق العرقي ، والى حد ما التمزق الجغرافي واللغوي ، وغياب وحدة الظروف الاجتماعية ، وافتقار المصالح المشتركة ، كل ذلك كان من علامات الضعف الصارخة في الدولة .

ومع ذلك فنحن نلاحظ أنه على عهد الأسرة المؤمنية قامت محاولات لعلاج كل آفات الضعف تلك ، عن طريق إقامة أسرة حاكمة قوية ، موجهة للقيام بدور هام بالنسبة للإسلام الغربي أشبه بذلك الدور الذي قامت به الأسر العظمى في المشرق . وهنا ينبغي الاعتراف بالفضل في تحقيق هذه الهدف ،

---

( ١ ) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٢ ، والترجمة ج ٢ ص ٢٠٦ .

لصاحب الحسّ السياسى : عبدالمؤمن بن على ، رأس الأسرة . هذه السياسة العبقريّة ، التى بدأها ذلك الرجل فى سبيل تقوية أسرته ، تمثلت أولاً وقبل كل شىء فى تركيز الحكم بين أيدي أفراد الأسرة الملكية أو الأسر الحليفة عن طريق الروابط السياسية أو العائلية . وظل ابنه يوسف مخلصاً لتلك السياسة العائلية : فابناء الاسره من الأخوة ، والأعمام ، والابناء ، وأبناء الأخوة والأخوات ، كل هؤلاء ينبغى أن تكون بين أيديهم كل الوظائف الحكومية (١) .

وعلى عهد يعقوب اتبعت نفس السياسة بمنتهى الحرص ، ولكن مع بعض التغييرات المحسوسة . فالأسرة الأميرية كانت قد وقعت ، حقيقة وإن كان بشكل جزئى ضحية سخط الأمير بسبب المحاولات التعسة فى سبيل الوصول الى سدة الحكم بدلا من الأمير الحاكم . فمنذ البداية ، وكما رأينا ، لقى يعقوب خصوما منافسين له من بين أفراد الأسرة المؤمنية ، ممن رأوا أنه غير كفء للحكم (٢) .

---

(١) عن تعيين أبناء عبدالمؤمن كحكام للولايات ، انظر ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤٩-١٤٠ ، الرسائل الموحدة ، النص ص ٦٢ وما يتلوه ، والدراسة ، ص ٣٧ - ٣٨ ، ابن صاحب الصلاة حيث يوسف واليا لاشبيلية ، وأبو سعيد عثمان واليا لقرنطة ، وأبو محمد عبدالله واليا لبجاية . وعلى عهد يوسف ، كانت بجاية لأبى زكريا يحيى بن عبدالمؤمن ، ويحيط به الحفاظ ، والشيخ الحفاظ أبو عبدالله بن أبى ابراهيم كان واليا لاشبيلية ، كما كان وزيره هو الحفاظ ابن سنان ، ابن أحد أعضاء مجلس الخمسين ، ثم عين لسيد أبو ابراهيم اسماعيل بعد ذلك بقليل ربما كرئيس لعبدالله على رأس حكومة نفس المدينة ، وكان على ولاية قرطبة السيد أبو سعيد والي غرناطة ، والذي ربما جمع بين الوظيفتين . وقارن ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ج ٤ ص ١٣٧ ، وانظر القرطاس ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، الزركشى ، ص ٩ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ . ولكن يظهر أن ذلك التقرير لم يكن إلا جزئيا ، فعادة ما يكون الطمع فى السلطة ، والمصالح الانانية هى التى تدفع الحصور الى التصرف بذلك الشكل . ولنا مثل فى وصول يوسف والد يعقوب الى سدة الحكم حيث سمعت أصوات مكتومة من عدم الرضا فى -



وأثناء حملة يعقوب في إفريقية ضد بني غانية ، وأثناء غيابه ، وفي الوقت الذي ظهر فيه وكأن الحظ قد أدار له ظهره ، طمع في عرشه كل من أخيه أبي حفص عمر والي شرق الأندلس (مرسية) ، وعمه سليمان والي تادلا في بلاد صنهاجة ، وقاما بالدعاية لنفسيهما في الولايات (١) . وبعد أن استدعاهما للمساءلة أمر بالقبض عليهما ، وقتلهما بحدّ السيف . وبالتالي ، ألزم أقاربه بالسكون .

وبعد تلك الثورة اتهم يعقوب أقاربه بعبارات قاسية ، بعدم الاخلاص ، والحقيقة أنه لم يكن أمام الأسرة المؤمنية إلا الوقف صفا واحداً من أجل الحفاظ على السلطة . وبعد ذلك اكتفى أمراء الأسرة بما كان يعهد به إليهم من أدوار هامشية . ومع ذلك فقد كان لهم مركزهم المرموق من حيث انتسابهم للأمير ، وإن لم يشاركوه في سلطاته الخلافية العليا؟ (٢) . ولا شك أن ارتياب يعقوب من قبل أقاربه كان له ما يبرره ، وإن كان يمثل في نفس الوقت واحداً من أسباب ضعف السلطة الأميرية القائمة على رابطة الدم والقربة .

وزغم هذا الاتجاه السيء بالنسبة للسياسة الأسرية ، فقد اعتمد يعقوب جزئياً على أفراد أسرته أو على الأسر الحليفة لها . ويظهر تمسكه بتلك السياسة في اتخاذ وزيراً أبو محمد عبدالواحد بن أبي حفص الهنتاتي ، زوج أخته (٣) . أما عن ولاية مدن : اشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، وغرناطة فقد كانوا

---

= كل مكان . فابو حفص عمر عندما قبل تسلم أخيه عرش الإمارة استولى حقيقة على السلطة . والأخ الآخر ليوسف وهو أبو الحسن على عاد إلى نيشمل مريض من الفيض ، والأخ الثالث أبو محمد عبدالله بقي في بجاية متردداً معتذراً عن الذهاب لإعطاء يمين الولاء والطاعة . انظر ابن صاحب الصلاة ، وقارن المخطوط .

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٥ وما بعدها ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٣٠٠ ، ابن حلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٤ ، القرطاس ، ١٤٣ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ ، ابن أبي ديار ، ص ١١٦ . أما عن ولاية مدن : إشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، وغرناطة فقد كانوا من بين أعمامه . وثيابة عنه .

من بين أعمامه . ونيابة عنه ( ١ ) . كان أبو سعيد الحفصي يحكم افريقية منذ ولايته . وفوق ذلك كان هذا الأخير قد عهد بحكم المهديّة الى أخيه أبي على يونس . وبعد ( ٢ ) . وبعد ذلك شغل السيد أبو زيد بن أبي حفص عمر ، حفيد عبدالمؤمن وابن عم يعقوب هذا المنصب في سنة ٥٨٤هـ ( ١١٨٨م ) . وكذلك كان الأمر بالنسبة لعم الأمير ، وهو السيد أبو زيد الذي عين حاكما لأشبيلية سنة ٥٩٤هـ / ٨ - ١١٩٧م ) وابن عمه السيد أبي ربيع حفص الذي عين حاكما لبداجوزا ، بينما كان السيد عبدالله ، أخو هذا الأخير يقوم بدور النائب له في غرب الأندلس ( ٣ ) . ولكن الحدث الأكبر المميز بالنسبة لتلك السياسة الأسرية ، فقد وقع في سنة ٥٨٨هـ ( ١١٩٢ ) : وتمثل في مشاركة الأمير الخليفة لابنه الناصر ، الذي كان في العاشرة من عمره ، كخلف له على العرش أو ولي للعهد ( ٤ ) .

وفي نهاية حملة يعقوب في بلاد النصارى ، وقع مريضا مرضا خطيرا ( ٥ ) . وبعد قضاء بعض الوقت في مراکش ذهب الى فاس في أول المحرم ٥٨٨ ( ١٨ يناير ١١٩٢ ) محمولا على تختروان ( محمل ) ، لكي يواصل علاجه الذي استمر ٧ ( سبعة ) أشهر أخرى . وتعبيراً عن القلق على مصير دولته الكبرى عين ابنه أبا عبدالله محمد كولي للعهد وأشركه في حكم الدولة ،

( ١ ) الحميري ، الروص المعطار ، ص ٦٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

( ٢ ) ابن خلدون ، الترجمة ، ج ٢ ص ٩٧ ، ٢١٢ .

( ٣ ) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٣ ، والترجمة ج ٢ ص ٢١٥ .

( ٤ ) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٦٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٢١٢ . فعقب الاستيلاء على شلب أعلن يعقوب ابنه أبو عبدالله محمد ، وليا للعهد . انظر فيما بعد ، ص ١٩٥ ، وعبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٢٥ يحدد خطأ تاريخ هذا الحدث في سنة ٥٨٩هـ ( ١١٩٣ ) .

( ٥ ) عبد الواحد المعجب ، ص ٢٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٤٥ ، والترجمة ج ٢ ص ٢١٢ ، ابن عذاري ، مجهول ، ص ٦٦ ، القرطاس ، ص ١٤٤ والترجمة ص ٣٠٨ ، الإستقصا ، ص ١٧٦ .

وكرسى العرش ، وأرسل يعقوب الرسل الى الولايات المختلفة ، وخاصة الى السيد زيد بن أبى حفص والى افريقية ، والى السيد أبى يحيى أخيه ، والى اشبيلية (١) ، لكي يعلنوا هذا التعيين على الملأ ، ولأخذ البيعة ويمين الولاء لوريثه ولى العهد .

ورد ابوريد على الدعوة بالحضور على رأس وفد من زعماء العرب من الهلالية والسلمية ، حيث أعلن الطاعة وجدد البيعة . وفيما يتعلق بالسيد أبى يحيى فقد سارت الأمور فى منحنى آخر إذ أعلن العصيان من حيث كان - حتى ذلك الوقت - المرشح الوحيد لولاية العهد ، وأدى الأمر الى اضطراب الأسرة الملكية . فقد بدأ أخو الخليفة الغاضب يحيى المؤمرات من أجل الوصول الى العرش . وانتهسى الأمر بأن دفع حياته ثمنا لتلك المخاطرة (٢) .

أما فيما يتعلق بسياسة التحالفات العائلية حقا ، فإن الوثائق لا تقدم لنا الكثير . ومع ذلك فالأمر يدعو الى الظن بأن يعقوب سار على نفس السياسة التى افتتحها عبدالمؤمن فمن أجل تأكيد تحالف أكيد مع قبيلة هنتانة القويہ تزوج عبدالمؤمن إبنة أبى حفص ، رئيس تلك القبيلة (٣) . وقريب من هذا ما فعله يوسف بعد ان غزا بلاد ابن مردنيش فى شرق الأندلس ، وزواجه من ابنة هذا الأخير سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م (٤) . وفى نفس الوقت أعطى إحدى بناته روجة لهلال بن مردنيش (٥) . وهكذا اجتهد يعقوب فى تأكيد هذا التقليد ،

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ .

(٢) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٠٤ . - حيث لم ينتظر يعقوب وصول أبى يحيى الى مراكش ، فمجرد شفاؤه من المرض ، خرج الى فاس على محمل ، ومن هناك سار الى سلا حيث تم اللقاء به ، وبعد استجوابه أصدر الأمر باعدامه .

(٣) ابن حلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٢٧ ، والترجمة ج ١ ص ٢٥٤ - حيث مات المهدي وهو يعين عبدالمؤمن حليمة له ، ولكنه حتى الا يجد تأييدا له عند المصامدة ، الذين كان غريبا عنهم ، فأخفى وفاة المهدي الى ان يجمع فى الزواج من ابنة شيخ بى حفص أمير هنتانة . ولما جمع بفصل معونه والد روجته من تحقيق آخر وهـ يا الإمام ، مارس السلطة العليا صعبه شيئا كبيرا من مشايخ الموحدين ، وحليفة للمسلمين

(٤) بن حنكاد ، ج ٣ ص ٤٣٣ ، القرطاس ، ص ١٣٨ ، والترجمة ٢٩٨

(٥) - حلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٠ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢٠١

عندما أعطى الوزارة الى أخى زوجته ، أبى محمد عبدالواحد بن أبى حفص ، وكذلك عندما عين عددا من الحفصيين ولاية فى أمكنة عديدة، الأمر الذى أكد تحالفه مع الهنتاتيين (١). ومع ذلك فإن هذا التصرف لم يمنع من مواجهة خطر كبير ، فقد كانت نتيجة تلك السياسة مواجهة المؤمنين لقيام أسراقليمية وراثية هددت وحدة الدولة الاقليمية ويعتبر قيام الحفصيين فى افريقية النموذج الصارخ لتلك السياسة.

والحقيقة أن الأسرة الملكية انتهى بها الأمر بالوقوع جزئيا فى موضع السخط والشك من قبل الأمير ، الأمر الذى أدى فى ردود فعل عنيفة ضد أقاربه ، فلقد أدى الشك بالأمير الى أن يضع يده على كل شئون الدولة والحكم ، الأمر الذى كان يزيد من فردية النظام واستبداديته - بطبيعة الحال .

### السياسة الخارجية

#### العلاقة مع نصارى اسبانيا:

كان موقف الموحدين كما كان الحال على عهد المرابطيين أن الأندلس ثغر للجهاد ضد الدويلات المسيحية هناك ، وخاصة ضد مملكة قشتالة وملكها ألفونس (الاذفونش) .

وهكذا ، كان على يعقوب أن يشن الحرب فى ميادين القتال الأندلسية ، معلنا حركة النهضة الاسلامية التى أدت به الى اكتساب لقب "المنصور" ، فتحت رايته المظفرة اتحدت جماعة الشعب المختلطة ، فى جبهة

---

(١) وهما لا يؤس من الإشارة الى قصة اسطورية نافارية الاصل تقول انه على اواخر عهد المنصور ربما عرض على ملك نافار الذى كان خاضعا للموحدين ، إحدى بناته التى وقعت فى حبه ، وأنه وافق أن يقدم له كل الأندلس الاسلامية كمهر (من قبل ابنته) . انظر ويثى (A. Huiat) ، دراسة عن موقعة العقاب ، و Ras Navasde Tolosa ، بالاسبانية ، ص ١٣ وما بعدها .

واحدة ، من : قبائل الموحدين ، وغيرها من القبائل الخليفة ، وسكان الجبال أو السهول ، وأهل السودان ، والأندلس ، مع المتطوعة من كل الآفاق ، حتى العرب والغز في إفريقيا ، حيث كان الكل مستعدين للهجوم على العدو دفعة واحدة ، باسم الله . وهكذا وجد يعقوب نفسه على رأس الكتلة الكبرى من قواته في الأيام الأولى من وصوله إلى كرسى العرش ، فلقد قاد قواته إلى اشبيلية ، ومنها عاد إلى عاصمة ملكه مراكش ، ولكنه لم يلبث أن عاد دون تأخير إلى الأندلس لكي يردع النصارى هناك . وللأسف الشديد بالنسبة للإسلام فإن الأعمال العسكرية الأولى ليعقوب لم توجه ضد العدو التقليدي في شبه جزيرة إيبيريا ، بل كانت ضد " الكفار " الأخر من الميورقيين ، من بنى غانية المرابطين (١) .

وهكذا كان لنصارى الأندلس حرية العمل في إثارة الاضطراب في الأراضى الإسلامية بالأندلس .

### المناوشات الأولى:

في ذلك الوقت كان ملك قشتاله الفونس الثامن ، بطل المسيحية وقتئذ في إسبانيا ، يثير الرعب في الأراضى الإسلامية المتاخمة لبلاده . ولقد نجح في الاستيلاء على حصن المنار في منطقة قرطبة سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) . وعقب ذلك دفع الفونسو عساكره حتى سهل اشبيلية ودمروه . وطلب المدافعون عن البلاد النجدة من حامية اشبيلية ، عاصمة لولاية . ولما خرجت الحامية على عجل دون اتخاذ الاستعدادات المناسبة ، تضح لها أنها لا تستطيع مواجهة العدو . والحقيقة أن ما يكتبه ابن عذارى عن هذا الحدث يظهر بشكل واضح تفوق القشتاليين على كل من المستويين المعنوي والعسكري (٢) . فرغم قلة

---

(١) انظر فيما بعد ، ص ٦١ وما يليها .

(٢) البيان المغرب ، ص ٥٨ .

عددهم ، وبعدهم عن بلادهم ، فإن خطة قتالهم كانت الأفضل ، فعندما  
وجد القشتاليون القوات الإسلامية رديئة التنظيم تركوا غنيمتهم من الماشية في  
السهول وصعدوا الى المرتفعات والحيال ، الأمر الذي جعلهم في موقف  
استراتيجي أفضل ، استطاعوا بفضل السيطرة على المسلمين . وهكذا فعندما  
هجموا ردوهم منهزمين ، واخذوا الكثير من الغنيمة والأسرى .

وعندما قام الموحدون بمعاونة من القوات الأندلسية بمحاولة لاسترجاع  
حصن المنار لم ينجحوا في ذلك . وعندما خرج السيد أبو حفص يعقوب ابن  
أبي حفص ابن عم الأمير ووالى اشبيلية على رأس طابور من فرسان الموحدين  
لم يستطع أن يواجه العدو الذي كان موجودا في بساتين الضاحية . وفي شهر  
جمادى من نفس السنة ، ٥٨٥ هـ ( يونيه - يوليه ١١٨٩ م ) ، استولى  
الفونس على حصن أم غزالة الذي هجره أهله قبل أن يصل اليهم ، ولكنه  
غادره بعد قليل من الوقت واتجه نحو رينا ( Quinza Roina ) (١) . التي  
أخذها عنوة ، فقتل المدافعون عن الحصن ، وأخذ الآخرون أسرى ، واستولى  
القشتاليون على مغانم هامة . وفوق ذلك دفع الفونس مقدمات قواته حتى  
حصون قلعة جابر وحصن شلبر ، لكي يعودوا بعد ذلك الى طليطلة في شهر  
جمادى الثاني ( يوليه - أغسطس ) (٢) .

### سقوط شلب (Silve's):

ومع ذلك فقد كان ابن الريق ، سانكو الأول، ملك البرتغال ، هو الذي  
كانت له الحراة على استئناف الصراع بعنف ضد الموحدين في سنة ٥٨٥ هـ  
(١١٨٩ م) . ولقد خدمت الظروف ملك البرتغال الذي طلب المعونة من  
جماعة من الصليبيين الانجليز ، الذين كانوا في طريقهم الى الأراضي المقدسة

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٩ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٩ .



فى فلسطين. فعندما توقف هؤلاء فى لشبونة بسبب عاصفة ، قبلوا عقد اتفاق مع دون سانكو ، تقرر بنوده تقديم المساعدة العسكرية له نظير حصن شلب بدلا من الغنيمة التى قد يأخذوها من المسلمين (١) .

وقام ملك البرتغال بمساعدة فرسان الانجليز بحصار المدينة . ورأى الوالى الذى كان يحمل لقب الحافظ ، واسمه عيسى بن أبى حفص (٢) وسكان المدينة انه بدلا من المغامرة بمقاومة حصار قد لا تعرف مغبته ، أن يقترحوا على ملك البرتغال ان يسلموه المدينة شريطة الأمان فى النفوس فقط ، وأن تكون المدينة وكل ما يملكون فيها غنيمة لهم ، لا تمس . وتم فعلا احترام شروط معاهدة الخضوع ، وخرج السكان من المدينة مجردين من أملاكهم ، جوعى ، مجهدين من التعب . ودخل سانكو وحلفاؤه الانجليز فى البلد يوم الاثنين ٢٠ رجب ٥٨٥هـ (٣ سبتمبر ١١٨٩م) (٣) . واستمر ملك البرتغال فى غاراته المدمرة فى الأراضى الاسلامية ، وحقق نجاحات جديدة فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة الايبيرية (٤) . وهكذا أخذ عدد كبير من الحصون ، مثل : بور ( Al-Bour ) التى أخذت وقتل كل أهلها بحد السيف ، حتى النساء والأطفال (٥) . هذا ، كما سقطت كل من باجة ( Baga ) ويابره ( Evora ) أيضا (٦) .

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٧ - ٥٨ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٥ ، الحميرى ، الروض المعمار ، ص ١٠٦ والترجمة ص ١٣٠ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٣ - حيث تسمية الانجليز حسب اصطلاح العصر "بالفرنج" الامر غير المعقول حيث أن الفرسان الفرنسيين كانوا معتادين على دخول شبه جزيرة ايبيريا بالطريق البرى عبر ممرات البرانس ، بينما اعتاد الانجليز على البحر والذهاب الى الأراضى المقدسة بطريق البحر .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٨ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٨ .

(٦) القريطاس ، ص ١٤٤ ، ١٩٧ ، والترجمة ، ص ٣٠٧ ، ٣٨٥ ، السلاوى ، الاستقصا ، ص ١٧٤ - حيث صفحة

القريطاس ، ابن الأثير ج ١٢ ص ٣٧ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٥ . وما يستحق الإشارة ان المؤلفين لا يتمتعون على تاريخ اخذ شلب وغارات ملك البرتغال فحسب الحميرى تم الحصار فى شهر ربيع الاول (ابريل - مايو ١١٨٩) ، وهو التاريخ الذى يتفق مع ابن عذارى الذى أخذ نابه ( وقارن عبدالواحد المعجب ، ص ٢٠٣ ) . أما الآخرون فيضعونه خطأ سنة ٥٨٦هـ ( ١١٩٠م ) . فعلى سنة ٥٨٦هـ سار المصور لاجل المواضع التى خسرت . انظر نفسه ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٢ ص ٢٤٤ ، الترجمة ج ٢ ص ٢١٨ ، رسائل موحديّة ٢٨٨ ، والدراسة ، ص ٦٤ .

## أول حملة ضد البرتغال :

كان لأعمال ابن الريق ، سانكو ملك البرتغال وخاصة سقوط شلب أصداء أليمة في مراکش ، دفعت يعقوب إلى رد فعل عنيف فبعد شكوى تقدم بها والى أشبيلية أبو حفص يعقوب بن أبي حفص (١) الى يعقوب ، لم يتأخر ردّ هذا الأخير . فقد أرسل المبعوثون الى حكام الولايات المختلفة من أجل إعداد آلات الحرب ، وجمع المعدات والأغذية . واستنفر المقاتلين الى الخدمة العسكرية ، من الموحدين وكذلك العرب والقبائل الداخلة في الطاعة من غيرهم (٢) . ودوى صوت داعى الجهاد فى الجبال الجنوبية كما فى أقاليم الغرب . ورغم أن التعبئة العسكرية كانت اختيارية ، فإن حشداً لا حصر له من كل الألوان ومختلف الألسن لبى النداء (٣) .

ومن المحتمل جداً أن يكون نصارى الأندلس قد أخذوا علماً باستعدادات يعقوب الكبيرة وانهم فزعوا من الدخول فى حرب مع جيش اسلامى قوى . فهذا ما يوحى بما قام به أهم ملوك أسبانيا المسيحية ، وهو الفونس الثامن ، من الكتابة الى يعقوب يطلب منه السماح بإرسال السفراء اليه من أجل المفاوضة بشأن السلام ، وأن يقف الى جانبه كأحد اتساعه ، وأن يقوم الى جانب المسلمين بالحرب (٤) ضد بنى بلدته من المسيحيين . واكتفى يعقوب بالرد عليه بالإيجاب وغادر مراکش فى ١٤ من ذى الحجة ٥٨٥هـ (٢٣ يناير ١١٩٠م) الى رباط الفتح ، وذلك بعد ارسال المبعوثين الى اشبيلية يحملون خبر الحملة (٥) . ومكث يعقوب فى الرباط لمدة شهر تقريباً حتى تتمكن

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٢٤ ، والترجمة ج ٢ ص ٢١٢ ، الحلل الموشية ، ص ١٢١ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٧ . ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٢٤ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٢٠ ، الدراسة ٢ ص ٦٤ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ٢٢١ .

(٥) ابن عذارى ، ومجهول ص ٥٩ ، الحميرى ، الروض المعطر ، ص ١٠٧ ، الترجمة ص ١٣١ .

القوات المعبأة من التجمع ، والقوات الوافدة من القبائل من استكمال حشدتها . وفى أواخر أيام شهر المحرم ٥٨٦ هـ ( أول أيم مارس ١١٩٠ م ) تحرك يعقوب من الرباط نحو قصر مصمودة ( الذى كان يعرف بقصر المجاز ) ، فيما بين طنجة وسبتة (١) من حيث بعث الرسال الى اشبيلية تعلن عن قرب وصوله (٢) . واثناء مقامه بقصر مصمودة وردت الأنباء عن نجاح بحرى حققه المسلمون على النصارى ، حيث دمروا لهم السفن وأخذوا الأسرى (٣) . وبهذه المناسبة تلقى يعقوب التهاني العديدة ، وقيل الركوب للجواز استعرض الأمير عساكره ، وفى يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول ( ٣٠ ابريل ١١٩٠ م ) أبحر بعد الظهر الى طريفة حيث سلم عليه مندوبوا الأقاليم المجاورة .

وبقى يعقوب فى طريفة الى بداية شهر ربيع الثانى ( ٦ مايه ) (٤) . ثم اتجه نحو قرطبة عابرا منطقة أرگس ( ٥ ) . وفى جامع قرطبة الكبير تم احتفال تقليد اللواء الى يعقوب بصفته القائد الأعلى للحملة (٦) .

وبعد هذا الاحتفال الدينى العسكرى معا ، قرر يعقوب المسير نحو البرتغال التى كان ملكها من المناوئين له . وفى الوقت الذى كان الموحدون يصلون إلى قصر المجاز كان مبعوثوا ملك قشتالة قد وصلوا إلى أشبيلية ، حيث استقبلهم طلبة الموحدين . وبعد قراءة الخطابات التى تثبت انهم سفراء مفوضين ، ثم عقد السلم لملك قشتالة . و تقول الرسالة الموحدية الرسمية ان يعقوب ظهر بمظهر السياسى الماهر عندما قبل تبعية ملك قشتالة ، مع تطبيق مبدأ "فرق

(١) ابن عذارى ، مجهول ص ٥٩ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، الترجمة ص ١٣١ - حيث القول من ابن عذارى انه مكث أربعين يوما ، بينما يقول الحميرى انه لم يبق فى الرباط إلا ثلاثين يوما .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ص ٥٩ . وقارن الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ص ١٣١ حيث النص على أن هذا الانتصار وقع فى المغرب ، الامر الذى لا معنى له . وانظر فيما بعد ، ص ٤٢٩ .

(٤) الحميرى الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ص ١٣١ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٠ .

(٦) الحميرى الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ص ١٣١ .

تسد" (divide ut imperes) (١) بالنسبة للملوك المسيحيين .

وفي نفس الوقت ، طلب ملك ليون ، ابن عم ملك قشتالة ، والذي كان يتمتع بعقد الهدنة ، تجديدها فتم له ما أراد . وهكذا قرر يعقوب تركيز جهوده في أرض ملك البرتغال ، أقرب البلاد الى أرض المسلمين ، وأخطرها بالنسبة لها (٢) . وفي قرطبة استقر في قصر أخيه الفخم ، السيد أبو يحيى . وهناك التقى بسفراء ملك قشتالة ، وسمح لهم بالمغادرة الى بلدهم (٣) .

وكانت خطة يعقوب لمهاجمة العدو في جبهتين من العساكر : احدهما تحت قيادته الشخصية ، والأخرى تحت قيادة والى اشبيلية . وبعد أن أنزلت قوات يعقوب مهماتها الثقيلة ، وأخذت ما يلزمها من الميرة ، وجددت مهماتها ، بقيت عدة أيام في قرطبة . وأثناء ذلك الوقت كان يعقوب يدقق في أمور القوات ، من المرتزقة النظاميين ، ومن المسيحيين الذي هجروا بلاد العدو ولجأوا الى المسلمين ، فصرف لهم الرواتب ، ورفع الرايات ، وسار من أجل الجهاد . وفي نفس الوقت أمر السيد أبا حفص ، والى اشبيلية . بتعبئة قواته ، من العساكر النظامية ، والعرب والمتطوعة ، والمتأخرين من صنهاجة ، وهسكورة ، "والمجاهدين في سبيل الله" ممن أتوا من كل النواحي . وهؤلاء تحركوا تحت قيادة أبي حفص في أول جمادى الأولى (٦ يونيو) لكي يصلوا الى ضواحي شلب حيث استقروا (٤) . واتخذت الاجراءات مقدما للقيام بعملية برية بحرية مشتركة . وأخيرا وصل الأسطول في آخر نفس الشهر . وهكذا انشئت آلات الحصار والمنجنيقات ، وضرب حصار شديد حول المدينة (٥) .

(١) رسائل موحدة ص ٢٢٢ .

(٢) رسائل موحدة ، ص ٢٢٣ ، والدراسة ، ص ٦٥ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٠ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٠ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٠ .

وفى جهة أخرى أمر يعقوب السيد أبو زكريا بن أبي حفص أن يذهب ليستعد للحرب مع القوات الخاصة لقيادته ، من : العرب ، وزناته سكان تلمسان وحلفائهم ثم اللحاق به فى وادي باجه . وهناك تقوّت العساكر التى كان يقودها يعقوب بالقوات التى كان يقودها أبو زكريا . وسار الأمير بطابوره العسكرية نحو وادى تاجّه ، وعبر النهر واتجه نحو اقليم الجيوب الخصب المتاخم لشنترين حيث أفسد وخرب كل المحاصيل ، كما قوض كل المساكن<sup>(١)</sup> . بعد ذلك اتجه نحو حصن طرش القوى ، والواقع فى مكان مرتفع ، عحيب التحصين . وضرب يعقوب حوله الحصار، وانتهى الأمر بطلب المحاصرين المفاوضة من أجل الأمان . وتمت اتفاقية تقضى بنودها بأن يحلوا المحاصرون عن الموضع بنسائهم وأطفالهم ، تاركين كل أملاكهم وأطعمتهم للمنتصرين<sup>(٢)</sup> . ومع ذلك فإن المحاصرين اشترطوا موافقة حكامهم على بنود اتفاقية الأمان هذه . ووصلتهم موافقة يعقوب ، وسارت بعثة تشمل قائد الحامية المسيحية وبعض المفوضين العرب فى الطريق إلى اتمام ذلك الغرض . وبمجرد وصول موافقة ملك البرتغال استسلمت حامية حصن طرش<sup>(٣)</sup> بنفس الشروط التى تم بها استسلام شلب فى السنة السابقة . وحصل الموحدون فى الموقع على غنيمة كبيرة ، من الخيل والسلاح ، والأثاث . وبعد أن خرب الموحدون الموضع تركوه خراباً يبابا وساروا نحو مدينة محصنة أخرى هى : طمان<sup>(٤)</sup> ونزل بتلك المنطقة الغنية بكرومها وأشجار فاكهتها ما نزل بطرش من الدمار . فحصر الموضع الحصين حصاراً شديداً ، وضغط على أهله ضغطاً مرهقاً كما خربت أراضيهم المثمرة وأحرقت مزروعاته . وقامت عدة غارات على نفس النمط فى المنطقة بينما كان ملك البرتغال الذى تقوى بفرقة من عساكر

(١) رسائل مرحدية ، ص ٢٢٥ ، والدراسة ، ص ٦٥

(٢) رسائل مرحدية ، ص ٢٢٥ ، والدراسة ، ص ٦٥ .

(٣) من عذارى ، مجهول ، ص ٦١ .

(٤) من عذارى ، مجهول ، ص ٦١ .

الانجليز الذين انضموا لقواته متحصنين داخل شنترين لا يستطيعون الحركة (١). وأراد ملك البرتغال المفاوضة من أجل السلم ، فأرسل سفراءه الى يعقوب ، الذى استمر فى غاراته المدمرة للأقاليم البرتغالية . وللأسف ، فإنه إذا كان يعقوب قد تصرف بحساب فإن ذلك الحساب كان خاطئاً نحو المسيحيون عندما عرفوا فى وقت مبكر بخبر حملته قاموا بحصاد محصولاتهم (٢) . وهكذا فبينما أنهك التعب قواته ، وكذلك قلة الغذاء ، وارتفاع الأسعار (٣) . كان مضطراً الى العودة الى اشبيلية . هذا . كما أمر كذلك الموحدون العاملين فى أقصى جنوب البرتغال (منطقة شلب) تحت قيادة والى اشبيلية بالعودة الى بلدهم . وكانت عودته الى العاصمة بالاندلس فى ١١ جمادى الثانى من نفس السنة (٦ يولييه ١١٠٠م) (٤) .

ورغم النجاح المحدود للحملة فقد كان الاحتفال بعودها مجلجلاً فى اشبيلية : فالسودان بقلانسهم المخروطية الشكل ، ذات اللون الأحمر الفاقع ، كانوا يركبون الجمال البيض ذات الرواحل المزخرفة بالجلجل ويحملون فى أيديهم التروس ، بينما كان الغزّ يمتطون صهوة أنواع مختلفة من الحيل الأصلية (٥) .

(١) انظر ما سبق ، الحميرى ، الروص المعطار حيث الإشارة الى ان قصر أبى دانس (Alxaxer de sol) وبالا (Palmul) ، الموصفين الحصبين كان هدفاً للتخريب من قبل يعقوب

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٢٧ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦١ ، رسائل موحدية ، ص ٢٢٧

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٢ ، ورغم تأكيدات عبد الواحد (المعجب ، ص ٢٠٣) ، وابن خلدون (العبر ، ج ٦ ص ٢٤٤ ، والترجمة ج ٢ ص ٢١٢ ، وابن خلكان (ج ٣ ص ٣٧٥ ، ٣٧٢) ، ومؤلف روض القرطاس (ص ١٤٤ ، والترجمة ٣٠٧ ، ٣٨٥) الذى يقل عنه السلاوى (الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٥) فإن تحرير شلب لم يكن موضوع الحملة الأولى ليعقوب فى الاندلس . وذلك لانه عاد الى اشبيلية قبل أن يقترب من أرضها . وعلى ذلك فهو قد قام بنشاطه الأول فى منطقة شنترين ، ربما ليقار من هزيمة والده سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) والتي كان قد شارك فيها .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٢ .

## الحملة الثانية ضد البرتغال:

وبعد إقامة في اشبيلية طالت الى سنة تقريبا وحه خلالها يعقوب اهتمامه الى شئون الأندلس ، قرر العودة الى النضال ضد ابن الريق . وحتى ذلك الوقت كانت شلب ما تزال بين يدي الغازي ، الأمر الذي يعنى أنها لو بقيت كذلك لكان قبولاً بفشل الحملة ، وهو ما لم يكن يقبل به أحد في جانب الموحدين . وهكذا فبعد الإنتهاء من اعداد لوازم الحرب ما ترك يعقوب اشبيلية في أول ربيع الثاني ٥٨٧هـ ( ٢٨ ابريل ١١٩١م ) على رأس قواته . ويفخر ابن عذارى بنظام المقاتلة وكمال استعداداتهم (١) .

وكان أول مكان محصن وصلوا اليه هو قصر أبي داس ( Aleacer do sol ) في منطقة الغرب ( غرب الأندلس ) . وكان المكان عجيب التحصين ، بدأ بعض المقاتلة بطمر الخندق المحيط بالسور ، بينما كان آخرون يهاجمون أسوار المدينة وتحصيناتها . ولكن مقاومة المدافعين كانت عنيدة حتى أن الموحدين ، أصيبوا بخسائر كبيرة خلال الأيام الثلاثة الأولى من القتال (٢) ومن حسن حظ الموحدين أن جاءتهم النجدات البحرية في الوقت المناسب . وهكذا صعد البحريون في مصب النهر وهاجموا هجوما صاعقا عن طريق إقامة ١٤ ( أربعة عشر ، منجنيقا دون تأخير (٣) وحتى ١٥ من جمادى الأول ( ١٠ يونيه ) نجح المدافعون في الثبات في أماكنهم ، ولكنه ذات اليوم أعلن الموحدون هجوما عاما : فقامت جميع المنجنيقات تصب قذائفها على الموقع الحصين . وبعد قتال عنيد استشعر المدافعون حرج موقعهم وبدأوا يبحثون عن الفرار عبر البحر ، لولا أن وقف المهاجمون أمامهم سدا يمنعهم من تنفيذ مخططهم هذا . وهكذا ثم أسر المدافعين ، وثقلهم الى اشبيلية (٤) .

(١) ابن عذارى، مجهول ، ص ٦٣ .

(٢) ابن عذارى، مجهول ، ص ٦٤ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .



وعقب ذلك بدأ يعقوب فى تنظيم الموضع إدارياً . فأقام من يسمى ابن وزير واليا ، وترك معه حامية قوية (١) . وبعد هذا الظفر ، سار يعقوب نحو حصن بالملأ المنيع (٢) الذى لقى نفس المصير كآبى دانس ، ولكن المدافعين طلبوا هذه المرة الأمان نظير تسليم المكان مقابل العفو عنهم . وعندما تم عقد الصلح هذا خرجوا الى بلادهم تاركين مدينتهم الحصينة فريسة للنهب والتخريب (٣) وبعد ذلك اتجه يعقوب صوب قلعة "المعدن" الحصينة (Almada) (٤) . وبعد انتهاء هذه العمليات العسكرية اتجه يعقوب نحو الجنوب صوب شلب ، هدف الحملة الأولى . ووصل أمام المدينة يوم الخميس ، جمادى الثانية (اليوم الثانى من يونيه ١١٩١ م) (٥) وفى التو واللحظة حوصرت المدينة حصاراً شديداً واقامت آلات الحصار والمنجنىقات فى مواجهتها ، كلما بدء فى طمر الخندق . وفى يوم الأربعاء ١٥ جمادى الثانى (١٠ يونيه ١١٩١ م) ، وفى هجوم غير منتظر فى الفجر ، استولى الموحدون على الأسوار والتحصينات ، وقام المدافعون مذعورين على صوت الطبول ليجدوا رايات الموحدين مرفوفة على الجدران الخارجية للأسوار ، ولكنهم لم ييأسوا ، فلم يخضعوا دون شروط للمهاجمين ، فبعد قتال عنيد رأى أهل المدينة دقة موقفهم ، فطلبوا الأمان حسب تقاليد ذلك العصر ، فى : خضوع المدينة نظير سلامة الأرواح ، والعودة سالمين الى الأراضى المسيحية (٦) .

ووافق يعقوب عن هدنة ١٠ أيام حتى يتم لهم موافقة الملك على الاتفاقية .

(١) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ ، حيث الاسم قللاً ، وقارن الحميرى ، الروض المعطار ، الترجمة ، ص ١٣١ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ ، الحميرى الروض المعطار ص ١٣١ .

(٤) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ، ١٣٢ - ونلاحظ هنا أنه يضع خطأ أخذ أبى دانس التابعه لبالملأ ، وكذلك المعدن فى القسم الأول من الحملة ، أى فى سنة ٥٨٦ هـ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ ، وانظر الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ١٣٢ هـ .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ (ابن العجّار) ، المقرئ ، ج ٢ ص ١٤٩ (أبراهيم بن الفضل) انظر ص ٤١ و ٤٢ .

وعندما وصل أهل المدينة موافقة الملك وشكره على المقاومة المشرفة ، أخلى المدافعون مدينة شلب يوم الخميس ٢٥ جمادى الثاني ( ٢٥ يولييه ١١٩١م ) (١)

بفضل استعادة شلب طمأن الأمير الموحدى الرأى العام فى انحاء بلاده ، وانقذ هيئته نفسه التى كانت قد أوذيت منذ أكثر من سنة قبل ذلك عن طريق الاعتداء الذى قام به ابن الريق ، سانكو الأول ، ملك البرتغال ، فبعد هذه العلميات العسكرية فى الأندلس ، ظهر موقف الدولة الموحدية فيما وراء العدو ( المضايق ) وكأنه استقر نسبيا . فمن جهة ومن أخرى احترام كل من الموحدين وملوك قشتالة وليون وقتيا على الأقل ، المعاهدات التى كانت قد عقدت بينهم حديثا . وفى نفس الوقت أمكن ضبط ملك البرتغال المحارب بل ومنعه من الاعتداء بالقوة ، وبذلك استعد يعقوب الى العودة الى عاصمته مراكش بعد غياب عنها طال الى أكثر من سنة ونصف السنة .

فبعد أن نظم البلاد ، وأقام بعض أقاربه فى حكم الولايات الأندلسية ، كما حصن الحدود ، قرر مغادرة اشبيلية فى أول شهر رمضان ٨٥٧هـ ( ٢٢ سبتمبر ١١٩١م ) (٢) . وعقب احتفال الوداع الذى تم فى بحيرة الوادى ، قرب شاطئ الوادى الكبير ، سار فى طريقه نحو البحر . وعبر المضيق فى منتصف الشهر ( ٦ أكتوبر ) لكى يعود الى مراكش (٣) . وبعد هذه الحملة سقط يعقوب مريضا

---

(١) نفس الهامش السابق

(٢) ابن عذارى ، مجهول ص ٦٦

(٣) نفس المصدر

، وعين ابنه محمد كولى للعهد (مفوض للحكم) . وبهذه المناسبة استقبل يعقوب رسالة من الأندلس من قبل ملك قشتالة ، الذى كان قد ارسل بعض رجاله من اليهود ، وهو يوسف بن الفخّار ، كمفوض للتصديق على الهدنة (١) . التى كانت وقعت سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠م) ، بين الطرفين لمدة خمس سنوات (٢) .

### سفارة صلاح الدين:

تعتبر سفارة صلاح الدين أبى يعقوب من أهم السفارات والبعثات التى استقبلها الأمير الموحدى عند رجوعه من الأندلس . فهى تلقى الضوء على المكانة التى كانت لدولة الموحدين فى المشرق الاسلامى على أيامه . كان صلاح الدين يشعر بثقل التهديد الذى يمثله الصليبيون فى المشرق ، ورغم نجاحه المدوى فى حطين قرب طبرية سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) ، فإنه قرر أن يرسل السفراء لدى أهم ملوك الاسلام ، طلبا للمعونة والنجدة (٣) ولحسن الحظ أنه وصلتنا نصوص رسالتين صادرتين عن ديوان الانشاء المصرى الى يعقوب ، والاثنان من انشاء القاضى الفاضل فى سنة ٥٨٥ هـ ١١٨٩م وسنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠م) ، والأولى نقلها لنا القلقشندى (٤) ، والثانية نقلها لنا أبو شامة (٥) وهذه الأخيرة ، حملها الى المغرب ابن منقذ (٦) .

ورغم أن الرسالتين يشك فيهما من حيث الشكل (٧) ، فإن مضمونهما

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ (ابن العجّار) ، للمقرئ ، ج ٢ ص ١٤٩ (ابراهيم الفخّار) انظر ص ٤١ و٤٢

(٢) ابن خلكان ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٣) عماد الدين ، فتح الشام ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، وقارن ج . ديموبين ، منوعات لاباست ، رسالة الى صلاح الدين ١٩٢٥ ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٦ ص ٥٢٦ - ٥٣٠ ، وقارن ج . ديموبين ، منوعات د . باست ، ١٩٢٥ ، ج ٢ ص ٢٧٩ ، وهو يفضل وضع هذه الرسالة فى حريف سنة ١١٨٩ (نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٥) كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٠ وما يلحقها .

(٦) نفسه - حيث يقول أبو شامة ان الرسالة الثانية كتبت فى ٢٨ شعبان ٥٨٦ ( ٣٠ سبتمبر ١١٩٠ ) وأن السفير رحل من الاسكندرية يوم ١٣ رمضان ٥٨٦ هـ ( ١٣ أكتوبر ١١٩٠ ) على حافية مزودة بـ ١٢٠ بحاراً . ولكنه رغم دقة الاحداث المرومة فإن الشك يحيط بالتفاصيل ويدعو الى الشك أيضا فى التواريخ . وهكذا فنحن نفضل الرجوع الى ابن عذارى الذى تظهر اخباره أكثر صحة .

(٧) ج . ديموبين ، منوعات د . باست ، ج ٢ ص ٢٩٧ .

مقبول دون نقاش . والأمر يتعلق بطلب معونة بحرية ضد المسيحيين الذين كانوا يستعدون لغزو بلاد الشام عن طريق البحر ، وذلك إن الجنوبيين ، والبنادقة والصقليين كانوا يهددون بلاد الشام التابعة لصالح الدين . ففي شهر رجب ٥٨٦ هـ ( أغسطس ١١٩٠ م ) وصل أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ الى بلاد افريقية (١) . وسار من بعد ، الى بجاية ، ورغم السرية التامة التي التزم بها السفير . فلقد وصلت لهؤلاء تعليمات صارمة من يعقوب ، الذي كان وقتئذ مشغولا بحملته ضد البرتغال ، بعدم سؤاله عن موضوع بعثته (٢) . أن يستقر بفاس انتظاراً لعودة الأمير (٣) .

ورغم أنه لم يكن قد شفى تماماً من المرض الذي أصابه عقب عودته ، فإن المنصور ( يعقوب ) لم يترك لغيره النظر في أعمال دولته ، إذ اهتم بها شخصياً طول مدة النقاهة التي يظهر أنه كانت تقطعها فترات عودة المرض . وهكذا روى محمولا على محفه ( محمل ) وهو آت من مراكش الى فاس حيث كان السفير المصري في انتظاره ، وذلك في أول المحرم من سنة ٥٨٨ هـ ( ١٧ يناير ١١٩٢ م ) . وفي نهاية أسبوع ، ٦ محرم ( ٢٣ يناير ١١٩٢ م ) ، استقبل المنصور ( يعقوب ) ابن منقذ (٤) .

---

(١) ابن عداري ، مجهول ، ص ٦٣ - أبو شامة (ج ٢ ص ١٧٣ ، وابن عذارى لا يتفق على هذا التاريخ تبعاً لداوود فإن السفير لم يصل الى طرابلس إلا في ٢٥ شوال (٢٥ نوفمبر) لكي يمكث الى ٨ ذي القعدة (٢٧ ديسمبر) .

(٢) ابن عداري ، مجهول ، ص ٦٣

(٣) نعمه . الاستبصار ، حيث يقول المؤلف الذي يكتب في شهر رجب ٥٨٧ هـ ( يونيو - يوليو ١١٩١ م ) ان ابن منقذ كان في فاس في تلك الفترة انتظاراً لتعليمات الخليفة . ابن خلدون ، العبر ، ج ١٦ ص ٢٤٦ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٦ ، السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٤) .

(٤) الاستبصار ، حيث لا يقول المؤلف الذي يظن أنه كان أحد حاشية الأمير ، شيئاً عن موضوع اللقاء ، ربما لأنه كان يعرف الرد السلبي لأميره ( يعقوب ) المنصور ، . وكل ما يقوله لنا ، هو أنه يعتبر تلك الزيارة بمثابة إعلان خضوع من جانب صلاح الدين الى الخليفة المغربي ، فكانه يمين الولاء والطاعة ، كما يفعل التابعون بالنسبة لأمرائهم .

وبعد أن قدم الهدية من قبل صلاح الدين الى العاهل المغربى (١) ، عرض السفر الغرض من بعثته ، وهو : تدخل الأساطيل الموحدية قطع الطريق وحصار بلاد الكفار ، واستخلاص وتحرير بلاد المسلمين (٢) . حقيقة أن معركة عكا كانت على أشدها وأن صلاح الدين باسطوله الذى لا يكفى لم يكن يستطيع منع وصول الامدادات المسيحية . ولكن الذى يدهش حقا هو ان بطل الاسلام بالشرق لم يكن يجهل من غير شك أن نظيره المغربى ، كان هو الآخر يعيش فى حرب مستمرة مع كفار الاندلس الذين كانت تساندهم إقطاعية فرنسية شغوفة بالمغامرات فى اسبانيا كما فى أراضى الشرق المقدسة . كما أنه لم يكن يجهل أن أمير المغرب كان فى حاجة الى تعبئة كل قواته البحرية والبرية حتى يستطيع مناخرة خصمه . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يفهم طلب المعونة هذا من جانب صلاح الدين ؟ يمكن تذكر الهيبة المبالغ فيها ، كما قد يظن ، والتي كان يتمتع بها المجاهد المغربى . وهكذا كان صلاح الدين يرى أن الخطر المسيحى الذى يثقل كاهله قد يمكن أن يشاركه فى حمله إياه مناصفةً ذلك المدافع الآخر عن الإسلام . فالارض المقدسة ليست تركة لكل المسلمين مهما كان شأنهم ؟ لقد كانت بلاد الشام الصليبية تستقبل المعونة المستمرة من أوروبا المسيحية ، والشرق الإسلامى كان ينتظر بدوره معونة أكثر جدية من جانب المسلمين المغاربة . ولكن السفير المصرى ، رغم انه استخدم كل

(١) كانت الهدية تتكون من نسحتين من القرآن الكريم بلخط المنسوب ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وشمالة مثقال من السك والعتبر الأشهب ، وخمسين قرصاً عربياً مع أوتارها ، وعشرين حبة هندية وعدد من السروج المذهبة . ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٤٦ ، الترجمة ج ٢ ص ٢١٦ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٣ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) الفلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٦ ص ٥٣٠ ، أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٧٠ وما بعدها ، وقارن ج . ديموبين ، منوعات لاهاست ، ج ٢ ط ١٩٢٥ ، ص ٢٨٨ ، وانظر ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٤٦ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٢١٦ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٥ .

حذقه في إغداق المدائح على يعقوب ، والإشادة بأمجاده (١) تلقى إجابة غير مناسبة . فهو على المستوى الشخصي كان راضيا من حيث اغداق الهدايا عليه ، ولكنه فشل تماما على مستوى المهمة التي أنيط بها (٢) . وإذا أردنا البحث عن تفسيرات لرفض يعقوب طلب صلاح الدين فإننا نجد منها الكثير ، وخاصة مسألة نبي غانية الدين آرههم المماليك المصريون والتي انغمس فيها صلاح الدين بطريق غير مباشر ، كذلك عدم اعتراف صلاح الدين بلقب أمير المؤمنين الذي حمله ملوك الموحدين (٣) . ومع ذلك فهذه الأسباب تعتبر ثانوية إذا ما قورنت بالأسباب الأخرى الأكثر جدية . ففترة المرض التي مر بها المنصور لم تكن خطرة على حياته الخاصة فقط ، بل وعلى أمن إمبراطوريته أيضا ، فقبل التفكير في معونة المسلمين في الشرق ، كان عليه أن يوجه كل انتباهه إلى الموقف الداخلي في دولته ، وأن يقتل في المهد كل محاولة ضد خلافة . ألم يقضى على أخيه أبي يحيى في هذا الوقت ؟ وفوق ذلك فالمنصور ، بفضل موقفه الحرج كان لا يستطيع إلى اتمام هذا التعاون المرغوب . من كل مسلم ، فلقد كان في حاجة إلى كل قواته البحرية لكي يواصل الصراع ضد التوار الميورقيين ، وهم القراصنة بالامتداد ، كما كان عليه أن ينقل قواته البرية إلى الأندلس ، وحماية مواصلاته سليمة عبر المضيق كما كان عليه أن يستعين بالأسطول ضد مواقع الأعداء البحرية ، بل والدفاع عن الحدود

(١) انظر فيما بعد ، ص ١٠٣ ، ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٦ ، والترجمة ج ٢ ، ص ٢١٦ - حيث ينسى المؤلف أصول التاريخ العلمي ، فيقول إن ابن منقذ أتم مهمته ، ولكن المنصور اعتذر بأنه لا يستطيع تقديم أسطوله وحسب رواية أخرى ، فإنه جهر بعد ذلك ١٨٠ (مائة وثمانين) مركبا ومع البحري من الوصول إلى سواحل الشام . انظر ج. ديمومين ، خطاب صلاح الدين ، موجات لا باس ، ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٣٨١ - حيث القوا أن صلاح الدين حاطبه بلقب "أمير المسلمين" وليس "أمير المؤمنين" . وفاروق أبو شامة ، ج ٢ ص ١٧٤ ، السلاوي ، الاستقصا ، ص ١٧٤ .

البحرية الاسلامية ضد كل خطر يأتى من العدو البحرى ، مثل ذلك الذى وفد من الانجليز الصليبيين الذين أدى تدخلهم الى سقوط شلب ، فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٦م) . ان الاحداث التالية تبين أنه لم يكن على خطأ ، أن الانتصارات المدوية التي أحرزها يعقوب فى الأندلس لا تقلل أبدا من قيمة حساباته .

### عودة هجومية للأعداء وانتصار "الأرك" المدوى (٥٩١هـ / ١١٩٥م) :

فى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣-٤م) ، كان يعقوب فى موقف حرج ، وذلك أن الولاياتين النائيتين شرقا وغربا : افريقية والأندلس ، سقطتا فى هاية الفوضى . فمنذ أن ابتعد عن افريقية ، انفسح المجال أمام كل من قراقوش ويحيى بن غانية لكى يثيرا الشغب والفوضى فى البلاد ، وكانت قوة الثانى تزداد شيئا فشيئا مع مرور الوقت . وهكذا ، فعندما حذره والى افريقية السيد : أبو سعيد بن أبى حفص فى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣-٤م) ، قرر يعقوب العودة الى افريقية لاقرار النظام . ولكنه وفى نفس الوقت انقضت هدنة الخمس سنوات المعقودة مع ملك قشتاله فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) فى مراكش ، والتي صدق عليها مرتين ، فى أشبيلية سنة ٥٨٦ (١١٩٠م) وفى المغرب سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) ، وذلك فى نهاية سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤م) (١) وعندما عرف ملك قشتالة بموقف يعقوب الصعب فى افريقية (٢) ، حرق الهدنة قبل فترة وجيزة من نهاية السنة (٣) . وبدأ حسب السيناريو المعتاد بغاراته التخريبية فى الأراضى الاسلامية ، من حصار القلاع ، وتخريب المزارع ، وقطع الأشجار ، وباختصار تخريب البلاد ونهبها (٤) . وفى نفس الوقت أرسل الى يعقوب مطالبا بعدد من المواضع الحصينة المتاخمة لبلاد قشتاله (٥) .

(١) هيدانواحد ، المعجب ، ص ٢٠٥ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٨ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ١٧٦ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٨ ، القرطاس ، ١٤٥ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٦ ، ونفس المعلومة ينقلها السلاوى فى الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٦ .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٨٠ - حيث النص على أنه فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣) قام رئيس اساقفة طلبطلة على رأس منظمة كلاترافا (Calatrava) بغارة فى أراضى جيان وقرطبة . وفى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤) قام ملك قشتالة بنفسه بغزو البلاد ، انظر كلوريو سانشز - البورنور ، اسبانيا الاسلامية (بالاسبانية) ج ٢ ص ٢٦٦ ، بدرؤا جوادو بلاى ، تاريخ اسبانيا المجلد ، ج ١ ص ٦٤١ .

(٥) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٦ ، المقرئ ، ج ٢ ص ١٨٩ (الاستقصا ، ص ١٧٦) .



كما ارسل خطابا الى الامير الموحدى (١) ، وهذه الرسالة كانت مدبجة بمعرفة وزير الفونسي : ابن الفخار (٢) ، الذى كان قد صدق على الهدنة باسم سيده سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١) بمراكش (٣).

ولكن المؤرخين يجعلون لتلك الرسالة مضمونا مليئا بالاثارة بشكل غير معتاد الى جانب ادعاءات غير معقولة ، الامر الذى لا يجعلها بذلك الشكل من عمل دبلوماسى معروف مثل ملك قشتاله ، الذى كان حريصا على إقامة علاقات سلمية مع العاهل المغربى ومثل هذه الرسالة لا تكون إلا نوعا من الدعاية المضادة للملك المسيحى ، مصطنعة بهدف إثارة خواطر المسلمين ودفعهم الى الحرب المقدسة ضد عدو تصوره كشيطان مخوف . فالملك المسيحى لا يسعى إلا الى إذلال الأمراء المسلمين بالاندلس عندما يدعى انه فى الماضى كان المحارب المسلم يقاتل عشرة مقاتلين مسدمين ، والآن جاء الوقت الذى يستطيع المحارب المسيحى ان يقاتل عشرة من المسلمين ويهزمهم . . . وكان ذلك يعتبر قذفا فى الدين الاسلامى (٤). هل تردد الامير الموحدى فى الذهاب الى اسبانيا لمحاربة ملك قشتاله ؟ ان هذا الاخير يسهل عليه الامر فى رسالته ، إذ يقول أنه ليس على الموحدى إلا أن يرسل اليه المراكب لى تنقل محاربيه الى المغرب ، حيث ينقل القتال الى قلب الدولة العدو ، فإذا انتصر يعقوب فانه سيضع يده على مغنم كثيرة ، أما اذا انتصر الفونس على خصمه فإن هذا الأخير يخضع له ويصبح هو "رئيس الملتين" (٥).

ومن وجهة النظر الدعائية ، فإن رسالة بهذا المحتوى أو مثيلاتها من نفس

(١) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٦ ، ابن الأثير ، ج ٣ ص ٧٣ ، القرطاس ، ص ١٤٥ (السلامى ، الاستقصا ، ج ١ ط ١٧٦)

(٢) ابن خلكان ج ٣ ص ٣٧٦ - حيث وصف ابن الفخار بأنه من المسلمين الضعاف الايمان ، وفارن المقرئ ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ . حيث القراءة : ابن الفخار ، ولكن القراءة هى ص ٨٥ صحبة : ابن الفخار .

(٤) انظر القرآن الكريم ، سورة رقم ٢ آية رقم ٦٦

(٥) ابن خلكان . ج ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ابن الأثير ، ج ٣ ص ٧٣ ، القرطاس ، ص ١٤٥ ، السلامى ، الاستقصا ، ج ١ ص

١٧٦ ، ابن أبى دبنار ، ص ١١٥ .

النوع ، كالتى يقال انها ارسلت من قبل ملك قشتاله الى ابن عباد وابن تاشفين  
عقب سقوط طليطله سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) تؤلف مضموناً متكاملًا (١) .  
ورغم أن أصالتهما موضع الشك ، فإن الرسالتين تلقيان بالضوء على الحالة  
النفسية لتي كانت سائدة فى ذلك العصر ، من حيث : غليان الرأى العام فى  
الأندلس أمام الهيمنة المتعاطمة من يوم الي آخر ، لملك قشتالة (٢) .

وتريد الاسطورة أيضا أن يكون يعقوب قد مزق الرسالة وكتب على ظهر  
قطعة منها : "ارجع اليهم فلتأتينهم بحنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها  
أذلة ، وهم صاغرون" (٣) ، والجواب لن تقرأه بل سوف تراه ، وكتبنا ستكون  
السيوف والخراب ، ورسلنا : جيش كبير (٤) فى هذا الجو المكفهر ترك يعقوب  
بلاد افريقية لمصيرها ، وحول جيشه نحو مكناسة (٥) ، حتى يذهب للجهاد  
الحقيقى فى سبيل الله ، ويلزم العدو حدود الاحترام .

وبعد أن أعد العدة لحرب واسعة المدى عبر المضيق فى احتفال كبير يوم  
الخميس ٢٠ جمادى الثانية ٥٩١ هـ (أول يونيه ١١٩٤ م) . وبقي فى طريقه  
يوما واحداً ، قبل أن يتجه الى اشبيلية . وفى العاصمة الأندلسية : أشبيلية  
تقرر أن يكون مركز قيادته وذلك فيما وراء باب جهور ، فى الضاحية ، حيث  
كان استقبال العامة له ، وفى يوم الخميس ٢٧ (جمادى الثانى (٧ يونيه) أقيم  
احتفال لاستقبال الخاصة من الملأ وفى اليوم التالى قام بدورة تفتيش فى المدينة

(١) نفس الرسالة التى كانت قد اشعت باسم ملك قشتالة لترسل الى يوسف ابن تاشفين . ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٧ ،  
الجلل ، ص ٢٥ ، ٢٩ ، المقرئ ، ج ٢ ص ١٧٩ . ابن خلكان ، يقدم أولاً هذه الرسالة وكانت مرسله ايضا الى يوسف بن  
تاشفين ولكنه لا يفصل فى المسألة ، إذ يقول : والله اعلم .

(٢) لكن يحرض المصور اماريين ، امر بقراءة هذه الرسالة أمام الموحدين والعرب والزبانية وغيرهم - القرطاس ، ص ١٤٥

(٣) قرآن كريم سورة ٢٧٥ آية ٣٦ ، اس الاثير ، ج ١٢ ، ص ٧٣ ، والترجمة ص ٦٠٩ ، ٦١١ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٧ .

(٤) نفس الهامش . ويقول صاحب القرطاس ان ارد كان قد عهد به الى ولى العهد ابو عبدالله محمد ، انذى كان علاماً  
حدثاً ، فكتبه بخط يده ، الامر الذى اسعد والده كثيراً (ص ١٤٥) ، ابن ابى دinar ، ص ١١٦ ، السلاوى بالاستقما

، ج ١ ص ١٧٦

(٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ والترجمة ، ج ٢ ص ٢١٣ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٨ .

، فزار في الصباح حصن الفرخ الخلفي ، لكي يعود الى المسجد الجامع حيث حضر احتفال صلاة الجمعة (١) . وفي يوم السبت استعرض قواته ، بصحبة الوزراء ، وعدد من أفراد العائلة الملكية ، فمرين ، صفوف المجاهدين ، في معداتهم الحسنة ، ووسط القبائل في ثيابها المتأنقة ، وإعلانا عن سعادته بتمام المعدات وحسن النظام السائد بين قطعات الجيش أمر بصرف الرواتب ، ثم أنه جمع كل قواته المخصصة لتنفيذ العمليات الحربية ، وسار بها يوم الأربعاء ١١ ربيع سنة ٥٩١ هـ (٢٢ يونيو ١١٩٣ م) (٢) ، نحو قرطبة محازيا لنهر الوادي الكبير (النهر الأعظم) . ووصل قرطبة يوم الجمعة ١٩ من نفس الشهر (٣٠ يونيو) ، حيث أقدم ٣ أيام لكي يخرج منها يوم الثلاثاء ٢٣ (٣ يولييه) في اتجاه قشتاله (٣) . ووصلت عناصر متقدمة من الجيش أمام حصن "قلعة رباح" (Calateava) الحصينة على الطريق فيما بين قرطبة وطليطلة (٤) ، واستولت على الموضع دون قتال ، بعد هرب الحامية المسيحية (٥) وطهر المسجد (٦) من الدنس الذي أصابه خلال الـ ٥٢ سنة من الاحتلال المسيحي ، وأدى فيه يعقوب الصلاة.

وبعد أن أقر فيه حامية وضع على رأسها القائد أبو الحاج ابن قادس (٧) . واستمر الأمير في مسيرته ، وفي نفس المنطقة وجد الخصمان نفسيهما وجها لوجه ، بالقرب من القلعة المحصنة ، المعروفة بالأرك (Alarcos) (٨) .

(١) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٦٩ .

(٢) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٦٩ ، الحميري ، الروض المعطار ، النص ص ١٣ والترجمة ص ١٨ .

(٣) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٦٩ ، ابن خلدون ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٣

(٤) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٦٩ ، الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٦٣ والترجمة ١٩٦

(٥) نفس المصادر ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٥ .

(٦) الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٦٥ والترجمة ص ١٩٦

(٧) نفس المراجع .

(٨) عبدالواحد ، المعجب ص ٢٠٥ - حيث تسمية الموضع بالمحصن الجديد ، وابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٧٤ ، وابن خنكان ، ج ، ص ٣٧٧ ، بسميائه مرجع الجديد ، وهو حاليا :سانتا ماريا دي الاركوس ، علي ٧٧ سبعة ، مراحل غرب "شيوادريال" (المدينة الملكية) . انظر زيولد ، جغرافية موقع كل من الرلافة (Sacralias - ١٠٨٦ والاركوس - ١١٩٥ ، المجلة الأسبانية ، الجزء ١٥ ، ١٩٠٦ ، ص ٦٤٩ ، ٦٥١ ،

وعند رؤية العدو ومعداته ، جمع يعقوب عساكره وأمر وزيره أبا يحيى بن أبي محمد بن ابن أبي حفص ان يوجه اليهم باسمه خطبه زهدية بمناسبة الجهاد وتم ذلك التحريض على الجهاد فى ليلة المعركة ، وطلب الأمير أمام الرجال الرحمة من الله ، ودعاهم الى الاستغفار ، والمسامحة من بعضهم البعض ، والتضحية بأرواحهم فى سبيل الله . وبلغ تأثر الرجال الى حد انخراطهم فى البكاء (١) وطلبوا بدورهم السماح من الأمير . ثم انشأ القاضى ابو على بن حجاج حظية الجهاد ، معظم جهاد عدو الله (٢) . وبعد أن تسلح الرجال معنوا ، صدر اليهم الأمر بالاستعداد للقتال فى ساعة مبكرة من الصباح .

وفى يوم المعركة ، الأربعاء ٩ شعبان (١٩ يولييه ١١٩٥ م) (٣) ، انزل المسلمون مهماتهم الثقيلة فى المعسكرات ، وتحركوا متقدمين نحو مراكزهم الاستراتيجية المختارة من قبل ، كل فرقة فى مكانها المخصص . والظاهر ان يعقوب لم يكن يعرف فكرة واضحة عن خطة المعركة . فقد قبل الأندلسيين من بين مستشاريه ، وكان يستمع لهم بانتباه على أساس أنهم أعلم منه بفن قتال النصارى . فأحد الأندلسيين هو الذى تذكر الخطة الاستراتيجية التى استخدمها ابن تاشفين سابقا فى انتصار الزلاقة (٤) ، فنصح الأمير بالابتعاد قليلا عن ميدان المعركة ومعه الموحدون ، فلا يظهر إلا فى اللحظة الحاسمة (٥)

(١) نفس الهامش السابق .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ص ٧٠ ، ابن الخطيب ، رقم الخلل ، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧١ ، الحميرى ، الروض المعمار ، ص ١١٣ والترجمة ١٨ ، الفرطاس ، ص ١٤٨ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٧ ، ابن الأثير ، ج ٣ ص ٧٤ ، المقرئ ، ج ٢ ص ١١٨٩ ، ابن أبى دینار ، ص ١١٦ ، أول موسوعة تاريخية (Prime Cronica General) ج ١ ص ١٨١ (١٥ يولييه ١١٩٥) .

(٤) خطة الزلاقة تلخصت فى تقسيم القوات الإسلامية الى قسمين : أهل الأندلس ، وأهل اللناام المغاربة ، والأول على رأسهم ابن عباد كان عليها إطالة الصراع مع العدو حتى انتهاكه والسماح للآخرين (المرابطين) وعلى رأسهم ابن تاشفين بمداومة العدو والقضاء عليه . انظر عبد الواحد ، المعجب ، ص ٩٤٠٩٣ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ ، الحميرى ، الروض المعمار ، ص ٩٢ ، الفرطاس ، ص ٩٥ ، الخلل ، ص ٤٤ ، المقرئ ، ج ٢ ص ١٨١ . وانظر دوزى ، المسلمون فى اسبانيا ، ج ٣ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ، وانظر للمؤلف ، تاريخ المغرب العربى ، ج ٤ ص ٣٠٢ وما بعدها .

(٥) الفرطاس ص ١٤٧ .

. وهكذا كان علي يعقوب ان يقف في مركز قيادته خلف الجماهرة الكبرى من الجيش ، ومعه القوات الموحدية الخالصة ، والحرس الخاص من العبيد السود . وكان للوزير أبي يحيى القيادة العامة ، وهكذا أعطاه الأمير رأيته الخاصة (١) . وكان القواد التالون لأبي يحيى هم ابن صناديد قائد القوات الأندلسية ، وجنون بن رياح قائد الوحدات العربية ، ومزيب المغراوي لقيادة مغراوة ، ومحيو بن أبي بكر لمديونة ، والتجيني لهسكورة ومصمودة ، ومحمد بن نواقد لغمارة ثم الحاج أبو حرز لقيادة المتطوعة (٢) . وحسب الخطة كان الغزورمة السهام يكونون المقدمة ، والأندلسيون الجناح الأيمن ، وزناته والعرب وغيرهم من قبائل المغرب الجناح الأيسر ، وكان الوزير القائد أبو يحيى وقبيلته القوية يحتلون مركز القلب في الوسط (٣) .

ومن الجانب الآخر كان لدى ملك قشتالة جيش لا يعد ولا يحصى (٤) . وكان على الفرنسيين الذي يأتون الى اسبانيا بحثا عن المال أن يخدموا في صفوف أبناء دينهم ، كما جرت العادة ، فكان منهم من شارك في المعركة . هذا ، وكان الجيش المسيحي يحوى فوق ذلك جماعات من المنظمات المسيحية الجديدة، مثل : راخوان كلاترافا ( Calatrava ) ، والقديس جاك دي كومبوستل ( سانتياجو ) ، والكانتار ( Alcantare ) والمارتيزا ( Martesa ) ، منظمة سان جوليان المكونة على نسق غيرها من النظم الدينية في الأراضي مقدسة ، مثل اخوان المعبد التامبلية ( Templiers ) والهوسيتبالية ، وكانت هذه النظم الجديدة تكون الجزء الأكبر من الخيالة (٥) . ومن حسن الحظ أن

( ١ ) القرطاس . ص ١٥٠ - وكانت راية بيضاء ، يقرأ فيها " لا إله إلا الله محمد رسول الله لا غالب الا الله "

( ٢ ) القرطاس ، ص ١٤٨ .

( ٣ ) القرطاس ، ص ١٤٩ .

( ٤ ) القرطاس ، ١٤٩ ( ابن أبي دينار ، ص ١١٠ ) - حيث النص على أن جيش الفونس كان يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ رجل من الحياة والمشاة (الرجالة) .

( ٥ ) قارن اسبانيا المقدسة ( Espana Sagrada ) ، ج ٣٥ ، ص ١٣٩ ، ٣٣٩ ، القرطاس ، الترجمة ١٣٧

موقف الجيش المسيحي كان قد رتب فوق أكمة ، كموقع استراتيجي يشرف على جميع السهول المحيطة (١) .

وعند وقف المحاربون المسلمون في مواقعهم الخاصة بالقتال كان رؤساؤهم يمشون بين الصفوف لتحريضهم على القتال (٢) . وأعلن يعقوب أن كل من أخذ غنيمة من العدو فهي له ، إلا السلاح (٣) . الذي ينبغي أن يسلم الى بيت المال (٤) ، وكان ذلك يعنى خروجاً على القاعدة القانونية ، الخاصة بتوزيع المغنم ، ولكن هذا ما اقتضاه الموقف الحرج في ميدان القتال .

وعندما أعطى يعقوب إشارة الهجوم ، هاجمت خيالة المسلمين العدو ، وأزاحته عن مواضعه ، وأثارت الاضطراب في صفوفه (٥) . ورغم ذلك لم يفقد المسيحيون هدوءهم . فقد رأوا القائد العام للقوات الاسلامية ، الوزير أبا يحيى تحت الرايات الخلافية ، واعتقدوا أنه الأمير الموحدى ، وقامت إحدى فرقهم بهجوم عنيف على الموقع الذى يحتله ، مخترقين صفوف المسلمين (٦) . وبعد قتال بطولى استشهد أبو يحيى فى الملحمة (٧) . ومع ذلك فقد ظل الطرفان يتقاتلان بعناد شديد . ولم يكن أحدهما متأكداً من نتيحة المعركة فى بداية القتال ، ولكن ظهور يعقوب وعساكره من الموحدين فى الوقت المناسب ، تغير الموقف فبعد ان كان ميزان المعركة يميل ضدهم انقلب الحال ضد المسيحيين (٨) .

(١) القرطاس ، ص ١٤٨ .

(٢) القرطاس ، ص ١٤٩ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٧٥ .

(٤) ابن حنكان ، ج ٣ ص ٢٧٧ .

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) ويفتد مؤلف القرطاس هذه الفرقة عقدة ) بما يتراوح ٧ آلاف أو ٨ آلاف فارس .

(٧) القرطاس ٩ ص ١٤٩ ، القرى ج ٢ ص ١٨٩ ، عبد الواحد ، المعجب . ص ٢٠٥ ، ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٧٤ ، وسمى

حلف ابن يحيى بنى الشهيد ، انظر ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٤٥ ، والترجمة ج ٢ ص ٢١٢ .

(٨) وهكذا قالت بعض الحكايات أن هذا النصر اتى على سبيل الصدفة . فالتصاري بعد ان ستوى على عدد من الرايات

الموحدية ساروا بها مرفوعة فوق رؤسهم وسط ميدان القتال ، وطلعت بعض القبائل الموحديه ان الرايات الموحدية تتقدم

لمهاجمة النصارى فاندفعت هى الأخرى نحو العدو ( الحميرى ، الروى المعطار ، النص . ص ١٣ والترجمة ص ١٨ -

(١٩) .



مع ظلام الليل (١). وكانت هزيمتهم تامة ، فقد هرب الفونس مع عدد قليل من اتباعه (٢). تاركين الجزء الأكبر من جيشه في ميدان المعركة (٣) وفي التو واللحظة نهب عسكر العدو (٤). أما عن عدد الأسرى فكان قليلاً ، حيث لم يكن من المعتاد أخذ الأسرى عند الموحدين ، فكل من كان يسقط بين أيديهم كان يقضى عليه بالسيف (٥). أما الغنمية فكانت عظيمة ، منها: آلاف من التروس ، ومجموعات من الزرد الكامل ، واعداد لا تحصى من الماشية ، وحيوانات الركوب (٦). ومن الناحية الأخرى فكل شيء يوحى بأن خسائر المسلمين كانت ثقيلة هي الأخرى (٧). هذه المعركة التي تقارن بالزلاقة كانت حاسمة بالنسبة للعلاقات بين دولة يعقوب "المنصور بفضل الله" الموحدي ومملكة قشتالة. فلقد ضعفت هيبة هذه الأخيرة بشكل واضح ولم يعد

(١) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٧ :

(٢) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٧ والمقرى (ج٢ ص ١١٩٠) يقولان أنه هرب في جماعة صغيرة من أعوانه ، بينما يقول ابن عذارى (مجهول ، ص ٧١) والحيمري (الروض المعطار ، ص ١٣) يقولان أنه هرب في مجموعة من ٢٠ (عشرين) محارباً ، وعبدالواحد يروي أنه هرب في مجموعة من ٣٠ (ثلاثين) مقاتلاً (المعجب ص ٢٠٥) وقارن السارخ الأول العام (بالاسبانية - ج١ ص ٦٨١).

(٣) حسب ابن عذارى ، مجهول ص ٧١ ، والحيمري (الروض المعطار ص ٧٣ والترجمة ص ١٨) ، ابن خلدون (العير ، ج٦ ص ٢٤٥ ، والترجمة ، ج٢ ص ١٨) - حيث ٣٠,٠٠٠ مسيحي استلحموا . وابن الأثير (ج١٢ ص ٧٥) يبلغ من غير شك عندما يقول أن عددهم (قتلى جيش الفونس) (١٤٦,٠٠٠) .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧١ ، والحيمري ، الروض المعطار ، ص ١٣

(٥) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٧ . وهنا تجدر الإشارة إلى أن المسيحيين عاملو الموحدين بالمثل ، ففي معركة العقاب (Las Navas de Tolosa) لم يؤسر موحدي واحد ، فقد بقى الجميع في أرض المعركة ، فقد نادى ملك قشتالة أن من يأخذ أسيراً يقتل ضرباً بالسلاح . القرطاس ، ص ١٥٩ .

(٦) ابن خلكان (ج٣ ص ٣٧٧) والمقرى (ج٢ ص ١٩٠) أن بيت المال جمع ٦٠ ألف ترس . ابن الأثير (ج١٢ ص ٧٥) يقدم لنا أرقاماً مرتفعة في نظره عن الخاتم الهائلة التي سقطت بين أيدي المسلمين : ١٤٣,٠٠٠ خيمة ، ٤٦,٠٠٠ حصان ، ١٠٠,٠٠٠ بعول ، ١٠٠,٠٠٠ حمار ، ٧٠,٠٠٠ ررد كامل

(٧) ابن الأثير (ج١٢ ص ٧٥) يقول أن خسارة المسلمين بلغت ٢٠,٠٠٠ قتيلاً ، ومع ذلك فإن عذارى (مجهول ص ٧١) والحيمري (الروض المعطار ، ص ١٣ والترجمة ص ١٨) يقدمون رقماً أقل بكثير ، ففي نظرهم لم يكن هناك إلا ٥٠٠ قتيل فقط .



الفونس قادراً بعد ذلك على منافسة المنصور .

ومع ذلك ، فلم يعرف المنصور استغلال انتصاره المدوى . فبقايا الجيش المسيحي المعتصمة بحصن الأرك لم تستسلم دون شروط للمسلمين . فاللاجئين الى الحصن وعددهم خمسة آلاف رجل انتهى أمرهم بالحصول على اتفاقية تقضى بتبادلهم مع عدد مماثل من الأسرى المسلمين (١) . وبطبيعة الحال لم يتم تحرير الأسرى في التو واللحظة ، فالأسرى المسلمون لم يكونوا من أسرى الأرك ، ولكنهم كانوا من الأسرى القدماء . وهكذا كان على المنصور ان يحتفظ ببعض من الأسرى كرهائن حتى يتم تنفيذ شروط الاتفاقية . وهؤلاء الرهائن رحلوا الى كل من اشبيلية والرباط (٢) . هذا ، كما ان المنصور امتنع من ناحية أخرى من الدخول أكثر في عمق قشتالة . ويتلخص تفسير ابن خلكان في ان كثرة المغامرات كانت السبب في ذلك ، وهو الأمر غير المقنع (٣) . فمن الواضح أن العاهل الموحدى إذا كان قد بقى في اشبيلية بعد المعركة فلأنه لم يكن متأكداً من قوته ، ولأنه كان يخشى مواجهة مغامرة جديدة قد لا يضمن نتائجها ، ونحن نلاحظ على الأقل ان المنصور كان مهتما بدفع قواته غير المنسجمة والمتعبة من حر القتال الصعب حتى لا تنظر الى الخلف

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ص ٧١ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ ، والترجمة ، ص ١٨ . فمن جانب كل من المسلمين والمسيحيين تم العمل على تخفيف آلام الحروب بفضل فئة الرجال من أصحاب النوايا الحسنة ، مثل رجال النظم الدينية من الجانب المسيحي ، وأهل الخير من الجانب الاسلامى مثل من اسمه محمد بن عبدالله بن سليمان (ت ٥٩٨ هـ - ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٨٦٣ ، الذى وهب نفسه لشراء حرية الأسرى . ونحن نمتلك أيضاً رسالة من البابا موجهة الى يعقوب يدعو فيها الى تقديم كل التسهيلات لرجال الدين في نظام جديد اسمه "الثلث المقدس" يعمل على شراء حرية الأسرى المسيحيين (دى ماس - لاثرى ، ص ٨ ، د. برونشموج ، بلاد البربر الشرقية ، على عهد الحفصيين ، ج ١ ص ٤٤٥) .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧١ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٣ .

وتتعدد ، وهكذا فعندما وصل الى اشبيلية يوم الثلاثاء ، ٢٧ شعبان ٥٩١ (٧ أغسطس ١١٩٥) ، سمح بتسريح المقاتلين مع الأمر بالبقاء على استعداد للحرب عندما يوجه اليهم أول نداء لحمل السلاح (١) . فلقد أمر الخليفة كاتبه أبا الفضل بن أبي طاهر (٢) . بارسال خطابات قصيرة ، تدعو الرعية في كل أرجاء الدولة بالسرور بأنباء انتصارات الدين الصحيح على الكافر (٣) . وقضى يعقوب المنصور الشتاء باشبيلية وهو مشغول بأعمال البناء ، من : إقامة القلاع المحصنة ، وأعمال الخير (٤) . فقد أمر ببناء قلعة على نهر اشبيلية الكبير (الوادي الكبير) . وعندما تم البناء أقيم حفل كبير ، تغنى فيه الشعراء بالانتصار الباهر في الأركوس (٥) .

### الحملة الثانية ،

وفي السنة التالية ، رفض يعقوب أن يعقد الهدنة لآلفونس ، وقرر ان ينقل ميدان القتال الى أرض قشتالة (٦) . واستشار خبراءه العسكريين عن أفضل حيلة لمهاجمة العدو في موضع القلب . ثم انه سار في اتجاه الشمال عند حلول فصل الربيع وتحسن الأحوال الجوية وذلك في يوم الجمعة ١٤ رجب ٥٩٢ هـ (١٤ يونيو ١١٩٦ م) وتقدمت العناصر الأندلسية عملية الزحف ووصلت الى قلعة انطاش الحصينة ، وضربوا حولها الحصار ، وبدأوا في مهاجمتها . ودافع المحاصرون في اليوم الأول ، ولكن عندما وصلت القطعة الكبرى من الجيش

(١) وفيات الأعيان ، ج ٣ ص ٣٧٧ .

(٢) أبو الفضل بن جعفر محمد بن تميم القيسي المعروف باسم ابن محشرة . انظر - ليفي - بروفنسال رسائل موحدية ، الدراسة ، ص ٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٩ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٣ .

(٥) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢١٣ ، المقرئ ، ج ٢ ص ١٠٧٩ ، وانظر فيما بعد ، ص ٢٥٠ .

(٦) رسائل موحدية ، ص ٢٣١ ، والدراسة ، ص ٦٦ .

الموحدى طلبوا الأمان على الشروط المعتادة ، من : ترك المكان والخروج الى بلادهم . وعندما أتتهم الموافقة استسلموا للمنصور ، الذي سأل عن الوسيلة الأفضل لتنفيذ الاتفاق ، وسير القائد ابا عبدالله بن صناديد في صحبة الأسرى ليضمن وصولهم الى أرض النصارى بأمان . ولكنه للأسف وقع حادث مزعج ، اذ انقضت جماعة من العرب غدرا على المسيحيين التعساء ، فقتلوهم حتى آخرهم ، واستولوا على نسائهم وأطفالهم (١) . واغتاظ المنصور لعمل العصابات هذا ، وخرق الاتفاقية غير المشرف ، وسار بنفسه لمعاقبة المستولين ، فقبض عليهم وألقاهم في السجن ، واستعاد النساء والأطفال المأسورين ، وأرسلهم الى بلادهم (٢) .

وبعد ذلك حاصر يعقوب مدينة تروجيللو ، عاصمة الثغر الشمالى . وعند وصول الموحدى هجر السكان المكان ولكن طوردوا من قبل المحاربين المسلمين فلم يتمكن من الإفلات إلا عدد قليل منهم (٣) . وكذلك كان الأمر بالنسبة لأهل شنتقروس ( Santa Crus ) الذين اضطروا الى الهرب ، وقع موضعهم بين أيدي الموحدى (٤) . وبعد ذلك عبر المنصور نهر التاجه وتقدم عبر بلاد النصارى حتى مدينة إبلتانسيا ( Plasoncia ) (٥) . لتى كان يدافع عنها جماعة من أهل الشمال . ولقد هرب أهل المدينة بينما اعتصم أهل الحامية

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ص ٧٤ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٣٢ والدراسة ، ص ٦٦ وابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٤ ، الحميرى الروض المعطار ، ص ١٣ والترجمة ١٨ ، ابن خلدون العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ ، والترجمة ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ٢٣٢ ، والدراسة ، ص ٦٦ .

(٥) رسائل موحدية ، ص ٢٣٣ ، والدراسة ، ص ٦٧ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ ، والتاريخ الأول العام (ج ١ ص ٦٨٢) وضع بشكل عشوائى أحداث الغزوة الثالثة ليعقوب .

بالقلعة واستولى الموحدون على الموقع ، ونهبوه ثم انهم أخذوا القلعة بعد ذلك عنوة ، وهنا حاول المحاصرون الالتجاء الى برج قوى البناء ، ولكن زخات السهام الموحدية التي سقطت عليهم منعتهم من الاستمرار في المقاومة إلا لليلة واحدة ثم إنهم أخذوا أسرى في اليوم التالي . وأرسل هؤلاء الأسرى الذين بلغ عددهم ١٥٠ (مائة وخمسين) رجلا الى المغرب للعمل في بناء المسجد الجامع بسلا ، وذلك جنبا إلى جنب مع أسرى الأركوس (الأرك) (١). ثم سار يعقوب بعد ذلك الى مدينة طلبيرة في منطقة طليطلة ، وخربها ، إغراقا في النار والدم (٢) . وبعد ذلك اتجه نحو طليطلة ، عاصمة قشتالة ، وهو يخرّب كل ما على طريقه . وعندما وصل الى المدينة عبر طرق غير متوقعة ، لشدة دهشة النصارى (٣) ، ضرب معسكره شمالها ووقعت المدينة وأرباضها ضحية لعمليات تخريبية منظمة (٤) ، حيث عهد الى كل قبيلة بالعمل في منطقة محددة (٥) . ولكن المدينة الحصينة قاومت المهاجمين ولم تسقط أبداً . وهكذا ، كان على المنصور ان يعبر نهر تاجه من جديد ، وهو يخرّب على طول الطريق ما كان يصادفه من القصور الريفية (النيات) الخاصة بالفونس (٦).

- 
- (١) الحميري ، الروض المعمار ، ص ١٣ ، الترجمة ص ١٨ (الاستقصا ، ج ١ ص ١٨٠) .  
(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٣٤ ، الدراسة ٦٧ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ والترجمة ، ج ٢ ص ٢١٤ ، وانظر التاريخ الاول العام (Prima Cronica General) ج ١ ص ٦٨٢ .  
(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٣٦ .  
(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٦ ، ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٧٧ ، ابن الاثير ، ج ١٢ ص ٧٥ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ابن خلدون ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٤ ، الحميري ، الروض المعمار ، ص ١٣ ، الترجمة ، ص ١٨ .  
(٥) رسائل موحدية ، ص ٢٣٦ ، ابن عذارى ، مجهول ص ٧٤ - ٧٥ .  
(٦) رسائل موحدية ، ص ٢٣٧ ، الدراسة ص ٦٧ . وتقول الخواريات الطليطلية (Las Anles Toledanes) انه بعد ان حرب طلبيرة ، سار المنصور الى سانت اولالا (Santa Olalla) وما كبد (Maqueda) وسكلار (Escaleras) قبل ان يصل امام طليطلة (انظر ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٦ ، والترجمة ، ص ٨٥ ولكن الرسالة الرسمية التي تعالج هذه الحملة لا تذكر تلك الاماكن .

ومن المهم الإشارة الى ان الضعف العابر الذي مرت به المسيحية الأيبيرية إزاء المنصور، يرجع فى معظمه الى عدم التآلف بين الملوك النصارى . فالممالك المسيحية لم تكن للتنفق فيما بينها ، كما ان هيمنة الملك القشتالى لم تكن تهديدا فقط بالنسبة للإسلام الأندلسى ، بل كانت كذلك خطراً على الممالك النصرانية لغيورة على استقلالها . ومنذ ١١٩١م (٥٨٧هـ) كان كل ملوك نافار ، وأراجون ، وليون ، والبرتغال يدافعون عن أنفسهم جند الفونسو الثامن القشتالى (١) . فملك ليون ، الذى كان مخلصا دائما لمعاهدة الهدنة مع الموحدين ، كان يتربص بفرصة يثار فيها من الملك القشتالى ، فكانت هزيمته فى الأركوس هى الفرصة المناسبة . وهكذا عامل أرض قشتالة معاملة أرض الأعداء . فقد تم صنع تحالف بين ملوك قشتالة وأراجون من أجل مقاومة يعقوب ، والثار من ملك ليون . وهكذا دخل الفونس الثامن القشتالى أراضى ليون وتمكن من أخذ عدد من القلاع . وعندئذ ألقى ملك ليون بنفسه بين ذراعى المنصور ، وتم تحالف هجومي غريب بينهما . فبينما كان المنصور يقوم بحملة سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) فى مملكة قشتالة ، كان ملك ليون (الفونس التاسع) ، تابعه ، يطلب منه طابوراً اسلامياً من أجل غزو قشتالة من ناحية . ولجى المنصور النداء ، وسار جيش موحدى تحت قيادة ملك ليون ليقوم بغارات تخريبية فى بلاد العدو المشترك (٢) .

وبعد أن أظهر المنصور هيمنته للمرة الثانية فى أرض قشتالة ، قرر العودة الى بلاد المسلمين ، وهو يستصحب معه أعداداً لا تحصى من الأسرى ،

(١) انظر ويثى (A Huice) ، حوليات المعهد العام والفقنى ببلنسية ، دراسة عن حملة لاناواس دى توبرا (لعقاب) ، ص ١ ، بدرو أجواد وبلي (Bleeye) ، التاريخ العام لاسبانيا (بالاسبانية) ، ج ١ ص ٢٤١

(٢) رسائل موحدة ، ص ٢٣٩ ، الدراسة ، ص ٦٧ ، وانظر التاريخ الأول العام (P.C.G) ، ج ١ ص ٦٨٢ .

والكثير من الماشية ، كما ترك آثار انتقامه فى كل مكان . وعندما كان الجيش الموحدى على بعد مرحلة من طليطلة وهو فى طريق العوده استولى على قلعة دار القاره (١) . بطربونه (Pidra Bunena) ، حيث كانت كثير من الحاميات النصرانية كثيرة العدد ، وكذلك بعض الجماعات الدينية العسكرية . وفى هذين المكانين اللذين تحولوا الى رباطين وضعت حاميات اسلامية (٢) . وفى طريق العوده الأخير ، عبر يعقوب بجيان ، وقرطبة ، وباجه ، وقرمونه ، لكى يصل الى اشبيلية فى شهر رمضان ٥٩٢ هـ (اغسطس ١١٩٦ م) (٣) .

### الحملة الثالثة:

وقضى الامير الشتاء مع جيوشه فى اشبيلية ، وكرّس جهده للأعمال الداخلية بالأندلس ، من : الإشراف الصارم على الدخل ، وانزال العقاب بالجباة المخطئين (٤) . وعند دخول فصل الربيع واعتدال الجو دعا رجاله الى حمل السلاح ، وترك اشبيلية يوم الاثنين ٢٤ جمادى ٥٩٣ هـ (١٤ ابريل ١١٩٧) لكى يشن الحرب على قشتالة (٥) . وبعد ان عبر الكرم اتجه نحو قرطبة . وكانت المحاصيل جيدة ، والمحاربون يعيشون عيشة سهلة . وفى قرطبة قسم المنصور جيوشه ، وتركها فى الأماكن الخصبة حتى تأخذ حاجتها من المواد الغذائية ، وكان عليها ان تنتظر فصل جنى المحاصيل فى بلاد النصرارى ، حيث كان عليها الذهاب لتخريب المزارع واكتساحها (٦) . وهكذا ، بعد أن

(١) رسائل موحدية ، ص ٢٣٩ والدراسة ، ص ٦٧ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٤٩ - ٢٤٠ .

(٣) الحميرى ، الروض المعمار ، ص ١٣ ، والترجمة ، ص ١٩ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ص ٧٧ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٧ .

(٦) نفس المصدر السابق .

حدد يعقوب معداته ، سار فى الطريق الى طلبيرة . وهنا أرسل اليه ملك قشتالة السفراء فى سبيل التفاوض من أجل الهدنة . وبعد ان ناقش الموضوع مع مستشاريه لم يستطع المنصور اعطاء رد موافق . ثم انه تقدم نحو طليطلة التى لم يستطيع الاستيلاء عليها ، فعوض نفسه عن ذلك بتخريب ضواحيها . وعندما علم العاهل الموحدى بعد ذلك بأن كونت برشلونه كان قد حضر لمعونة الفونس ملك قشتالة فى حصن مجريط (مدريد) ، سار للملاقاة هذا التحالف المناهض له ، ولكن عندما وصل المنصور الى الموضع حارب العدو منهزما ، وتحاشى محاولة الدخول فى معركة مع الموحدين (١) . وعند ذلك اتجه المنصور نحو الشرق ، وسار الى وادى الحجارة ، وهو يخرب بطريقة منظمة كل ما يصادفه على الطريق . وعندما وصل الموحدون اندفع بعضهم نحو المدينة التى كانت تعج بالمقاتلة ، وأمكن لهؤلاء الآخرين ان يقوموا بهجمة خارجية مفاجئة ، وهزيمة مقدمة الموحدين تلك . ولكن فى اليوم التالى ، وبعد ان استعد الموحدون جيذا للنزال ، ذهل النصارى ، ولم يجروا على القتال . وبعد ان تحرش الموحدون بهم عدة مرات بنجاح ، غادروا المكان (٢) . وصدرت عندئذ الرسائل الى أرجاء الامبراطورية تعلن الأنباء السعيدة عن الغارات .

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٧ ، ابن خلدون ، العمر ، ج ٦ ص ٢٤٥ ، والنسخة ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥ وفارن التاريخ الاول العام (P.C.G.) ، ج ١ ص ٦٨٢ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٨ ، ابن أبى دينار ص ١١٦



التي تمته في أراضي العدو (١).

وبعد ذلك قرر المنصور اتخاذ طريق العودة ، مروراً بوبذه ، وقونكه واقليش ثم الكرسي (٢). ووصل الى قرطبة يوم ٢٧ شعبان ٥٩٣ هـ (١٥ يولييه ١١٩٧ م) (٣). وبعد ان قضى عدة أيام خرج في أوائل شهر رمضان (نهاية يولييه) نحو اشبيلية حيث استقر في قلاعه المعروفة بحصن الفرج إلى نهاية الصيف . وخلال تلك الفترة اشتغل بالعمل في إنهاء جامع اشبيلية . كما اهتم بالأعمال الخيرية . ثم إنه رجع الى اشبيلية نفسها حيث قضى مدة أربعين يوماً . ومن الواضح ان الأعمال الجريئة التي قام بها المنصور في اسبانيا، كان من نتائجها الكسوف المؤقت حقيقة . لهيمنة القوات المسيحية في شبه الجزيرة ، وميلها نحو السلام . وهكذا ظهر وكأن عصر السيارات القشتالة والفتوحات والغارات ، والحماس والثقة بالنفس قد مرت بالنسبة للأقاليم المسيحية التي لم يعد أهلها يأملون في أكثر من الاحتفاظ بما بين أيديهم من البلاد . وهذا ما يفسر كيف أن ملك قشتالة طلب الهدنة من جديد . ولما رأى يعقوب أنه رغم تفوقه العسكري لا يستطيع القضاء على الفونس وحلفائه ، اكتفى بأن يوافق على هدنة لمدة عشر سنوات (٤).

وعمل يعقوب على تنظيم بلاد الأندلس وامتدادها بالختاميات القوية ، قبل ان يعود الى عاصمة الدولة . وحوالي منتصف شهر جمادى الأولى سنة ٥٩٤ (١٥ مارس ١١٩٨) ، غادر اشبيلية، وفي أول جمادى الثاني (١٠ ابريل) كان

(١) نفس المصدر السابق

(٢) نظر : التاريخ الأول العام (P.C.G) ، ج ١ ص ٥٨٢ والوثيقة ليست أكيدة عن هذه القطة ، إذ انها تعتبر ان هذه الاحداث تكون جزءا من الحملة الثانية.

(٣) ابن عذري ، مجهول ، ص ٧٨ - حيث ملاحظة ان شهر رمضان مقدم على شهر شعبان ، وهو الخطأ الذي يرجع الى الناسخ .

(٤) (ابن عذري ، مجهول ، ص ٧٨ ، عبد الواحد المعجب ، ص ٢٠٦ ، ابن حلكان ، ج ٣ ص ٣٧٧ ، ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٧٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ والترجمة ج ٢ ص ٢١٤ ، التاريخ الأول العام ، ج ١ ص ٦٨٢ .

يعبر المضيق . وعندما عبر فاس أقام بها عشرين يوما ، قبل ان يتابع سيره نحو مراكش (١) ، حيث يموت في مطلع سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) .

ومما يؤسف له أن تقويم الاسلام في الأندلس لم يكن إلاّ حدثاً عابراً عند وفاة يعقوب ، وذلك ان السيادة الضعيفة ظاهرياً لم يقدر لها ان تستمر طويلاً . فبعد أقل من ١٥ ( خمسة عشر ) سنة حقق المسيحيون الانتصار الحاسم في موقعة حصن العقاب ( Las Navas de Tolose ) سنة ١٢١٢م ( ٦٠٩هـ ) ، وهنا يكون كسوف الحكم الاسلامي في شبه الجزيرة اليبيرية .

والحقيقة ان المنصور لم يعرف استغلال الظروف التي كانت مناسبة بالنسبة له ، الامر الذي يعنى أنه ترك الأحداث تتحدد مساره أكثر مما حاول أن يطوعها لحساباته الخاصة . فتدخله في الأندلس لم يكن حاسماً . ففي البرتغال عندما استعاد شلب ، اكتفى بتحريب منطقة في شنترين دون ان يتمكن من حصار المدينة - التي كان غزوها أملاً عزيزاً على قلب والده حتى أنه دفع حياته ثمناً لذلك . فهو لم يتمكن من استغلال الخلاف بين قشتالة ، ونافار ، وليون حينما كان الفونس واقفا وحده أمامه ، فنزلت به الهزيمة الأليمة ، وبذلك وجد نفسه عاجزاً عن حل المشكلة الأندلسية بشكل حاسم . فطليطلة ظلت تقاوم دائماً ، والفونس الرهيب رغم ذلته لفترة ما ، فإنه ظل يتربص فرصة الانتقام . وهكذا فإذا كان حلّ الوسط الذي تمت به معاهدات الهدنة مع المموك المسيحيين بشبه الجزيرة ، مناسبة للموحددين في ذلك الوقت ، فإنه كان يؤدي الى القضاء على سياستهم فيما بعد سنوات قليلة . فرد فعل البابوية على عهد انوسنت الثالث بصفة خاصة حيث كان يعتبر ان تحالف ملك ليون مع الموحددين يعتبر نوعاً من الإهانة للذات المسيحية ، بدأ يؤتى ثماره . ففي سنة ٦٠٩هـ ( ١٢١٢م ) لن يلقي محمد ال ناصر بن يعقوب المنصور الفونس

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٨

وحده وجهها لوجه ، بل سيجد نفسه أمام صليبية حقيقية كاملة.

### بنو غانية في افريقية:

ان افريقية التي كانت قد عرفت بالأمس القريب الغزوة الهلالية والغارات النورمندية العديدة من قبل صقلية ، ستصبح ضحية لتجربة من أصعب التجارب التي عرفت على مر الزمن : إنها غارة بنى غانية المثلثين ، أصحاب ميورقة والحقيقة أن افريقية لم تكن ميدانا خصباً للصراع بين المسيحية والاسلام ، بل أيضا بين المذاهب الاسلامية المختلفة . فبعد طرد الصقليين من البلاد ، وتحرير المواقع الاستراتيجية من وصايتهم ، وتجريد ملوك الطوائف من قوتهم ، كان من المتوقع ان تسود فترة من الأمن والنماء . ولكنه مما يؤسف له ان سارت الأمور في مسار معاكس . فإذا كان المسيحيون في ايطاليا قد بحثوا عن إقامة السلام مع الموحدين. (١)، فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبنى غانية - فرع من المرابطين الميورقيين - الذين لم يخضعوا أبدا للموحدين .

ولكنه قبل التعرض للأعمال العسكرية التي قام بها الميورقيون بافريقية ، يجب القيام بعرض سريع عن سياسة الموحدين إزاء جزر البليار .

### السمات العامة للإمارة الميورقية على عهد بنى غانية:

كان الموحدون قد استولوا على ممتلكات المرابطين في المغرب وفي الأندلس ، ولكن جزر ميورقة ( المعروفة حاليا بالبليار ) التي تحكمها أسرة بنى غانية من أمراء المرابطين صمدت في وجههم (٢). هذه الجزر تقع تقريبا في الطرف الغربي لحوض المتوسط ، وتحيط بها من الشمال ولاية البروفانس الفرنسية ،

(١) (اس الأثير، ج ١١، ص ٣٠٩ - حيث تم سنة ٥٧٥ (١١٧٩ - ١١٨) أنى معوث من ملوك صقلية لربارة الأمير يوسف بالهدية من أجل عقد معاهدة سلام لعشر سنوات ، انظر عهد الواحد ، المعجب ، ص ١٨٢ والترجمة ، ص ٢١٨ .

(٢) ١. بل ، بنو غانية (بالفرنسية) ، ص ١٧ وما بعدها .

والساحل الاسباني من الغرب ، والمغرب الأوسط من الجنوب ، وجزيرتي سردينيا وتورسيكا والساحل الايطالي من الشرق ، كانت تتكون من ٤ (أربع) جزر ، هي : الجزيرة الأم ميورقة (الكبيرة) ، والثلاث الأخرى ، هن : مينورقة (الصغيرة) ، وإفيسا ، وفورمنتيرا (١) . هذه الظواهر الجغرافية ، والتي لها هنا وهناك تأثيراتها على التاريخ السياسي ، ولم تكن تخفى ، كما سوف نرى ، فى ان يكون لها تأثيراتها على الاخلاقيات الاجتماعية . إذ لما كانت الإمارة الجديدة محاطة بالبحر من كل مكان ، فإنها أصبحت قوة بحرية بطبيعة الحال . . ولما كانت محاطة بعدد من الدول الأعداء - مسيحية وإسلامية - كان من الطبيعى ان يظل الميورقيون دائما فى حالة تأهب ، والسلاح فى أيديهم ، وهكذا لم يكن من الغريب ان ترى الدولة الجديدة تتحول من الدفاع الى الهجوم حسبما تسمح به إمكانياتها ، ونقل نشاطها الى ما وراء البحر ضد السواحل المجاورة ، وهو الأمر الذى يبين كيف أصبحت القرصنة صناعة وطنية لدى بنى غانية . ولما كانوا يمارسونها كما الجهاد ، نجحوا فى توسيع مجال نشاطهم البحرى ، لكى يشمل البلاد المسيحية التى أصبحت هدفا لغاراتهم . وهكذا ، زاد ابو ابراهيم اسحق بن محمد ، امير البليار على عهد يوسف فى قوته عن طريق استقبال اتباع كثيرين من لمتونة الى جانبه ، وكرس جهده للجهاد ، فكانت له فى كل سنة غزوتان ، يعود منها بالمغانم والأسرى ، بعد ان ينزل بالعدو الخسائر العظيمة الى حد أنه اتخذ لقب الملك . وهكذا ، وفى احدى غزواته تلك ضد البلاد المسيحية لقي حتفه "شهيدا" فى سنة ٥٧٩هـ (١١٨٤-١١٨٥) (٢) .

(١) (أمارى ، وثائق هربية ، النص ، ص ٢٣٢ .

(٢) (عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٥ - حيث القراءة أيضا ، د. فرسيسكو كوديرا ، اضمحلال . ونهاية المرابطين فى اسبانيا (بالاسبانية ، ص ١٧٦ - ١٧٧) عن مصادر مسيحية انه توجد معلومات عن عارئين للقرصنة قام بهما أبو اسحق حوالى الأيام الاخيرة من عمره ، والتي تبين شدته وشجاعته فى ١١٧٨ (٥٧٥هـ) تاريخ هاتين الغارتين ، ان احدهما =

## علاقات بنى غانية الميورقيين بالموحدين عند ولاية يعقوب:

حوالى نهاية عهد أبى يعقوب يوسف ، كان وضع الموحدين وكذلك وضع بنى غانية مناسباً لاقامة نوع من الاتفاق « للتعايش السلمى » وإلا كيف يفسر موقف يوسف الذى لم يحاول غزو جزر البليار ، ذات الموقع الاستراتيجى ذى القيمة العسكرية الفائقة ، وطرد آخر « الزنادقة » ، إذا لم نقل « الكفار » من لمثونه ، الاعداء العنيدون للموحدين ، وضم أراض جديدة الدعوة الطيبة . ومن ناحية أخرى كيف يمكن تفسير ما قد قام به ابو ابراهيم اسحق ، أمير ميورقة من الحفاظ على العلاقات الحميمة مع يوسف ، وارسال جزء مما كان يحصل عليه من المغام والأسرى المسيحيين اليه كهدية (١) .

فعن التساؤل الأول يشرح لنا عبد الواحد تصرف الموحدين السلمى باحتقارهم لقيمة تلك الجزر ولكن هذا التعليل لا يظهر مرضياً ، إذ يجب حسابان إرهاب الموحدين فى الصراع الدائب الذى كانوا يقومون به على طول دولتهم وعرضها ، من : تهدة افريقية ، واخضاع ثوار غمارة ، وانهاء ضم بلاد الأندلس . والى جانب ذلك ينبغى قبول ان قوتهم البحرية ، مهما كانت فى ذلك الوقت ، لم تكن كافية للقيام بعمليات عسكرية مهمة ضد البليار ، ولو حدث ذلك لاختل التوازن العسكرى فى مواضع أخرى . أما عن التساؤل الثانى ، ربما كان بنو غانية لا يرغبون من جانبهم ، فى الاستمرار فى صراع حتى النهاية ، قد لا تعرف مغيبته والحقيقة ان عدم التوازن بين القوتين ، من حيث تفوق الموحدين ، كان يملئ علي الميورقيين الركون الى السلم . وهكذا

---

١ - كانت فى جنوب فرنسا ، والأخرى على ساحل كتالونيا : والأولى كان يقودها الأمير نفسه ، والثانية رجل مجهول . . . وفى سنة ٥٧٤ هـ ( ١١٧٨ ) هاجم ابن غانية مدينة طولون وأخذ كثيراً من الأسرى الذى أرسلوا الى ميورقة ، وكان من بينهم هوج جودفروا ( Hugues Gaudefroy ) فيكونت ( ريلس / مرسيليا وابن أخيه . . . وفى نفس السنة ( ٢٧ برية ) ، هاجم لميورقيون كنيسة سانت ماريا فى أول ( Santa Mana de Ulla ) وهى حالياً فى ولاية السبرون ( Seron ) حيث قتل بعض رجال الدين وأخذ غيرهم أسرى الى ميورقة .

(١) قارن عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ ، والفرجة ، ص ٢٢٣ .

فهم لم يرغبوا في أكثر من الاحتفاظ ببقاء جزر ميورقة بين أيديهم . ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان اسحق يقبل بسماحة تقديم الأسرى والهدايا من مغنم "الروم" الى يعقوب .

وهكذا يمكن اختصار الموقف في الآتي : إذا كان بنو غانية والموحدين مختلفين على المستوى المذهبي ، فإنهم كانوا مستعدين لمهاجمة النصاري كجبهة واحدة باسم الدين .

### **بنو غانية يغيرون رأيهم والقطيعة النهائية:**

إذا كانت التقارب الأولى بين يوسف وأبى ابراهيم اسحق لم تؤد الى تسوية العلاقات بين الميورقيين والموحدين<sup>(١)</sup> . فإن الموقف عند وفاة اسحق لم يكن ميسوسا منه بحال من الأحوال . وذلك ان محمد بن اسحق ، وخليفته في الامارة ، وافق علي الخضوع كتابع ليوسف<sup>(٢)</sup> . فلقد ارسل له هذا الأخير من يسمى بأبى الحسن علي بن البربرتي كمفوض لمراقبة حكومة الجزر . ولكن الانقلاب على محمد من جانب الساخطين من اتباعه على هذا العمل ، إلى جانب وفاة يوسف شهيداً أمام شنترين ، كل ذلك جعل التفاهم أمراً مشكوكاً فيه ، وبذلك تمت القطيعة .

والحقيقة ان علي بن اسحق الذي حل محل أخيه محمد ، وجه النشاط البحري الجهادي ، ليس ضد المسيحيين ، بل ضد "الكفار" الآخر، من الموحدين وأتباعهم في المغرب . فبعد أن استولى على المراكب التي كان يقودها ابن البربرتي<sup>(٣)</sup> . بدأ على الاستعداد لضرب الدولة الموحدية في موضع

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٩ الترجمة ، ج ٢ ص ٨٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٨ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ٤٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٩ .

القلب . وهكذا ، سارت حوالى عشرين سفينة (١) ، حسنة التجهيز ، مليئة بالرجال ، والحيل ، والمؤن والذخائر وذلك بمساعدة من يسمى رشيد ، وهو مولى الأمير علي (٢) ، واتجهت نحو بجاية حيث رست فى شهر صفر ٥٨١ هـ (مايه ١١٨٥ م) (٣). وانتقل علي الى العمل مباشرة فارسل بعض رجاله فى قارب اقترب من الأسوار واتصل بعملائه فى المدينة (٤) . وبعد التعرف على نقاط الضعف فى التحصينات ، وضعف الحامية ، أعطى الإشارة بالهجوم ، وذلك وقت صلاة الجمعة ، بينما كان أهل المدينة داخل المسجد الجامع ، محشورين ، وهكذا أخذت بجاية فجأة دون جهد ، يوم ١٩ صفر ٥٨١ (٢٨ مايه ١١٨٥) (٥). وهكذا ساعدت الظروف بشكل جلى علي بن غانية ، وخاصة بسبب غياب الوالى الموحدى ، السيد أبو الربيع ، حفيد عبدالمؤمن ، الذى كان قد سار الى مراكش قبل ذلك بعدة أيام (٦) ، كذلك بفضل خيانة أهل المدينة من الحماديين (٧) ، وبفضل عملائه فى الموضع ، فحقق بذلك نجاحاً رائعاً فى أولى خطوات مشروعه .

• وعندما علم أبو الربيع بنجاح مؤامرة الميورقيين اتجه نحو بجاية لإنقاذ المدينة .

(١) ابن الأثير، ج ١ ص ٣٣٤ . وهو يسجل بدقة أن القوة الميورقية تكوت من ٢٠ سفينة ، و ٢٠٠٠ (مائتى) فارس ، ٤٠٠٠ (اربعة آلاف) من الرجال ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٠ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٨٨ - وهو يقدم لنا عدة ٣٢ (اثنين وثلاثين) سفينة ميورقية (الزركشى ، ص ١١ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، رسائل موحدية ، النص ، ص ١٧٨ ، والدراسة ، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٨٩ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٨٩ . ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٣٤ ، الاستبصار والاحيران يضعان هذا الحادث فى سنة ٥٨١ (١١٨٤) . ومع ذلك فهناك رساله رسميه تتعلق باستعادة بجاية على ايدى الموحدين مؤرخه ٥ ربيع الثانى ٥٨١ (٦ بوليه ١١٨٤) ترجع الشارح الذى يسجله ابن عذارى ، رسائل موحدية ، النص ص ١٦٨ وما بعده ، الدراسة ، ص ٥٨ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٥ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، ان . ا . بل (A Bel) (ص ٤٣) لدى باحد برواية ابن الأثير ، يصنع هذا الحدث فى ٦ شعبان ٥٨٠ (١٣ نوفمبر ١١٨٤) ، ح مارسيسه ، العرب فى بلاد البربر ، ص ١٩٠ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، القرطاس ، ص ١٧٩ (٦ شعبان ٥٨٠ - ١٢ نوفمبر ١١٨٤) .

(٦) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٣٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٠ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ (الزركشى ، ص ١١ .

(٧) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٣٤ .



، ولكن رد فعل علي لم يتأخر . فلقد تقدم نحو ابي الربيع والتقى به قرب  
الموضع المعروف باليميلول . وهنا ظهرت قيمة المحاربين الميورقيين من حيث هم  
قراصنة شجعان ، الى جانب خيانة العرب في جيش ابي الربيع (١) ، لتفسر  
هزيمة هذا الأخير ، الذي لجأ بعد الهزيمة الى الجزائر ، ولكنه لما وجد تلك  
المدينة غير محصنة بما فيه الكفاية ، اتجه بنفسه صوب تلمسان (٢) . واستولى  
علي على أمواله وممتلكاته وأطفاله الذي أرسلهم الى بجاية ، حيث مقر قيادته  
، ولم يكن السيد السيد أبو موسى بن عبد المؤمن ، والي افريقيا السابق ،  
بأكثر حظ منه . فلقد خرج اليائس من أسر العرب لكي يقع بين أيدي  
الميورقيين (٣) . ووجد علي الطريق مفتوحا أمامه فسار إلى الجزائر التي أخذها  
دون صعوبة . ثم انه استولى علي ملبانته ، وأشير ، والقلعة (٤) . وبعد هذه  
الانتصارات المسلسلة والفتوحات ، عاد الى بجاية . ولأن عذارى الحق في ان  
يقول ان علي بن غانية لما وجد ان هذا الفتح يتعدى ما كان يأمل فيه ، رجع  
الى بجاية (٥) ومهما يكن من أمر فقد بدأ علي بتنظيم البلاد الخاضعة له ،  
ففي بجاية عين أخاه يحيى كوال للمدينة ، يعاونه مولاه رشيد (٦) . وعين  
يحيى نجل أخيه طلحة على رأس ادارة مدينة الجزائر ، أما ملبانته فقد آلت  
ولايتها الي بدر بن عائشة (٧) .

### الاعتراف بالخلافة العباسية في بغداد:

وعندما شعر علي أن عمله تنقصه الشرعية ، اتجه منذ البداية الى الخلافة

(١) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٣٣٤ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ١٦ ، ص ١٩٠ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٤) رسائل موحدية رسمية ، النص ص ١٧٣ ، الدراسة ، ص ٢٠٨ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ، ص ١٩١ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٧) ابن عذارى ، نفسه .

العباسية في بغداد . فباسمها قاد الصراع (١) وتحت رآياتها حشد الأتباع والأعوان . وهكذا رفع الراية السوداء في المسجد الجامع في بجاية (٢) ، وفي نفس الجامع أخذ يمين الولاء والطاعة ( البيعه ) ، وكان من بين المبايعين رؤوس قبائل البربر والعرب الذين أخذوا من مستودعات بجاية الهدايا الثمينة ، من: الملابس والنقود والسلاح (٣) وعندما اعتبر نفسه أميراً شرعياً ، نظم البلاد المفتوحة فأنشأ بها الإدارات السياسية والتراتب الادارية . فاتخذ كاتباً هو الشاعر الشهير عبد البر بن فرسان الذي كان يكتب باسمه الخطابات الرسمية المستملة على أوامره لأهل المدن المفتوحة (٤) . وعلى عهد يحيى بن غانية ، في وقت كان الميورقيون متأكدين من سيادتهم على افريقية ، رفعوا وظيفة الكتابة الى مرتبة الوزارة عند لقب الوزير لعبد البر بن فرسان (٥) .

### أول مقاومة ورث الفعل عند الموحدين؛

وهكذا عندما وعى علي بما أصبح عليه من القوة استأنف النضال . فاتجه نحو قسنطينة ، وضرب عليها الحصار ، ولكن دون جدوى (٦) . وعن هذه المسألة تقول لنا رسالة رسمية موحدية أن أهل المدينة الراغبين في البقاء محلصين للأمر الموحدى ، أفسدوا عليه عمله ، ألحقوا به خسائر ملموسة في كل مرة خرجوا فيها لقتاله (٧) وهكذا انكسرت آلة الحرب الميورقية لأول مرة في بلاد المغرب . ومن ناحية أخرى ، فعندما علم المصور بهذه الأحداث ، لم

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) النجاشي والترجمة ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٥) انظر المقرئ ، ج ٢ ص ٩٣٥ .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ . والمؤلف يذكر أنه عندما شوهدت راية علي لم يكن لأهل المدينة ثقة لافى شرعية أمره ولا فى مستقبل دولته .

(٧) رسائل موحدية ، ص ١٧٣ ، والدراسة ، ص ٥٨ .

يتأخر في الرد عليها (١) وذلك بتقديم المعونة إلى رعاياه من ضحايا ابن غانية فتأعد العدة للقيام بحملة ضده ، من : حشد الكتائب ، وتعبئة المقتلة ، والخدمة العسكرية لجميع المتطوعين وزيادة الاعطيات (البركات) والرواتب وعين رئيسا لهذه الحملة العسكرية السيد : أبو زيد بن أبي حفص ، الحاكم العام للمغرب الأوسط (٢). وكذلك جهزت حملة بحرية لكي تعاون القوات البرية ، وبدأ العاهل المغربي بإرسال الطلبة للاشراف ، وإمداد الاسطول بالمعدات ، على أن يكون تصرفهم في أسرع وقت (٣) . وكان على رأس الأسطول أبو محمد بن أبي اسحق بن جامع ، كرئيس أعلى ، ويعاونه أبو محمد بن عَطْوُش الكومي وأبو العباس أحمد الصقلي . ومن القاعدة البحرية في سبتة خرج الأسطول بعد رسم خطة حربية تهدف الى تحقيق التعاون الوثيق بين الأسطول والجيش (٤) . ومع ذلك فإن الجيش المحتشد في فاس - قاعدة الحملات المتجهة الى السودان والى المشرق (٥) . استحال عليه الحركة بسبب الأحوال الجوية المضطربة ، من : الأمطار ، والأرض الطينية (٦) . وعندما تحسنت الأحوال الجوية اتجه أبو زيد نحو تلمسان حيث كان قد تحصن كل من الوالي : السيد أبو الحسن بن أبي حفص ، والوالي السابق لبجاية وهو السيد أبو الربيع (٨) . وفي تلمسان أخذ الجيش حاجته من الميرة ، كما أصلح

(١) رسائل موحدية ، النص ، ص ١٧٣ - الدراسة ، ص ٥٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩١ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٨٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ .

(٤) رسائل موحدية ، النص ، ص ١٧٣ - ٣٧٤ ، الدراسة ، ص ٥٣ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ ، رسائل موحدية ، ص ١٧٤ ، ١٧٦ ، وقارن ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩١ .

(٦) الامتنع ، والترجمة ، ص ١٢٤ .

(٧) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ .

(٨) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٥ .

من شأن أخصاله وآلاته (١) . وهناك تم اجتماع بين الطلبة قواد الأسطول ، وبين قواد الجيش . وتم الاتفاق على أن يكون لقاءهم بعد ذلك في الجزائر (٢) . وعندما تم لقاء الأعداء وجها لوجه ، وقبل ان تبدأ القوات الموحدية العمل . استخدم القائد الموحدي نفس الأساليب التي يستعملها ابن غانية . فقد أنشأ خدمة للحاسوسية أمكنه عن طريقها إعطاء الأمان الى الشعوب الخاضعة لسلطة بنى غانية . وهكذا فبفضل المخابرات الموحدية فى مليانة ، قام أهل المدينة بلفظ سلطة ابن غانية عند اقتراب الموحدين ، مع إعلان الخضوع للموحدين هذا كما القوا ، بأنفسهم على "الزبادة" الذين كانوا فى رأس السلطة ، وقتلوه أو سلموهم أحياء للموحدين (٣) . وكذلك كان الأمر بالنسبة لبدر ابن عائشة ، والوالى الميورقي للمدينة ، فقد لجأ أثناء الليل الى قلعة أم العلو ، فتبعه الناس ، وبعد أن عرضوا عليه الخضوع ، أخذوه بعد قتال استمر طوال النهار . وكذلك أخذت الجزائر فى نفس الوقت بمعرفة البحرية الموحدية . وعندما أتى الأسطول الى ذلك الميناء قبل القوات البرية ، فتح له الأهالى أبواب المدينة ، وقبضوا على ممثلى ابن غانية . وكذلك كان الأمر بالنسبة ليحيى بن طححة ، بن أخى علي الذى سلم للموحدين . وهكذا قتيلا رؤساء الثوار الميورقيين فى كل من مليانة والجزائر وهم مصمدون بالسلاسل نحو العاصمة ، بينما كانت تسمع أصوات لطبول معلنة أخذ المدينتين فى نفس اليوم (٤) .

### استرداد بجاية :

إن الخطة التى رسمها رؤساء الأسطول وقواد الجيش فى تلمسان من أجل التنسيق بين جهودهم كان عليها أن تخضع لبعض التغييرات بعد أن تحول

فصل -

(٢) رسائل موحدية ، النص ص ١٧٦ ، والدراسة ، ص ٥٨

(٣) رسائل موحدية ، النص ص ١٧٥ ، الدراسة ، ص ٥٨ ، ابن عذرى ، مجهول ، ص ٤٥

(٤) ابن عذرى ، مجهول ، ص ٤٥

مسار الأحداث شيئاً ما . فلقد علم الموحدون في الجزائر ان الميورقيين في بجاية قد قرروا ان يبعثوا ممثلي المرشحين القدامى في تلك المدينة الى ميورقة كرهائن ، وكان على أسطولهم ان يتصرف دون تأخير حتى يفسد هذا المشروع (١) . وكان الأخوان لعلي ، وهما : يحيى وعبدالله ، واللذان كانا وقتئذ في بجاية (٢) . قد أمرا بعمل اللارم نحو مواجهة حصار محتمل ، فقاما بضرب معسكرهما خارج بجاية ، ورتبا مواضع للرصد في نهايات الطرف التي تؤدي الى المدينة (٣) . وعند اقتراب الأسطول ، خرج السكان عن طاعة الميورقيين وفتحوا أبواب المدينة أمام العمائر الموحدية . ومع ذلك فقد وقع قتال عنيد ، ورغم المقاومة الصلبة والهجمات الحامية التي وجهت ضد الموحدين ، فقد نزلت بالميورقيين الهزيمة ، واضطروا الى الهرب للحاق بعلي أمام قسطنطينة التي كان يحاصرها بقواته (٤) . وبذلك عمت الفوضى بالمدينة ، وقام البحارة الموحدون ، وبمساعدة كل أنواع المغامرين بنهبها . ولكن قائد الاسطول أسرع باتخاذ إجراءات صارمة تصل الى حد عقوبة الإعدام ضد عصانات التخريب (٥) . وانتهى استرداد بجاية . بتحرير أسرى الموحدين ، وكان بينهم أبو موسى بن عبدالمؤمن والى طرابلس السابق (٦) . أما عن الميورقيين فقد أخذ عدد كبير منهم أسرى ، من بينهم راشد معاون يحيى في ولاية بجاية (٧) . وفي الميناء تم

(١) رسائل موحدية ، ص ١٧٦ ، الدراسة ، ص ٥٨

(٢) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٣٤ .

(٣) رسائل موحدية ، النص ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، والدراسة ، ص ٥٨

(٤) رسائل موحدية ، ص ١٧٧ ، والدراسة ، ص ٥٩ ، ابن عذاري ، مجهول ، ص ٤٥ ، ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٤٤ ، ابن

خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٩١ ، والترجمة ، ج ٢ ، ص ٨٩

(٥) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٤٥ . والحقيقة ان أعمال العنف التي عانت منها المدينة كان لها آثار سيئة على اقتصادها

لماذا كان البعض قد رحب بابن عدنية عند قدومه كنوع من تغيير السادة الحكام ، فإن هذا التعبير كان حظاً سيئاً لعظم

السكان . وحسب قول ابن عذاري ، مجهول ، ص ٤٧ ، فإن المدينة عرفت فترة عصيبة ، حيث أفسدت الحقول .

وبهت البيوت ، وافترقت الأقوات ، وعندما غادر الناس المدينة ، لم يمكن جباية الضرائب

(٦) نفس المصدر

(٧) رسائل موحدية ، ص ١٧٨ ، والدراسة ، ص ٥٩

القبض على الاسطول الميورقي كله برجال بحريته ، وسلاحه وامتعته (١) .  
ووصلت انباء انتصار الاسطول الموحدى هذه الى الجيش عند حدود متيجيه .  
وعندئذ أرسل الموحدون فى الجيش الرسائل نحو الأمير يعرفونه بالنبا السعيد  
لهذا النجاح (٢) . وفى هذا الوقت كانت قسطنطينة محاصرة من قبل علي  
الذى استقبل تحت جدران المدينة المحاصرة أخاه يحيى على رأس قوات  
الميورقيين الذين كانوا ببجاية . وأصبحت القلعة المطوقة بآلات الحصار فى  
حالة يأس ، ومع ذلك كانت مقاومة المحاصرين تشتد بينما كان أنصار علي  
يتربكونه شيئا فشيئا (٣) . وعند ظهور جيش الموحدين رأى علي أنه من  
الحكمة ألا يحاول الدخول فى معركة حاسمة ، فاكتفى برفع الحصار ، تاركا  
أمتعته الثقيلة ، وذلك قبل ٣ (ثلاثة) أيام من وصول أبى زيد ، رئيس الجيش  
، الى رتكلات (٤) . وهناك تم عقد مجلس حرب موحدى من أجل  
مناقشة الإجراءات التى تتخذ بالنسبة لبنى غانية (٥) . واتفق جميع كبراء  
الموحدين على الانطلاق فى إثر العدو ، والقضاء عليه نهائيا . وفى بجاية اتخذ  
إجراء سياسى يهدف الى اجتذاب الميورقيين سلميا الى الأمر الموحدى :  
فأعطى الأمان الى المحاربين الذين يرغبون فى الانتقال من معسكر العدو الى  
المعسكر الموحدى . أما عن أولئك الذى يعاندون فى التمسك بالدفاع عن  
الأمر المفقود ، فقد أدينوا بالموت (٦) . أبو موسى ، بعد ان فرق على الموحدين  
ما وجد فى بيت يحيى ، لحق بالقوات المحتشدة برتكلات ، وبعد يومين من  
الراحة ، انطلق الموحدون فى إثر الشوار (٧) وهنا بدأت تظهر بشكل لامع قيعة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) رسائل موحدية ، ص ١٧٩ ، والدراسة ، ص ٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٥ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩١

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٦ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩١ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٦

(٧) نفس المصدر السابق

ابن غانية كقرصان لا يتعب ، عنيد فى الهرب والردّ المفاجيء ، فهذه الصحراء ستقدم له بحراً آخر من الرمال صالح لتحقيق مشاريعه التخريبية التى كان يمارسها سابقا . وعن صريق هذه التسهيلات التى عرضت له يجب تحليل الفشل الذى حاق بالموحدين وهم يقاومون الميورقيين فى أفريقية . ومع ذلك فيجب النظر بعين الاعتبار الى تفسيرين عذاري فى إلقاء التبعة فى فشل القوات الموحدية الى صعوبات فنية يصعب التغلب عليها ، من بينها كبر وكثافة الجيش ، وثقل معداته وأمتعته<sup>(١)</sup> . وكذلك كان مما سهل الأمر على ابن غانية ، خفة عساكره التى يسهل قيادتها حسبما يريد ، الأمر الذى جعل الموحدين يتابعون بغير جدوى الميورقيين لمدة ستة أشهر فى صحراء أفريقية الفسيحة . الى ان عاد الجيش الى بجاية بعد أن أخذ الجهد منه مأخذه<sup>(٢)</sup> .

إن مأساة بجاية لم تنته بفرار ابن غانية فى بلاد الجريد . بل على العكس من ذلك فقد كان ذلك بداية سلسلة من الغارات المنظمة التى ستنتشر البؤس والحزن فى كل بلاد أفريقية . ففى الجريد استغل علي عدم رضاء ، أهل قفصة لكى يستولى عليها<sup>(٣)</sup> . أما عن توزر فإنها حوصرت ولكن همّة علي ثببت بفضل المقاومة العنيدة التى قوبل بها ، فتركها واتجه نحو طرابلس .

### تحالف الغزّ والعرب مع بنى غانية:

ولكى يعمّ الأسى ، كانت ثورة بنى غانية تأخذ مع مرور الوقت مظهراً خطيراً جداً ، يهدد بفصل ولاية أفريقية عن الدولة الموحدية<sup>(٤)</sup> . وكانت الظروف مواتية بالنسبة لابن غانية ، فكل العناصر المضطربة أو الساخطة ، من البدو والغز ( الترك ) كانت تنتظر اللحظة المناسبة للثورة ، والصيد فى الماء :

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) الاستبصار ، والترجمة ، ص ٦٩ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٣ - حيث القول بحق أن ذلك كان أول صدع فى بلاد الدولة الموحدية



العكر . فمن الناحية الأخرى من افريقية ، فى بلاد طرابلس ، كان هناك مغامرون آخر تحت قيادة أحد الموالى وهو قراقوش ، كانوا قد حضروا ليسشروا الحزن فى البلاد . ففى سنة ٥٦٨هـ ( ١١٧٢ - ١١٧٣ م ) خرجت من مصر جماعة من المماليك المصريين ( الغز ) ، تحت قيادة قراقوش وابراهيم بن فراكتين ، وهما اثنان من موالى تقي الدين ، ابن أخى صلاح الدين ، واتجهوا نحو افريقية (١) ، حيث تفرض سلطانها لفترة من الوقت . ومع مرور الوقت سيصبح قراقوش الأكثر شهرة ، كما سيرتبط اسمه بالأحداث التى سوف تقع فى طرابلس وفى افريقية ، كما بتاريخ الدولة الموحدية على عهد يعقوب ، ففى الوقت الذى كان ابن غانية يبدأ أعماله العدوانية ، كانت طرابلس خاضعة تماما لسلطة قراقوش (٢) .

والآن تعرض لنا مشكلة خاصة بالمماليك المصريين وماذا كان هدفهم ، والى اين يتوقفون بشكل نهائى ؟ ، وهو الأمر الذى لا يعرف على وجه التحقيق . بل وربما كان المسئولون الرئيسيون أنفسهم لا يعرفون بسهولة ماذا كان يفنون . والحقيقة أن المسألة تختلط فيها الحقائق بالآراء ، والتخيلات ، والاحتمالات . فهناك فكرة ان يكون قراقوش قد أتى الى طرابلس وافريقية لكى يهيبء ملجأ أميناً لصلاح الدين فى حالة إنتصار محتمل لنور الدين ؟ (٣) . وإذا صح ذلك فهل يجوز ان يكون قد حضر لمساندة البدو من العرب ، وبنى غانية على إقامة دولة مرابطية تحت إشراف صلاح الدين ، ورعاية الخلافة العباسية ؟ أم ان الرجل اتجه الى هذا البلد بناء على حساباته الشخصية ، ونفقته الخاصة . إن توالى الأحداث يؤكد ان قراقوش الذى كان يوماً ضد الموحدين ويوماً آخر الى

(١) انظر النجاشي ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٠٢ وما بعدها ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٥ ص ٢٨٦ والترجمة ، ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ ، وقارن ، ١ ، بل ، سوعانية ( بالفرنسية ) ، ص ٦١ وما بعدها

(٢) نفس المصادر السابقة .

(٣) النجاشي ، الرحلة ، الترجمة ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ .

جانبهم - كان يعمل لحسابه الخاص . والذي نراه ان الرجل ليس بأكثر من هلالى جديد ، أو ابن غانية آخر لا يبحث إلا عن انتهاز الفرص لمصلحته الشخصية (١) .

وكان الأمر كذلك بالنسبة لعملهم على أن تسود الفوضى فى إفريقيا أو اقتطاع جزء من الدولة الموحدية ، حيث يكون بنو غانية قد وجدوا فى الممالك المصرية حلفاء طبيعيين ، وذلك فى سبيل تحقيق أهدافهم السياسية التى يسهل فهمها . فالممالك كان من مصلحتهم تأييد نفوذ مصر ، الأسمى على الأقل ، فى تلك المناطق ، الأمر الذى يعنى معارضة تكوين دولة موحدية قوية على الحدود المصرية . ومن ناحية أخرى كان يمكن لهم من أجل تحقيق أهدافهم الأنانية الاستناد الى الأسباب الدينية التى استند اليها الميبرقيون ، من حيث الإعتراف بالخلافة العباسية كمرجع شرعى وحيد فى بلاد المغرب .

وكذلك كان الأمر بالنسبة لقبائل العرب من بنى هلال وبنى سليم التى كانت مستعدة للتعاون مع أي من الطرفين : المصرى أو الميبرقى . فعرب دباب ، وهم فرع من سليم ، تعاونوا مع قراقوش فى ولاية طرابلس (٢) . أما عن قبائل جشم والأثيج فإنهم استجابوا لدعوة ابن غانية وانضموا الى صفوف أعوانه (٣) .

وكان لقاء علي بن غانية وقراقوش فى طرابلس حيث تم الاتفاق على التعاون المتبادل فيها بينهما ضد الموحدين . ومنذ هذا الوقت تكوّن الحلف بين الميبرقيين والممالك وساندهم فى ذلك القبائل العربية من بدو المغرب الشرقى

---

(١) نفس المصادر . ونظر التجاني والترجمة ، ص ١٠٥ - حيث يقول ان قراقوش وهو يعذب أسيره محمد بن خطاب ، أمير ولاية قرآن ، تركه يموت فى العذاب لأجباره على أن يكشف عن خبيثة أمواله .

(٢) التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٨٦ والترجمة ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٠ وما بعدها ، والترجمة ، ج ٢ ص ٤٧ و ٤٩ .

مع مساندة بقايا مسوفة وملتونة من المرابطين (١) . وعن هذا الطريق سقطت افريقية كلها بين ايديهم باستثناء مدينتين فقط ، هما : تونس والمهدية (٢) . فقد تم الاستيلاء عنوة على قابس من قبل قراقوش الذي اتخذها قاعدة له . أما قفصة فقد ثارت على حكم ابن غانية ولكنها قهرت . وحوصرت نوزر سنة ٥٨٢ (١١٨٦) ، وخربت غابتها ، ولكنها أخذت بفضل خيانة عملاء علي ، وعومل أهلها معاملة استبدادية شائنة (٣) . أما عن قلعة بشرى القريبة من تونس فقد وقعت ضحية الاضطهاد الأعمى من قبل الميورقيين ، فنهبت المدينة ، وجرد أهلها من ممتلكاتهم حتى الثياب ، كما لم يسلم النساء والأطفال من تعدى المغيرين (٤) .

ومنذ سيطر ابن غانية على كل البلاد تقريبا ، بدأ في عملية التنظيم ، وبدأ سياسته بعمل يذكر دائما له ، وهو الاعتراف الرسمي بخلافة بغداد العباسية . وهذا الإجراء لم يكن جديداً ، إذ كان قد سبق له أن رفع الراية السوداء في مسجد بجاية الجامع . ولكنه في هذه المرة لم يكتف بذلك العمل الرمزي ، بل أخذت المسألة بجدية واضحة عندما أرسل ابنه بصحة كاتبه الشهير : عبد البر بن فرسان ، الى بلاط الخليفة الناصر بن المستعدي (٥) . هذه البعثة كلفت بتقديم فروض الطاعة والولاء على الرئيس الزمني والروحي للجماعة الاسلامية ، مع طلب عون الروحي ، وارسال خلع التقليد والرايات السوداء (٦) . وكان من

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٩ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٤٢ .

(٣) التجاني ، الرحلة ، الترجمة ، ص ١٤٧ . وقرن أ. بيل (A. bel) ، بنو غانية (بالعربية) ، ص ٥٣ حيث أعطى علي ويحيى الأمان للسكان الذين ساعدوهم في أخذ المدينة ، وصادروا كل من عداهم ، فأحدوا ممتلكاتهم وانزلوا بهم غرامات مجحفة . وكل من وجد منهم من يشتري حريته أطلق ، وإلا كان يقتل ويلقى بحشته في البحر .

(٤) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٤٣ ، التجاني ، الرحلة ، الترجمة ، ص ٢٦ .

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٩٢ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٩٣ ، قارن المقرئ ، ج ٢ ص ٦٤٢ - ٦٤٣ .

(٦) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٤٣ .

الطبيعي ان يوافق ديوان بغداد على مطالب ابن غانية . وهكذا أصبح على مثل سلطة الخلافة في افريقية ، وقدر له الديوان كل الميراث التي كان يتمتع بها المرابطون من قبل (١) ، وكان من بين هذه الميزات لقب أمير المسلمين الشرفي ، وهو ما يعتبر حقا أهم ما حصل عليه الميورقي . وهكذا نجحت البعثة من وجهة النظر السياسية نجاحا باهرا . وهكذا ولكي يظهر الخليفة رغبته في تأييد تابعه الجديد ، أمر صلاح الدين ، ملك مصر ، بتقديم المعونة الى الميورقيين (٢).

### رد فعل المنصور:

حق ليعقوب ان ينتابه القلق للأنباء المزعجة الواردة من افريقية ، من خضوع بلاد الجريد للسلطة الميورقية ، وأعمال لتخريب المنظمة في البلاد ، وأكثر من ذلك تلك الخطوات التي تمت من أجل إعطاء أعمال عصابات النهب والتخريب شكل السلطة الشرعية . وهكذا كان على المنصور ان يقرر المسير بنفسه على رأس جيشه الى افريقية لينقذ الولاية الشرقية ، وفي نفس الوقت ينقذ شرف الدولة الموحدية، وبعد أن دعا الموحدين الى حمل السلاح ، سار الأمير ، كما هي العادة ، لزيارة ضريح محمد بن تومرت (٣). وفي يوم ٣ شوال ٥٨٢ هـ (١٧ ديسمبر ١١٨٦ م) غادر مراكش ، تاركا السيد أبو الحسن ، كبير الأسرة المؤمنية ، كممثل مفوض عنه في العاصمة (٤). واتجه نحو رباط تازا حيث استراح الجيش قبل مواصلة المسير الى قسنطينة. وفي تخوم القيروان بدأ الاتصال بأعدائه ، من: الميورقيين ، والغز ، والعرب من قبائل سليم . وأراد

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٢ ، ولترجمة ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٤٨ .

(٤) نفس المصدر . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٣ ~ حيث ان على ان خروج المنصور من مراكش كان في

سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، قرن أول ، بنو غانية ، ص ٧٨ .

المنصور ان يبادر بالحرب على حين غره قبل أن يأخذ الخصوم حذرهم ، ولكن مجلس الحرب الذى انعقد بهذه المناسبة لم يوافق على ذلك . وبدلك كان على الجيوش ان توجه أولا نحو تونس التى اتحدت مقررأ للقيادة العامة . وهناك أخذ المحاربون الموحدون يستعدون لمعاركم المقبلة (١) .

### انتصار كبير لابن غانية (ربيع الثانى ٥٨٢هـ / يونيه ١١٨٧م)؛

أظهر أول لقاء بين ابن غانية ومسانديه من حلفائه وبين الموحدين والذى انتهى بهزيمة هؤلاء الأخيرين ، ان حسابات يعقوب - اذا كانت له حسابات أصلا - كانت خاطئة - وأظهرت الهزيمة فى نفس الوقت ان تقييم الموحدين الحربى مسألة فيها نظر ، وكذلك الأمر بالنسبة للمنصور بصفته قائدا عسكريا عاما .

فلقد أمر يعقوب حرسه الخاص فى تلك الحملة (٢) . المجتمع فى تونس أن يضع أحماله الثقيلة ، ويجهز مؤونته ويحدد معداته ثم يسير نحو العدو ليقضى عليه . ولقد عين لقيادة ذلك الجيش ابن عمه السيد ابو يوسف بن أبى حفص ، الذى ساعده اثنان من القواد ، هما : أبو الحسن على بن البربرير (٣) ، وأبو على بن يغمور (٤) .

وكان اللقاء بين الموحدين وأعدائهم يوم ١٥ ربيع الثانى ٥٨٣هـ (يونيه ١١٨٧م) ، فى موضع يعرف بـ غمرة غير بعيد من قفصة . ونظم ابن البربرير تكتيك المعركة : فكان الموحدون فى مركز القلب (الوسط) والقبائل

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٩ .

(٢) ابن الأثير ، ح ١١ ص ٣٤٣ ، حيث انتص على أن رجال الحرس الخاص هؤلاء كانوا ٦٠٠٠ (سنة ١١٨٧) رجل من بين ٢٠٠٠٠ (عشرين ألفا) هم عدد رجال الحملة جميعا .

(٣) هذا القائد كان قد أسروا وسجن فى ميورقة كما ذكر من قبل ، ولكنه نجح من الاستيلاء على القصبة (القلعة) بالجزيرة حيلة وتمكن من تغيير نظام الحكم القائم ، انظر فيما بعد (ص ٩٠) .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ح ٦ ، ص ١٩٣ ، والفرجة ج ٢ ص ٩٤

(الأخرى) من حاملي السهام والنبال في الجناحين الأيمن والأيسر<sup>(١)</sup>.  
 ` وهاجم الغز الموحدين ، ولم يتردد أبو الحسن بن البربرير في الرد بقوة<sup>(٢)</sup> .  
 ولكنه عندما حمى وطيس المعركة ، اتضح ان الموحدين لا يقدرّون على مواصلة القتال . وهكذا انتهى الأمر بأسر أبي الحسن وسط أتون الحرب<sup>(٣)</sup> .  
 وعندما أرخى الليل ستاره ، كانت هزيمة النخبة والعامّة من الجيش الموحدى تامة ، وظن الذين فروا من المذبحة أنه يمكنهم الالتجاء الى قفصة تحت حماية قراقوش وأعوانه ، ولكنه على عكس ما كانوا يظنون قتلوا بحدّ السيف .  
 وسُلم أبو الحسن وابن يغمور الى على ، فكان التعذيب نصيب الأول ، والقتل نصيب الثانى<sup>(٤)</sup> . وخشى قطاع كبير من الجيش الموحدى العودة الى تونس ، فتأهّوا فى الصحراء . وبذلك انتهت المعركة بخسائر كبيرة للموحدين ، والاستيلاء على مغانم كثيرة من جانب الميورقيين وحلفائهم .

### نتائج الهزيمة فى غمرة:

لم تثبط الهزيمة فى غمرة روح المنصور ، فقد كان من ذلك النوع من الرجال الذين تشد المصاعب من عزائمهم . فقد قرر أن يسير بنفسه للقاء العدو . فبعد أن دعا الرجال الى حمل السلاح ، وأعاد تنظيم الجيش ، غادر تونس متجها نحو القيروان<sup>(٥)</sup> . ومع ذلك فالظاهر ان الهزيمة الصعبة جعلته أكثر حكمة ، فحاول ان يلاطف خصومه أولا . وهكذا عرض عليهم الخضوع والدخول فى مذهب التوحيد قبل ان يغامروا بالدخول فى معركة جديدة<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٩ ، ٥١ - حيث يقول المؤلف ان أبا الحسن سقط بين أيدي النصارى الذين

كانوا من العناصر الرئيسية فى جيش ابن غانية - وأغلب الظن انهم من الميورقيين .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٠ ، التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٣١ .

(٥) رسائل موحديّة ، النص ص ١٨٤ - ١٨٦ ، والدراسة ، ص ٦٠ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥١ .

(٦) رسائل موحديّة ، النص ، ص ١٨٦ ، الدراسة ، ص ٦٠ .

ولما لم يصله جواب ما، عبر خرائب القيروان ، وضرب معسكره قرب الجامع الكبير (١) . وفى اليوم التالى ، طلب من رجاله أن يكونوا على استعداد للحرب ، فانعقد مجلس حرب وعرض على الأمير بالبقاء فى مركز القيادة ، ولكن هذا الأخير أصر على أن يقود الصراع بنفسه . وهكذا رفض القرار ، وجهاز جيشه ، واضعاً أقاربه على رؤس "القبائل" وعقب التفتيش على الجيش ، أخذ كل مزوار (رئيس قبيلة) قيادة قطاعه العسكرى ، وتقدم فى الطريق (٢) . واتجه الموحدون نحو قفصة متبعين خطى العدو ، ولكنه قرر الالتجاء إلى قابس ، تبعه الموحدون إلى هناك (٣) . وفى حامة مطماطة - غير بعيد من قابس - حيث طلب الميورقيون المعونة من عرب سليم فى المنطقة ، ضرب الحزبان معسكرهما كل فى مواجهة الآخر . وفى يوم الأربعاء ٩ شعبان ٥٨٣هـ (١٤ أكتوبر ١١٨٧م) ، بدأ الموحدون بالهجوم ، وبعد معركة حامية ، انتهى القتال بهزيمة الميورقيين . إذ قاتل هؤلاء وهم ينسحبون على طريق قابس ، ولكن عندما تبعهم الموحدون خلال نهار وليلة ، تحملوا خسائر فادحة ، وفى اليوم التالى كان الموحدون أمام قابس ، قصر القيادة العامة لقراقوش (٤) ، التى كانت قطاعات الجيش الأممية قد ضربت الحصار عليها ليلاً (٥) . وخرج أهل قابس الذين كانوا قد خضعوا لقراقوش دون أن يكون لهم رأى فى الأمر ، والتقوا بالموحدين وطلبوا منهم الأمان الذى أعطى لهم فى التو (٦) . ورغم ذلك فإن خضوع المدينة لم يكن تاماً ، فعائلة قراقوش التى ساندتها عصابة من الاتباع

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٢ .

(٢) ابن عذارى مجهول ، ٥٠ ، التجاني ، الرحلة ، الترجمة ١٣١

(٣) رسائل موحدية ، ص ١٨٧ ، الدراسة ، ص ٦٠ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ١٨٩ ، الدراسة ، ص ٦٠ ، التجاني ، الرحلة ، الترجمة ، ص ٩٧ ، ابن خلدون ،

العبر ، ج ٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٩٤

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٢ ، رسائل موحدية ، ص ١٨٨ والدراسة ، ص ٦٠ .

(٦) رسائل موحدية ، ص ١٨٩ ، والدراسة ، ص ٦٠ .



تحصنت فى واحدة من قلاع المدينة . فحوصروا فى الثو ، ثم إنهم خضعوا مع الأمان فى أنفسهم . وكان ثار يعقوب مثالا فى الروعة : فقد صودرت الأملاك ، وتم استعباد النساء والأطفال (١) ، وأجلى الجميع الى مراكز (٢) . وهكذا كان القضاء على سيطرة المماليك المصريين فى قابس .

### خضوع بلاد الجريد :

بعد هزيمة ابن غانية فى حامة مطماطة هرب وتعمق فى صحراء الجريد . وقام الموحدون بدورهم ، بعد دخولهم قابس الإنطلاق فى إثره . فدخلوا صحراء قابس واتجهوا نحو بلاد الجريد ، عبر بلاد لم يغامر فيها أى مسافر ، حيث يخيم الخلاء المطلق دون قطرة من الماء (٣) . وهناك رسالة رسمية تعرفنا تفصيليا بالعمليات العسكرية التى تمت فى الجريد (٤) . وانضم أهل المنطقة الى دولة التوحيد وكذلك الأمر بالنسبة لأهل ولاية قسطلية (٥) . وأولا بأول مع تقدم الطابور الموحدى خضعت مدن نفزاوة ، وتفيوس ، واحامة ، ونفطة وكذلك توزر وسلموا الرؤساء الذين كانوا قد وضعوا عليهم بمعرفة الثوار والذين لم يكونوا قد قتلوا حتى ذلك الحين . ومع ذلك فإن عصاية من هؤلاء نجحت فى الهرب من توزر ودخول الصحراء بعد أن تركوا كل أملاكهم ومنقولاتهم التى سقطت بين أيدي الموحدين ومن توزر تابع الطابور الموحدى تقدمه نحو قفصة ، وهى المدينة المحصنة التى ضرب عليها احصار (٦) .

(١) رسائل موحدية ، النص ١٨٠ ، الدراسة ، ص ٦٠ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٤٣ .

(٣) الاستبصار والترجمة ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، رسائل موحدية ، ص ١٩٥ والدراسة ، ص ٦١ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ١٩١ - ١٩٩ ، الدراسة ، ص ٦١ .

(٥) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ .

(٦) رسائل موحدية ، ص ١٩٥ - ١٩٦ ، الدراسة ، ص ٦١ . ولدينا رسالتان (رقم ٣١ ، ٣٣) متعقبتان

بأخذ المدينة ، الأولى عن بداية الحصار ، وهى مؤرخة ٢ رمضان ٥٨٣ (٥ نوفمبر ١١٨٧) ، والثانية صادرة

من داخل المدينة بمعنى بعد غزوها وهى مؤرخة ١٣ ذو القعدة ٥٨٣ (٤ يناير ١١٨٨) . =

## استعادة قفصة:

مع حصار قفصة ( من بداية شهر رمضان ٥٨٣ / نوفمبر ١١٨٧ ) ، اتجهت الأحداث وجهة جديدة ، تدل على ان الحظ بدأ يدير ظهره لابن غانية . ففي يوم وصول الموحدين أمام قفصة وصل المنصور رسالة من قراقوش تعرض خضوعه للنظام الموحدى ، وتقديم خدماته للقوات الموحدية . وفى الغد كان رئيس آخر للمماليك يسمى "أبو زيان " ، والذي كان يعمل لحسابه الخاص بعد أن انفصل عن قراقوش ، يعلن هو الآخر انضمامه فى طرابلس الى الموحدين (١) . وحسب السياسة المتعقلة التى اتبعها المنصور بعد تجربة غمرة القاسية ، رأى قبل الدخول فى حصار غير مضمون النتيجة ان يعرض الأمان على المغامرین المتحصنين خلف وسائل الدفاع فى المدينة فى نظير خضوعهم ولكن هؤلاء رفضوا باحتقار عرض يعقوب الذى قرر مهاجمتهم (٢) . وبدأ الحصار باجراءات استراتيجية ، فقد اقيمت بالقرب من المدينة مرقبة مرتفعة من الخشب لملاحظة مسرح العمليات (٣) .

وأقيمت حول المدينة آلات الحصار والمنجنيقات فى أحسن هيئة . هذا كما أقيم برج من ٧ ( سبعة ) طوابق فى نفس المكان (٤) . وبعد ذلك بدأت آلات الحصار والمنجنيقات تمطر المدينة يوميا بالأحجار والقذائف المحرقة ، وهكذا أصيبت التحصينات وانهار كثير منها كما دمرت الأسوار والستارة نتيجة

---

= وهذا ان التاريخان يدعوان الى الظن ان الحصار استمر ٣ ( ثلاثة ) أشهر تقريبا (قارن ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٤٣) . ولكننا لا نستطيع ان نرتب لاحداث بين هذين التاريخين . ومن الملاحظ ان ابن عذارى ( مجهول ، ص ٥٣ ) يصع هذه الاحداث خاطئة زمتها فى شهر شعبان .

(١) رسائل موحدية ، ص ١٩٧ ، الدراسة ، ص ٦٢ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ١٩٨ ، الدراسة ، ص ٦٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ ، رسائل موحدية ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، الدراسة ، ص ٦٢ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

لأصابتها بالقذائف (١) . وبسرعة وبفضل آلات الحصار أمكن ردم بعض الخندق المحيط بالأسوار ، وزود البرج المتحرك برماة السهام وآلات القتال والرجال المسلحين والرايات والأبواق والطبول (٢) . ودفع الى الأمام السور . وهنا تمكن الموحدون من التقدم ووضع النار في البرج المسمى "برج ابن رواح" (٣) . وعندما تمت هذه العمليات أصبح الاقتراب من المدينة أمر ممكناً .

وفي اليوم التالي من وضع البرج للعمل ، هاجم يعقوب الموضع بشده ، ومع ذلك كان الاقتراب منه أمراً صعباً . فانحدر الأرض ، وحرايات التحصينات ساعدت بقوة المدافعين . وهكذا استمر هؤلاء الأخيرون في الصراع ضد المهاجمين في كل مكان ، في الحفر ، وخلف الصخور ، وفي حطام السور . وهكذا أوقف تقدم الموحيدين واستمر المدافعون طوال النهار مسيطرين على الطرق المؤدية الى مدخل المدينة المحصنة (٤) . ومع ذلك فرغم عودة الموحيدين أماكنهم التي انفلقوا منها ، فإنهم لم يلبثوا أن جنوا ثمار جهدهم . فعندما شعر المحاصرون أن سيادة الموقف للموحيدين ، طلبوا منهم الأمان شرطاً لخضوع (٥) . وعندما أعطاهم يعقوب الأمان ، استفادوا من الليل ليتفادوا غضب عامة الشعب الخطير ، وخرجوا عن طريق سلالم التحصينات ليستسلموا ليعقوب في معسكره (٦) . والرسالة الرسمية تذكر ان الأمان أعطى لكل سكان المدينة دون استثناء (٧) . والظاهر أنه على أساس هذا الشرط

(١) رسائل موحدية ، ص ٢٠٥ ، والدراسة ، ص ٦٣ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٠٦ ، الدراسة ، ص ٦٣ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ ، الاستبصار (حيث برج

ابن رواح) والترجمة هـ ٢ ص ٧٠ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٥) رسائل موحدية ، ص ٢٠٥ ، الدراسة ، ص ٦٣ .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٧) رسائل موحدية ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

قبل الميورقيون الاستسلام . ولكن بالنسبة ليعقوب لم يكن الأمر كذلك . فإذا كان الأماة أدحل فيه الغز وكذلك كل سكان قفصة والزراع اللآجئون الى الموضع ، فإن الميورقيين كانوا مستثنين من ذلك . فجرىمتهم كانت كبيرة بحيث لا يمكن العفو عنهم ، وأن حكم الله يجب ان يكون الموت ، وهكذا قتل الكثيرون منهم بحد السيف (١) . أما عن بقية الأسرى ، من : العرب والغز فقد رحّلوا الى المغرب الأقصى ، وذلك حسب سياسة مستنيرة افتتحتها عبدالمؤمن وتبعها بعده يوسف (٢) . ولكي يقطع يعقوب الطريق على مثل هذه الثورة فى المدينة الثائرة ، هدمت أسوار المدينة ونحصيناتها ، ووقع على كل قبيلة عبء تدمير قطاع خاص بها (٣) . أما عن سكان قفصة ، فقد أعطاهم يعقوب حرية حكم أنفسهم بأنفسهم ، وترك لهم ملكية أراضيهم ، يكن شريطة تقدم نصيب له من المحاصيل (٤) .

### عودة المنصور الى المغرب ووفاة على بن غانية:

رغم الثمانية أشهر التى قضاها المنصور فى أفريقية فإن تهدين ذلك الأقليم لم يكن كاملاً . حقيقة لقد استنفذ عدد من المدن ، والقلاع المحصنة والمواقع التى كانت خاضعة للثوار ، كما تحمل الميورقيون خسائر فادحة فى الرجال ، ورحّل الى المغرب الأقصى أعداد من عرب جُشَم ورياح والأنبج ، وكذلك عدد معين من المماليك المصريين (٥) . ولكن التحالف العدو لم يكن قد قضى

(١) رسائل موحدية ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، الدراسة ، ص ٦٣ ، التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٣٢ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٦٠ ، ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٠٩ ، ٣٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٠ .

٢١ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ١٩٣ . وقارن ج . مارسيه ، العرب فى بلاد البربر (بالفرنسية) ، ص ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، الدراسة ، ص ٦٣ .

(٤) التجاني ، الرحلة ، الترجمة ، ص ١٣٢ - حيث يقول ان المنصور لم يترك لهم الملكية إلا على أساس

المساواة . وقارن ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ج ٧ ص ٩٣

(٥) رحّل عرب رياح الى بلاد الهط ، وحشم أقاموا فى تامسا ، جنوب وادى أم الربيع ، بين سبتة ومراكش ، =

عليه تماما ، ومع ذلك فإن الخضوع الذي كان مصطنعا من قبل قراقوش للمهدية الموحدية ، وعدم تأكد الانتصار النهائي على ابن عانية ، وغياب الأمير الدائم الذي كانت له آثاره السلبية في العاصمة ، كل ذلك حرض المنصور على العودة الى مراكش . وهكذا عين من الطلاب من يشرف على حسن تنفيذ ما أصدره من الأوامر (١) ، وسار من قفصة الى تونس حيث أقر في الولاية السيد أبا زيد ، الوالي السابق لبجاية (٢) ، التي أصبح على ولايتها الآن السيد أبو الحسن ، ابن السيد أبي حفص (٣) . ثم انه اتجه الى المهدية لكي يعبر مضيق الجزائر المرتفعة ، عن طريق تاهرت وتلمسان بفضل مهارة دليله العباسي بن عطية (٤) . وقبل ان يواصل السير نحو مراكش عزل عمه السيد أبا اسحق عن ولاية تلمسان وذلك أن هذا الأخير سمح لنفسه بانتقاد ضعف حملة يعقوب وتفاهة النتائج التي حققتها (٥) . وكان الأمر كذلك بالنسبة لأخيه الرشيد : أبو حفص عمر والي مرسية (بالاندلس) ، وكذلك بالنسبة الى عمه أبي الربيع والي تادلا . فقد كان مصير الاثنين وكل من معهما من المتآمرين ، الموت في الرباط بحد السيف (٦) .

= وسط المغرب الأقصى ، وهذا البلد المحاط بالجبال كان بعيداً عن كل الطرق المؤدية الى الصحراء حتى ان جيش وجدت نفسها محصورة فيه . وبالتالي فإن الأتباع جاءوا الى هناك ليلحقوا بهم (ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١) . أما المالبيك المصريون فقد استقروا في مراكش العاصمة لكي يكونوا فرقة خاصة من الجيش .

- (١) رسائل موحدية ، ٢١٥ ، الدراسة ، ص ٦٤ .
- (٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ج ٢ ص ٢١١ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٤ .
- (٣) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٢١٢ .
- (٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ، ص ٢١١ .
- (٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٥ - حيث الإشارة إلى أن الأمير أمر باقتياده إليه دون رعاية . وبعد طرد مطيته سير يعنف على قدميه إلى منزله ، بينما كان الناس يسحرون منه
- (٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٦ ، ٥٧ (قارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٤٤ ، والترجمة ، =

والحقيقة ان عودة هجوم علي بن غانية تؤكد لنا ان نتائج حملة يعقوب لم تكن أكيدة في افريقية فمنذ ان نرك يعقوب البلاد ، رجع إليها على حيث بدأ يشن الحرب على سكان توزر . ولكنه قضى نحبه إثر جرح أصابه من سهم في ترقوته (١) .

### موقف البليار منذ حملة علي حتى وفاته:

تمكن ابو الحسن البربرتي ، مبعوث أبو يعقوب يوسف الى ميورقة ، عقب إلقاءه في السجن قبل رحيل علي الى بجاية (٢) . من السيطرة على الجزيرة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) بفضل تأمر المسيحيين من أتباع بني غانية (٣) . ونحن ندين لابن عذارى بالمعلومات الطريفة عن هذا الحدث (٤) . فحسب العادة في ذلك العصر، قام المبعوث الموحدى بتنفيذ خطته يوم الجمعة في الوقت الذي كان الناس فيه في المسجد الجامع . وكان محمد بن غانية المخلص لأمر المهدي الموحدى قد صار على رأس السلطة في إمارة البليار . ولكن حدث انقلاب آخر لنظام الحكم ، إذ اضطر محمد الى الهرب وذهب ليلحق بأبي الحسن البربرتي (٥) . في مراكش . وعرف علي بالخبر وهو في ولاية طرابلس

ج ٢ ص ٢١٢ ، عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٠٠ . والحقيقة ان ما أخذ على عمر من التهم كانت عظيمة الخطورة في ذلك الوقت الصعب الذي كان المصور فيه مشتبكا مع الأعداء الميورقيين ، هذا كما انت الابه من الأندلس الى تونس تعلق خيانة أخيه . فهذا الأخير لم يكتف باضطهاد الشعب ، والاستيلاء على أموال التجار ، ووضع يده على المال العام ، ولكنه ذهب في غيه بعيدا الى حد التآمر مع ملك قشتالة ضد أخيه الأمير نفسه .

(١) الاستبصار ، والترجمة ، ص ٧٦ ، التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٤٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٣ ، الترجمة ج ٢ ص ٩٥ ، عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ - حيث يجعل وفاة علي أثناء

هزيمته في موقعة حامة مطماطة ، ويقول لنا انه مات في خيمة سيدة بدوية إثر ما نزل به من الجراح .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ص ٤٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٠ ، ٤٣ ، الترجمة ، ج ٨٨ ، ٢٠٨ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ص ٤٨ ، ابن خلدون ، الترجمة ، ج ٢ ص ٩٦ ، ٢١٠ .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) قارن ، ١ ، بل (A.Bel) ، بو غانية (بالفرنسية) ، ص ٧٠ .

، ولم يتأخر في الرد بقوة . فأرسل في التو واللحظة أخاه عبدالله الى البليار . وبمساعدة مراكب صقلية أعاد الاستقلال الى الجزر (١) . وهكذا ولمرة أخرى تمكنت البليار من عبء السيادة الموحدية ، ولكن يعقوب لم يياس . ففي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) نظم ابو العباس الصقلي هجوما بحريا على جزيرة يابسة ، وأخذها بالقوة ، وأسرا ابن نجاح ، وهو ضابط لا ضمير له ، لم يكن قد دخل أمر الموحدين إلا لكي يعود إلى جانب بني غانية من جديد (٢) . ولكن هذه المحاولة لم تكن لم يقدر ان يكون لها غداً ، اذ اضطر الموحدون الى ترك غزوتهم العابرة ، وبينما كان يحيى بن غانية يقود الصراع في افريقية ، كان يعقوب يتصور أمالاً لا جدوى من ورائها .

### الميورقيون على عهد يحيى بن غانية:

يعتبر موت على امام توزر ( ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ) ، تقريبا في نفس الوقت الذي كان يرحل فيه يعقوب الى المغرب الأقصى ، خاتمة المرحلة الأولى للصراع بين الميورقيين والموحدين . وذلك أن الأحداث أخذت مساراً غير موافق بالنسبة للأول ، اذ تمثل ذلك في القطيعة التي لا علاج لها بالنسبة للتحالف المناهض للموحدين . فمن ذلك الوقت كان على الميورقيين ان يقاتلوا وحدهم ضد أعدائهم التقليديين ، كما ضد حلفائهم السابقين من الماليك المصريين . فقد بدأ قراقوش ، على رأس عصابته من الغز ، يعمل لحسابه الشخصي . وفي أول الأمر انضم الى جانب الموحدين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، ولكنه لم يلبث ان خان خلفاء الجدد لكي يذهب ناشرا الأحرار مرة أخرى في بلاد افريقية التعسة . ففي سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م ، نجح في أخذ قابس غدرأ ، وقتل عدد لا بأس به من السكان ، كما ذبح زعماء عرب سليم من دباب ومن

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٩٩ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ١٩٤ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .



الكعوب بحدّ السيف (١). تلك كانت أول أعمال قراقوش مستقلاً . ثم انه اتجه نحو طرابلس التي استولى عليها ، لكي يسير بعد ذلك نحو بلاد الجريد التي أخضعها بالسوط والدم . وفي أعقاب هذه الأحداث كان لابد من انفجار الاختلاف بين الرئيسين . فادعاءات كل منهما التي تركزت على نفس الأرض ، كان لابد ان تنتهى بالصراع المسلح . وأكدت اللقاءات الأولى بين الغز والميورقيين على تفوق هؤلاء الأخيرين في حرب الصحراء ، وعندما انهزم قراقوش في الجريد ، لجأ الى الهضاب الافريقية العليا ، قبل ان يسير الى الصحراء ، ويستقر في ودّان ، ولكن هذا الموقع أخذ بالقوة بعد قليل من الوقت بمعرفة الميورقيين الذين ساندتهم عرب دباب الذين أصبحوا الأعداء اللدودين للغز . وفي هذا اللقاء قتل قراقوش ، وقام ابنه الذي يعرف بنفس الاسم ( قراقوش ) أيضا بالدخول في طاعة الموحدين ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا من الوقت حتى أعلن الثورة (٢) . وكان بنو غانية وهم يعملون في افريقية ، في حالة تعاون تام مع أقاربهم في البليار . وهكذا أرسل عبدالله مركبين الى أخيه يحيى ، استطاع بفضلها من استرجاع ولاية طرابلس من الغز الذين كان يرأسهم من اسمه "ياقوت" . وسقط هذا الأخير بين يدي يحيى الذي أرسله كأسير الى ميورقة (٣).

وبعد طرابلس لقيت قابس التي تركها الغز واحتلها الموحدون ، نفس المصير فبعد الحصر الشديد والتخريب التام للمنطقة ، سلم الوالى الموحدى ابن تفراجي المدينة الى الغزاة ، في ربيع الثانى ٥٩١هـ / مارس - ابريل ١١٩٥م ، شريطة ان يستطيع الانسحاب مع رجاله ، وخضع اهل المدينة لغرامة فادحة

---

(١) التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص ٩٩ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٩٣ ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦ ، وأولئك الذين استلحموا كان عدد ٧٠ رجلا ، ذبحوا في قلعة العرويين .

(٢) التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٠ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٩٥ -

٩٦ .

(٣) التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٤ ، والترجمة ، ج ٢ ص ٩٦ .

بلغت قيمتها ٦٠,٠٠٠ ( ستين ألف ) دينار (١).

وحوالي نهاية عهد يعقوب ، سادت الفوضى كل افريقية . إذ لم يعد الزمن كما السابق حيث كان يمكن إنزال الهزيمة ببعض القبائل ذات الهيمنة المهيمنة ، وبذلك تنتشر الفوضى بين الأعداء ، ويمكن اكتساب سنوات من السلام . لم يكن هناك الكثير من الأعداء التقليديين الذين يسببون الاضطراب للدولة ، أو من الموظفين الموحيدين الذين يثرون ضد سلطة الدولة المركزية ، والمثال لذلك محمد بن عبدالكريم الكومي ( من قبيلة عبدالمؤمن ) أحد قواد الموحيدين في ولاية المهديّة . فهذا الرجل عندما شعر بقوته إثر ضبطه للأعراب من البدو الذي كانوا يفسدون الولاية أعلن استقلاله في المهديّة . وبعد أن هزم جماعة من عرب عوف ، استولى على نسائهم وأطفالهم وثرواتهم ، وفرق الغنيمة على العسكر وعهد بالنساء والأطفال الى والي المهديّة ، أبو علي بن عمر آينتي ، ولكن الأعراب قدموا شكوى الى والي افريقية العام ، أبي سعيد ، أخى أبي علي حتى يعيد اليهم أطفالهم وأموالهم . وأمر هذا الأخير ابن عبدالكريم بتحقيق مطلبهم . وهكذا لم يجد ابن عبدالكريم التملص من إجابة الأمر إلا الثورة (٢) . وعندما قبض على أبي علي ( شعبان ٥٩٥ هـ / يونيه ١١٩٩ م ) لم يطلقه الا نظير فدية مقدارها ١٢,٠٠٠ ( اثني عشر ) ألف دينار (٣) . وبمعاونة ابن غانية (٤) ، استطاع ابن عبدالكريم مقاومة محاولات أبي سعيد غير المجدية في اخضاع المهديّة . وهكذا كان يعقوب المنصور يحتضر وهو يترك المهديّة بين

(١) التجاني ، الرحلة ، الترجمة ، ص ٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٠ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٩٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٤ ، ج ٢ ص ٩٧ ، التجاني ، الرحلة ، الترجمة ، ص ٢٦٦ ، وما بعدها .

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٩٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٤ ( حيث المبلغ ٥٠٠ دينار - نقلًا عن التجاني ( الرحلة ، الترجمة ، ص ٢٧٠ ) .

(٤) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٩٦ .

يدى واحد من المغامرين الحدود . وعندما قام بين الحلفاء الجدد نوعا من الاختلاف حاول ابن عبدالكريم ان يضرب ابن غانية ، فحاصر يحيى فى قابس ثم انه سار نحو قفصة . ولم يكن من الغريب ان نرى ابن عبدالكريم عاجزا عن الوقوف امام الميورقيين ، وذلك ان هؤلاء تبعوه حتى قاعدة عملياته المهدية ، وانتزعوها منه بل وقتلوه ، وهكذا لا يكون المنصور قد استطاع ان يضع حداً للخطر الميورقى فى افريقية . فعلى العكس من ذلك كان نجاح يحيى هناك اكبر من نجاح علي . فلقد حقق انتصارات رائعة على الموحدين ، وكان على افريقية ان تقع جميعا تحت سلطانه ، بما فيها المهدية وتونس ، الأمر الذى لم يستطع أخوه أن يحققه أبداً .

وستظل ملحمة بنى غانية الى سنة ٦٣١ ( ٤ - ١٢٣٣ ) حين تنتهى عقب وفاة يحيى ، حيث لم يكن له وريث . وهكذا تنتهى حوالى خمسين سنة من الانتصارات المبهرة ، والهزائم القاسية ، وأعمال العنف والخراب .

### مغزى حركة بنى غانية وأهدافها:

هل كان علي ابن غانية وهو يبحر على رأس حملته الى بجاية ، يسعى الى إعادة إحياء الدولة المرابطية ؟ إن كونه أحد أفراد الأسرة المخلووعة السابقة ، وشاركه بقايا لتونة ومسوفة فى محاولته ، وتقليد الخليفة العباسى له كأحد ورثة المرابطين الشرعيين بالاضافة الى نجاحه ، الذى كان حقيقة مؤقتا ، كل ذلك يدعو الى الاجابة على السؤال بالايجاب . ولكنه ، رغم هذه الحجج المقنعة حقا ، فإننا إذا نظرنا الى طبيعة الأحداث ، فرمما شرحنا الحركة الميورقية بأسلوب آخر.

والحقيقة التى لا تمارى هى ان الغارات على بلاد الكفار من اجل الحصول على المغنم والأسرى كانت قد أصبحت صناعة خطيرة بعد تغير موازين القوى البحرية لصالح البلاد الأوروبية ، وخاصة الجمهوريات الإيطالية وصقلية

النور مندية في البحر المتوسط . فهل من المحتمل ان يكون ابن غانية ، من أجل ذلك ، قد توجه نحو "الكفار" الآخرين في بلاد الشمال الافريقي . ومن ناحية أخرى فهناك حدث مهم قرر مصير الحملة وهو النجاح الأول السهل المتمثل في أخذ بجاية ، الى جانب الاكتشاف الثاني لحلفاء طبيعيين ، من بدو العرب والماليك المصريين ، أعداء كل نظام ، وهي الأمور التي فتحت شهية الميوريين ، وشجعتهم على توسيع حقل تجاربهم أما ما يذكر في المقام الثالث فهو غياب كل معنى للسياسة في أسلوب تصرفهم بالنسبة للبلاد المفتوحة ، من : التخريب المنظم ، وأعمال العنف والنهب ، والغرامات الثقيلة ، ومصادرة الممتلكات والمذابح الجماعية للمغلوبين . كل ذلك يثبت ان الأمر لا يتعلق إلا بمغامرة لا مستقبل لها . ولا أهداف بعيدة ، تماما كما هو الحال بالنسبة لأعمال القرصنة .

والموحدون من جانبهم عليهم ان يحملوا جزءا كبيرا من هذه المسؤولية الرهيبة . هكذا كان التنظيم غير الذكي للبلاد ، وضعف الحاميات ، وشعور عدم الرضا الواضح في كل مكان ، وأخيرا ردود يعقوب الضعيفة ، كل ذلك كان من العناصر الموافقة لنجاح ابن غانية ، انه من الأكيد ان يعقوب المنصور احتقر هذ العصابة من قطاع الطرق في افريقية ، كانت تجبذ قتال "الكافر" الحقيقي في الأندلس ، ولكن هذه الوجهة كانت منحرفة ، لا تحقق أى نوع من العدالة .

## القسم الثاني

# النظم السياسية والإدارية

## النظم السياسية والإدارية

أن قيام الدولة الموحدية ، مع برنامجها المحدد بشكل دقيق ، من : العودة بالاسلام الى نقائه الأول، مقاتلة "الزنادقة" دون رحمة ، سيادة الخير والقضاء على الشر ، مواجهة العدو "الكافر" ، كل ذلك كان عليه ان يؤدي الى تغييرات عميقة فى معظم نظم الدولة التى كانت تعمل حتى ذلك الحين . ورغم ذلك فالظاهر ان كل تلك التغييرات لم تكن تزويقات بسيطة تطلبتها طبيعة الأشياء المستجدة ، والتى كانت تتم أولا بأول تبعا لاستقرار السياسى الوليد . واحقيقة انه كان من الصعب على الموحدين ، وهم الجبليون البسطاء ، ورقة المراطين الصحراويين ، أن يأتوا بإصلاحات عميقة فى مجالات الدين ، والاجتماع والسياسية ، وذلك تبعا لمعارفهم المحدودة ، وافتقارهم لطبقة المستنيرين المؤهلين لتحقيق مثل هذا البرنامج . ومع ذلك فقد نجحوا فى بناء دولة ذات طابع خاص بهم ، وان كانت تشبه كذلك فى خطوطها العريضة الدول الاسلامية الأخرى فى العصور الوسطى ، وبخاصة دولة الأمويين فى الأندلس .

ونحاول فى دراستنا بيان الى أى حد تختلف عن هؤلاء ، وإلى أى حد كان لها خصوصياتها الذاتية .

ولكى نتحدث عن النظم الموحدية على عهد يعقوب ، يكون من الطبيعى التعرض لها منذ بداية الدولة المؤمنية ، والاشارة الى التطورات التى ألت بها على مر الزمن .

### خصائص الخلافة الموحدية:

تعرف الخلافة تاريخيا بأنها السلطة العليا ، روحيا ومدنيا ، المعطاة الى رجل يسمى خليفة ، هو الذى يرعى المؤمنين بصفته نائبا عن النى ، ورئيسا لجماعة المسلمين .

فبعد وفاة النبي أعتبر أقاربه الخلافة وكأنها إرثا أبويا ، أو تركة خاصة لهم الحق الذي لا ينازع فيها . وهذا الادعاء هو السبب في كل الخلافات بين المسلمين ، وهو الذي أدى الى قيام "الفتن" . وهكذا نفهم كيف ان التطور التاريخي لم يكن موافقا ، في البداية على الأقل ، لمطالب خلفاء النبي الشرعيين .

فلقد استفاد الأمويون من الظروف المناسبة واستولوا على الخلافة واحتفظوا بها مدة طويلة . ومع ذلك فلقد قلبهم العباسيون ، وأنشأوا خلافة جديدة ، باسم آل النبي مباشرة . وعلى نفس الأساس كان مطلب الشيعة ، أتباع العلويين رغم أن هذا المطلب مخالف لروح السنة الإسلامية . وحتى الخلافة العباسية كانت السلطة العليا لخليفة النبي ، أمير المؤمنين ، واحدة لا تتجزأ ، كما كانت مطلقة على جميع المؤمنين في كل العالم الإسلامي . وعلى هذه النقطة يتفق العلماء ، والفقهاء بدون تحفظ . ولكنه بعد ذلك سوف يحدث تغيير مطرد على مفهوم الخلافة الواحدة هذا ، والتي يعترف بها الجميع . والحقيقة ان بعض مدعى الخلافة لجأوا الى الولايات المتطرفة وهم يحملون ادعاءاتهم وأفكارهم ، وكلها معارضة لآراء أعوان الخلافة الموجودة في الحكم . وهكذا وجدوا أرضاً مناسبة في الولايات حيث انتشرت الاتجاهات المنفردة والانفصالية الواضحة ، الأمر الذي أدى إلى إنشاء رئاسات خلافية جديدة . وهنا كان على الفقهاء ان يعملوا على تغيير الأسس الشرعية التي تبنى عليها الخلافة لتتواءم مع مقتضى الأحوال المستجدة (١) .

أن خلفاء الفاطميين الشيعة لم يعترفوا حقيقة أبداً بأي خلافة بعيداً عن سلالة علي . وكذلك كان الأمر بالنسبة لخلافة قرطبة التي ادعت وراثه خلافة

(١) ابن خلدون ، المعبر ، ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها . وقارن السنهاورى ، الخلافة (بالفرنسية) ، ص ١٢٥ -



دمشق الاموية . وباستثناء الخلافة الموحدية ، كانت كل خلافة انفصالية تدعى أنها السلطة الشرعية الوحيدة في عالم الاسلام .

وسنحاول ان نشرح ، في ضوء الاحداث لتاريخية ، عياب هذا الأساس الشرعي عند الموحدين . كانت الدولة الموحدية استمراراً للدولة المرابطية . كما كان مؤسسا الدولتين البربريتين مصلحين دينيين متساويين في السلطة وفي مساحة البلاد . والاختلاف الوحيد بينهما يتمثل في ان المرابطين اعترفوا دائما بخليفة المشرق ، على الأقل فيما يتعلق بالمسألة الروحية ، فباسمه كانت تتم خطبة صلاة الجمعة . ونحن لا نعرف إذا ما كان قيام الخلافة الجديدة قد صاحبه اعلان احتفالي مثل الآخرين . فالحقيقة ان عبدالرحمن الثالث الناصر كانت قد أعلنت خلافته احتفاليا ، كما ان الناصريين جردوا هشام الثاني المؤيد من سلطانه . فكيف يفسر اذن السكوت الذي يحيط بإعلان الخلافة الموحدية ؟ هل كان بسبب غياب الوثائق أو افتقادها ؟ هذا ممكن ولكن من الواضح ان المؤلفين المعاصرين يمدوننا بمعلومات دقيقة عن أحداث أقل أهمية من ذلك . ومن الواضح ان الدولة الموحدية لم تكن شيعية . حقيقة ان ابن تومرت اقتبس ، بين أشياء أخرى ، فكرة المهديّة أو الإمام المعصوم من الشيعة ، ولكنه من الواضح أيضا ان الدولة الموحدية كانت الى حد كبير سنية المذهب . ان مؤسس الدولة الجديدة ، محمد بن تومرت ، لم يتخذ لنفسه أبداً لقب الخلافة ، وهكذا لما لم يكن لدى عبدالمؤمن ادعاءات شرعية في الخلافة ، فإن ذلك هو ما يفسر عدم الاحتفال بإعلان الخلافة . ولما أراد عبدالواحد المراكشي ان يفسر كيف كانت البداية الأولى لهذا اللقب عند الموحدين ، يقول

أن عبد المؤمن اتخذ اللقب صدفة أثناء احتفال أدبي<sup>(١)</sup>. وهذا الحدث يعبر عند المؤلف عن فكرة أن عبد المؤمن يأخذ اللقب في احتفال علني رسمي ، وهذا يدعوا الى الظن بأن اتخاذ اللقب الخلافي لم يكن سوى عملية اغتصاب دون أساس شرعي .

وتبعاً لما تركه المؤلفون المعاصرون من الوثائق وكذلك المتأخرون ، فإن الخلافة الجديدة ، وكذلك إمارة المؤمنين ، لا تعبر إلا عن كيان شديد الخصوصية تماماً . إنها ليست أبداً الخلافة الواحدة أو إمارة جميع المؤمنين . إذ أن لقب الخليفة لم ينتحله الأمير الجديد إلا بصفته اللغوية من حيث كان خليفة لابن تومرت : الإمام . أما عن لقب أمير المؤمنين فهو يرجع الى كونه الرئيس العسكري لحماة الموحدين ، الذي عرفوا - دون غيرهم عند ابن تومرت بهذا اللقب ، كناية عن إخلاصهم ونقاء عقيدتهم<sup>(٢)</sup> .

(١) في سنة ٥٥٦ هـ / ١١٨١ م عبر عبد المؤمن العدو لكي يقيم فترة في جبل طارق حيث كبار الشخصيات والأدباء من العدوتين (الاندلسية والمغربية) . وقام أحد الشعراء الذي يسمى الطليق وأنشده قطعة شعرية ، وعندما انتهى الرجل قال عبد المؤمن معجباً : "هكذا يمدح الخلفاء ، وبذلك منح نفسه اللقب . انظر المعجب ، ص ١٥٨ والترجمة ص ١٨٥ . ومن البين هنا أن الأمر يتعلق برواية قصصية . فالحقيقة أن عبد المؤمن كان يحمل اللقب الخلافي كما يظهر في الرسائل الرسمية ، وكذلك لقب أمير المؤمنين<sup>١</sup> . وفوق ذلك فابن صاحب الصلاة يسترسل طويلاً بمناسبة ذلك الاحتفال ، ويعرض الأشعار التي قيلت بهذه المناسبة . وهو يورد القطعة الخاصة باسم الطليق ، ولا يذكر إلا ارتياح عبد المؤمن وكذلك كاتب ابن عياش . وعلى العكس من ذلك وأثناء الاحتفال قام أحدهم ويسمى أبو بكر بن النحل الشلبي الذي سمي في خطابه عبد المؤمن بالخليفة (ورقة ١٣ وجه) ورجل آخر هو أبو العباس أحمد بن سيد الأشملي قال لعبد المؤمن أن خلافته هي الوحيدة الباقية ، وأن غيرها ليست بشيء (ورقة ١٨ ظهر) . ولقد بالغ الرجل في مديحه حتى سمي عبد المؤمن بخليفة الله (ورقة ٤ وجه) وهكذا لا يجب الوثوق كثيراً بالوثائق الأدبية ، حيث نجد في كتاب ابن صاحب الصلاة أن يوسف بن عبد المؤمن كان يسمى خليفة عند الشعراء قبل أن يحمل اللقب بشكل رسمي (ورقة ٤٩ وجه)

(٢) انظر عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٣٧ والترجمة ص ١٦٦ - حيث النص على أنه جعل عبد المؤمن رئيساً لهم ، وهو يقول لهم : انتم "المؤمنون" وأن هذا "أميرهم" ، وأنه منذ هذا الوقت حمل عبد المؤمن لقب "أمير المؤمنين" ، وانظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤٠٧ ، وقارن : فان برشم ، القاب الخلافة في الغرب ، المجلة الآسيوية (Journal Asiatiques) ، باريس ، ١٩٠٧ ، ج ٢ ص ٢٧٩ .

والخلاصة التي نخرج بها هي : أن الخلافة الموحدية كانت كما يمكن ان نقول ، خلافة محلية جديدة . وذلك أن ادعاءاتها في السلطة لم تكن تتعدى حدود الدولة ، كما يقول ابن خلدون ، أي حدود "الأمة الموحدية" (١) . ففي كل الرسائل الموحدية الصادرة باسم الأمراء من ديوان الانشاء ، يكون ذكر عبدالمؤمن بصفته النائب والممثل للمهدي الموحدى : ابن تومرت (٢) .

أما عن خليفة عبدالمؤمن ، وهو ابنه يوسف فإنه سبب معارضة أخوته لم يحمل في بداية ولايته إلا لقب "الأمير" فقط (٣) . ومما يسترعى الملاحظة ان ابن الأثير ، وهو المؤرخ الشرقي ، لا يتكلم عن الحكام الموحدين كخلفاء ، الامر الذي يدعو الى الاعتقاد في أنه كان ينظر إليهم على أنهم "متغلبون" (٤) . أما ابن خلدون فيسميهم أحيانا بـ "السلطين" (٥) . أما عبد الواحد ، والحميرى ، وابن الخطيب فيسمونهم بالأمراء أو بملوك المغرب (٦) . من هذه الأحداث ، والتي ربما لم تكن من الكثرة بما فيه الكفاية ، يمكن ان نستخلص أن الامر

---

(١) العبر ح ٦ ص ١٢٧ - ١٢٨ والترجمة ج ١ ص ٢٥٤ - حيث النص على ان عبدالمؤمن يحق في تقوية سلطته الزمنية والروحية كخليفة للأمة الموحدية .

(٢) انظر : الرسائل الموحدية وانظر معاهدات السلام والتجارة الموحدية ، في كتاب امارى في الوثائق العربية (Diplomi Arabi) .

(٣) انظر ابن صاحب الصلاة ، وما يليها ، وعن اتخاذ لقب أمير المؤمنين ، وما يليها . القرطاس ، ص ١٣٧ والترجمة ، ص ٢٩٦ - حيث النص على انه اكتفى في البداية بلقب "أمير" ، وانه لم يأخذ لقب أمير المؤمنين إلا بعد ان تم الاعتراف بأوامره في كل مكان .

(٤) الكامل .

(٥) العبر ، ح ١ ص ٢٩٠ ، المقرئ ، النفع ، ج ٢ ص ١١٩٠ ، ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ص ٣٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٣٢٠ ، ج ٢ ص ٥٢٩ .

(٦) المعجب ، ص ١٧٥ ، الروض المعطار ، النص ص ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٣٧ وهو ما يتفق عليه السلاوي في الاستقصا ، ج ١ ص ١٨٣ ، الأحاطة ، ج ١ ص ٣٩ ، وأعمال الاعلام ، ص ٣٠٥ - ٥٠٩ . وانظر ايضا ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ٢١٣ ، ورقم الحلل ، ص ٣٤ .

يتعلق بفكرة جديدة عن الخلافة وامارة المؤمنين ، طبقت في دولة الموحدين بخاصة.

ومع ولاية يعقوب المنصور يتحول مجرى الأحداث الى طريق آخر . فبفضل ظهوره كحاكم مطلق ، وجهوده ضد النصارى بالأندلس أمكن تأكيد حقه في لقب الخليفة ، الأمر الذي أتى انتصار الأرك (الاركوس) في سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ليؤكد حقيقة شرعيته الواقعية . وهكذا كان على المعارضة الصماء الآتية من المشرق ، والتي ظهرت الى العلانية أثناء ثورة بنى غانية في إفريقية (١) . أن تبدأ في الخمود . ولم يكن أمام صلاح الدين الذي كان يأمل في استقبال معونة بحرية من المغرب ضد الصليبيين في المشرق ، إلا أن يقبل الأمر الواقع . وإذا كانت الرسالة الرسمية (٢) . الموجهة من ديوان الانشاء المصرى الى يعقوب لا تلقى بالضوء على موقف صلاح الدين بالنسبة الى الاعتراف باللقب الخلفى في المغرب ، فإن سفيره الى المنصور ، وهو ابن منقذ ، لم يتردد في إضفاء لقب أمير المؤمنين على بطل الاسلام المغربى . ففي قصيدة شعرية ألقاها ابن منقذ في حضرة يعقوب ، يقول : فمئذ أمير المؤمنين ولم نزل بحضرتك الغراء تأتى الرواحل ؟ (٣).

والحقيقة انه عقب الحملة المظفرة في سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) كان على يعقوب ان يحمل بجدارة ولأول مرة ، بخلاف ما كان الحال عليه ايام والده

(١) انظر فيما سبق .

(٢) قلقشدى ، ج٦ ص ٥٢٦ وانظر جودفروا ديموبين ، رسالة من صلاح الدين ، منوعات (Melanges) هـ .

باسيه ، ج٢ ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) أبو شامة . ج٢ ص ١٧٤ - حيث اللقب في نفس الشعر "أمير المسلمين" ، بينما هو عبد السلاوى في الاستقصا (ج١ ص ١٧٥) "أمير المؤمنين" وانظر كتاب الاستبصار حيث مؤلفه الموحدى المخلص يعتبر ان رسالة صلاح الدين تعتبر علامة خضوع من حاسبه "لأمير المؤمنين" يعقوب ، واعترافاً بالخلافة المغربية (الاستبصار).

وحده ، اللقب الخلافي " المنصور بفضل الله " (١) . وبعد هذه الحملة المظفرة بدأت الخلافة الموحدية تفقد صفتها المحلية لكي تأخذ شكل الخلافة الواحدة التي لها السلطة على جميع المؤمنين في عالم الاسلام . وهكذا كشف المنصور الى المقربين منه من رجال الحاشية ، عزمه على السير الى المشرق ومصر (٢) . وحتى بعد اضمحلال الدولة الموحدية وتفككها كان مدعوا الخلافة الموحدية عادة ما ينتسبون مباشرة اليه (٣) .

وهكذا يمكننا القول في الختام ان الخلافة الموحدية بعد ان أخذت في البداية ، تحت حكم الأميرين الأولين ، شكلا محليا كان يعاكس شرعيتها ، فإنها انتهت على عهد المنصور بالمطالبة بالنسبة لجميع العالم الاسلامي ، بحقوق كانت تزداد أكثر فأكثر .

---

(١) من الصحيح ان عبد المؤمن رأى ان يحمل اللقب الخلافي : " القائم بأمر الله " (انظر دي ساس ، مذكرات عن بعض النقود العربية الذهبية للموحدين ، فان برشم ، القاب خلافيه بالمغرب ، الملة الآسيوية (J.A.) ١٩٠٧ ص ٢٧٩) ، ولكن لا الرسائل الرسمية ، ولا المؤرخون تعطيه هذا اللقب .

(٢) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٠٦ . وفي نظر ابن جبير الذي كان في مصر على عهد يعقوب كانت جميع الدلائل تشهد على انه سيضم مصر والمشرق الى الدولة الموحدية ، وان المصريين أنفسهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر وصول المؤمنين الحقيقيين . وكل ذلك يعبر عن آماني ابن جبير كموحدي متعصب لمذهبه التوحيد المغربي (الرحلة ، ص ٥٣ ، ٧٨ ، ٧٩)

(٣) هكذا كان من يسمى ابن وجان يعبر عن أساء ، بالنسبة لبني جامع وهو يقول لسعاد بن المنصور : " أرى انهم أبعدا من الإمامة أبناء سيدنا المنصور " (الروض المبطر ، ص ٦٨) وكذلك كان الأمر أثناء الصراع بين المأمون بن المنصور ، وابن أخيه يحيى بن الناصر ، إذ انتسب كل من المتنافسين الى المنصور مباشرة . وكذلك كان الأمر بالنسبة للشاعر عرابي عبد الله محمد بن الصغار الذي هاجم المأمون وهو يوجه الكلام الى يحيى قائلا : اذا كانت وراثة المنصور موضع خلاف من أحد القرابة ، فقل : " ان ابن نوح (إشارة الى ابن المنصور : المأمون) هلك في قمة المنكر " وانه : إذا كان (المأمون) يقول : " أنا عمك " فرد عليه ان " عم النبي هو من غير شك أبو لهب " ( المغرب في حلى المغرب ، المخطوط ، ج ١ ورقة ١٠٢ ظهر) .

## نظام الحكم في الدولة

### السمات العامة:

ان الذى يميّز الخلافة الموحدية ، كما هو الحال بالنسبة لأية خلافة فى ذروة قوتها ، هو الحكم المطلق فى ممارسة سلطات الإمام أو أمير المؤمنين من ناحية ، والمركزية المفرطة ، التى يترتب عليها ان تؤول الى بلاط الأمير القسم الأكبر من شئون الدولة ، من ناحية أخرى . وبفضل السلطة الكلية التى يمتلكها الخليفة ، فهو الذى يقرر وحده الأمور بشكل نهائى . ويدل مسار الأحداث على ان مجلس "العشرة" ، ومجلس "الخمسین" وكذلك "الطلبة" أو "الحفاظ" ، لم يكونوا رؤساء الحكومة أو الهيئات الرئيسية فى ادارة الدولة ، وذلك أن مجالسهم أو مؤتمراتهم تحت رئاسة الأمير ، كانت تقتصر فى كثير من الأحيان على الموافقة على القرارات التى اتخذها العاهل بنفسه .

### قصة مراکش أو القصر الخلفى:

لما كان كل شىء فى الدولة يعود الى الخليفة ، كان من الطبيعى ألا يكون لديه من أجل معاونته فى ممارسة سلطاته إلا إدارة بدائية نوعا ما . وهكذا ، فليس من المستغرب ان يكون القصر أو المسكن الخلفى مختلطا بمركز الحكم ، حيث لا تفرقة بين خدمة الخليفة الشخصية والخدمة العامة فى الدولة .

ففى وسط مدينة مراکش الخلافة التى تعرف بقصة مراکش أو قلعتها ، والتى كانت قد أنشئت من أجل يعقوب المنصور ومن أجل حاشيته اللصيفة به ، كان يوجد قصر الخلافة . والى هناك كان الخليفة يذهب كل صباح ، مبكراً ، فهناك كانت توجد خادمية البلاط . وهناك كان يوجد أيضا بناء آخر مخصص لوزير الجند ، ومكتب لرئيس الشرطة ، وجامع ، كما كان يوجد

## معسكر الحامية (١).

لما كان الخليفة وهو على رأس قواته يقود الحملات من افريقية الى الاندلس ، كان القصر الخلافي يتوقف وقتئذ عن ان يكون مركز الحكومة ، فهذا المركز كان يتنقل عندئذ مع صاحب الامر. وبناء على ذلك ، كان يحدث ان يكلف بالسفارات وحتى بالخدمات النظامية المحيطون بالأمير من رجال الحاشية ، من : الأبناء ، والأقارب أو الخدم ، ممن كانوا يتبعونه في الحرب أو يحرسونه في جولاته المختلفة.

ومن أجل أداء الأعمال المختلفة ، كان تحت يد الأمير عدد الإدارات الحكومة التي يمكن تصنيفها في ثلاث طبقات ، هي :

- ١ - حاشية المقربين من الخليفة ، وتتكون من الحجاب والوزراء ، والكتاب.
- ٢ - مجالس الدولة المكونة من رؤساء الموحدين ، من : المشايخ والطلبة والحفاظ.

٣ - الهيئات التي يقع على عاتقها الإدارة العامة للدولة ، مثل : إدارات الشؤون الدينية ، والقضائية ، والعسكرية ، والمالية ، وغيرها.

ومن بين هذه الهيئات كانت المجموعة الثانية وحدها ، التي تعتبر ابتكاراً أصيلاً لابن تومرت الذي أعطى الدولة الموحدية طرازها الخاص بها ، حيث تظهر سماتها المميزة في أجلى مظاهرها.

## الحجابه:

لا يوجد أى شبه هنا مع مرتبة الحجابه السامية لدى الأمويين الأسباب . ففي

(١) رواية ابن سعيّد ، كما توجد في مسالك العمري ، الترجمة ، ص ١٢٩ ، ٥٩٩ - حيث القصبة ( القلعة ) عبارة عن مدينة حكومية حقيقة ، حيث توجد مكاتب الإدارات العامة المختلفة ، وهي ابتكار موحدى فقد كان يوجد بها كل مدينة كبيرة ، حيث يكون للحاكم قصبة في عاصمة الاقليم . تحوى مسكنه ومسكن الحاشية ( هيئة حكومته ) ، والمكاتب الرسمية ، والمسجد الجامع ، ومعسكر حامية المدينة . فلان د. برونشفيج ، بلاد البربر الشرقية على عهد الحفصيين ، ج ١ ص ٣٤٢ .



الأندلس كان لقب الحاجب يعادل لقب "رئيس الوزراء" على أيامها هذه .  
وهكذا كانت مرتبة المنصور بن أبي عامر الذي كان يحمل هذا اللقب ، عالية  
حقا .

وعند الموحدين لم تكن الحجابة مصنفة بوضوح بين غيرها من الرتب ،  
ولكن من المحتمل انها لم تكن رتبة بين الوظائف العليا . وفى البداية لم تكن  
الأسرة الحاكمة فى حاجة الى حاجب ، ولكن تطور الدولاب الحكومى املى  
على الأمير اتخاذ واحد دون ابطاء . فعلى عهد يوسف الثانى من بين الامراء ،  
ظهرت وظيفة الحاجب لأول مرة . وأول حاجب اتخذه يوسف هو "كافور  
الخصى" (١) ، وكان للمنصور بدوره حاجبه "عنبر الخصى" ، ثم "ريحان  
الخصى" ، وأخيرا ابنه هو نفسه : أبو عبدالله محمد (٢)

وحقيقة ان المنصور عهد بهذا المنصب الى خصيائه ، كما كان الحال  
بالنسبة لوالده ، وكما سيكون الحال على عهد خليفته ، كل هذا يدعوا الى  
الظن ان هذا المنصب لم يكن مصنفا بين الوظائف العالية . وهكذا تكون  
وظيفة الحجابة قد فقدت صفتها كوظيفة عامة على عهد الموحدين ، لكى  
تصبح وظيفة خاصة بخدمة الأمير أو بمعنى آخر خدمة القصر ، وذلك أنه كان  
من المعروف ان الخصيان كانوا يقومون بالخدمة الخاصة فيما يتعلق بالشئون  
المنزلية فى قصر الأمير .

ويمكن القول أنه على عهد يعقوب المنصور وخلفائه لم تكن واجبات  
الحاجب من أعين مخصصات الدولة ، وذلك أنها كانت تقتصر على عدم

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٦ . وبما يلاحظ ان صاحب القرطاس (ص ٢٣٥ والترجمة ، ص ٢٩٠ -  
٢٩١) يخطئ عندما يستخدم مصطلح "حاجب" الأندلس عندما يخطيه للسيد أبى حمص عمر ، أخى  
يوسف ووزيره ، والحقيقة ان هذا الأخير كان يشغل وظيفة الوزير منذ حياة عبدالمؤمن ثم على عهد خليفته  
وأخيه أبو يعقوب يوسف . انظر ابن صاحب الصلاة ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٤٢ ، ١٧٣ .  
(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٠ .

السماح بالدخول الحر أى غير المنظم على الأمير. ومن المؤكد ان هذه الرتبة كانت أقل شأنًا من رتبة الوزير ، وكذلك أقل من رتبة الكاتب ، والدليل على ذلك هو ما يلاحظ من اسناد وظائف الوزارة والكتابة التى كانت موجودة الى جانب الحجابة ، كانت تسند الى رجال من ذوى الكفاءات المتخصصة - حقا (١) ،

## الوزارة:

أما عن لقب الوزير فهو من الألقاب الموحدية منذ خلافة عبد المؤمن (٢). وفي البداية أسند عبد المؤمن هذا المنصب الى أبى حفص عمر أصناج حتى الوقت الذى بدأ يحقق فيه استقرار دولته . وهنا يمكن التأكيد على أن الوزارة ، فى نظر عبد المؤمن ، كانت أسمى وظائف الدولة ، من حيث كان أبو حفص واحدا من أكبر شخصيات الموحدين . وبعد ذلك رفع عنه هذا العبء الذى اعتبره غير لائق بمقام الرجل ، وعهد به الى أبى جعفر بن عطية الذى جمع بين وظيفتى الوزير والكاتب ، الأمر الذى أدى الى اختلاط كل من المنظمتين . وهذا الأمر يمكن أن يفسر بندره الرجال من أهل الأدب والثقافة ، وذلك أنه بعد فتح بجاية ، عهد بالكتابة الى أحد سكان تلك البلدة ، وهو : القلمى . وظلت الوزارة بين يدى أبو جعفر بن عطية حتى قتله عبد المؤمن (٣).

وعلى عهد يعقوب لم تكن اختصاصات الوزير واضحة المعالم . والمتصور نفسه كان يمارس وظيفة الوزير فى حياة والده . فكان يعالج كل أعمال الدولة ، من : مراقبة الولاة ، وجباة الضرائب وإدارة القضاء .. الخ (٤) . أما عن

---

(١) ولهذا السبب ينكر ابن خلدون حتى وجود تلك الوظيفة لدى الموحدين (العبر ، ج ١ ص ٢٠١).

(٢) انظر فيما سبق ، ١٠٨ و ٢ ، البيهقي ، ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٤٢ . وعن ابن عطية ، انظر ليفى سرفنست ، رسائل موحدية

رسمية ، الدراسة ص ٥ والهوامش .

(٤) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٧٥ ، ١٨٩ .

الشخصيات الذين مارسوا هذا المنصب على عهده ، فمنهم : أبو بكر يحيى الذى صحب الأمير الى الأندلس ، ورفع راية الجهاد ، واستشهد فى ميدان القتال فى معركة الأرك (١) . وهذا الحدث بالغ الأهمية اذ يظهر لنا كيف ان واجبات الوزير يمكن ان تتعدى الأمور المدنية الى المهمات العسكرية فالوزير يتبع الأمير دائماً فى اجتماعات المجالس ، وفى المواقب الاحتفالية ، ومهام التفتيش ، والصلوات الاحتفالية .. الخ (٢) . وحقيقة ان هذه الوظيفة كانت واحدة فقط ، الى جنب طبيعة الحكم المطلق من قبل الأمير ، كل ذلك كان يبين تعدد اختصاصات الوظيفة من مدنية وعسكرية (٣) .

### الكتابة

بعد وظيفة الوزارة تأتى وظيفة الكتابة ( أو الكاتب ) وهى أقدم الوظائف فى تاريخ الاسلام .

وعلى عهد عبدالمؤمن ، اختلطت هذه المنظمة أو الخطة أولاً ، كما سبقت الإشارة بالوزارة ، وذلك عندما أخذ أبو جعفر بن عطية الذى كان كاتباً لقب الوزير أيضاً . ولكنه عندما أعفى أبو جعفر من الكتابة ، أصبحت هذه الأخيرة

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٩ ، ٢٠٥ ، وانظر فيما سبق ، ص ٤٨ ، ونفس الوزير كان صاحب الشرطة ، انظر فيما بعد ، ص ١٤٦ .

(٢) حسب الرسوم الموحدة ، كان الأمير يقوم عقب كل احتفال بالدعاء ويؤمن عليه الوزير - عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٤٩ ، ٢٥١ .

(٣) وكل ذلك يدعو الى الظن ان لقب الوزير لم يكن حكراً خالصاً لصاحب اللقب فى العاصمة : مراکش . فقد كان هناك من رجال الدولة من يحملون اللقب فى الولايات . فابو بكر بن رهر ، الطبيب الخاص بالأمير والذى كان يقضى معظم وقته فى الأندلس كان يحمل لقب وزير (القرطاس ، ص ١٣٣) . وكبار الموظفين الذين كانوا يعاونون أبناء عبدالمؤمن فى حكم الولايات كانوا يسمون بانوراء (اسطر هامش ص ١٥) . ومن هذا الامر يمكن ان نستنتج أنه باستثناء وزير مراکش ، كان الأمير معشداً على اعطاء اللقب الى بعض الرجال من كبار العاملين فى الولايات ، وان هذا اللقب لم يكن إلا شرفاً .

ومع مرور الوقت تطورت هذه المنظمة واخذت شكلاً آخر . فعند اصمحلال الدولة الموحدة ، نجد فى الدولة الحفصية ٣ (ثلاثة) وزراء أحدهم هو وزير الجند ، رئيس المنظمة العسكرية ، والثانى هو وزير الاشغال المختص بالادارة المالية ، والثالث هو الوزير كاتب الدولة حقاً ، رئيس ديوان الاشياء ، ورئيس الشرطة . انظر ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ٢٠١ ، ج ٦ ص ٣٧٥ ، والعمرى ، المسالك ، الترجمة ، ص ١١٧ .

خطة مستقلة من جديد .

وعلى عهد يعقوب المنصور نتقى بنوعين من الكتاب ، أولهما كاتب الدولة (الانشاء) حقيقة ، والآخر كاتب الجند الذى يختص بالامور العسكرية تماما (١) .

ويجب البدء أولا بتحديد الاختصاصات المائعة لاحد الديوانين وهو ديوان الانشاء . ونشاطه من حيث المبدأ هو اصدار الرسائل الرسمية .

فالخليفة من حيث كونه رئيس أعلى للجماعة الاسلامية مطالب حسبما تقضى وظائفه باصدار الوثائق التى تعبر عن سلطاته السيادية . وهذه الوثائق التى تصنف تبعا لطبيعتها المختلفة تبعا لمحتواها ولطبيعتها القانونية ، وهى عادة ما تسمى بمصطلح "الكتب أو الرسائل" ، وهو المصطلح الذى ليس له قيمة رسمية . فاصدارها من اختصاص الديوان . ولكى ندرس هذا الديوان على عهد المنصور ، يجب دراسة عدد من الوثائق الرسمية ، المنشأة بإسمه والصادرة عن خدمات الديوان . وفى هذا المقام ، فإن مجموعة الرسائل الموحدية (٢) ، الى جانب غيرها من الرسائل المعروفة من قبل (٣) ، تجعل الأمر من السهولة بمكان ، ففيما يتعلق بتنظيم الديوان ، من جهة ، كالقواعد المتبعة بدقة من أجل إنشاء الرسائل الرسمية ، ومن ناحية أخرى ، من حيث دراسة الرسم : الشكل أو المضمون القانوني .

والرسالة تصدر دائما باسم الأمير الموحدى ، بصفته أمير المؤمنين ، دون إشارة محددة الى اسمه أو كنيته أو لقبه . بعد ذلك يأتى إسم الموجهة إليهم ، ثم التسليم تتبعه الحمدة والتصلية على شرف النبي والدعاء للمرسل اليهم ، وتحديد مكان الكتابة وبعض عبارات تعبر عن عمل اللطف والطاعة للألوهية . وبعد ذلك يأتى القسم الهام من الرسالة ، ويشتمل مرة أخرى الدعاء

(١) هذه الخطة لمزدوجة بدأت على عهد يوسف أبى يعقوب انظر عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٧٦ .

(٢) ١. ليفى - بروفنسال ، الرباط ، ١٩٤١ ، والدراسة ، باريس ، ١٩٤٣ .

(٣) انظر ما سبق ، المقدمة ، ص ٦ .

للمحاطبين ، والهدف من الرسالة . وأخيراً تأتي الخاتمة ، والتي تنتهى عادة بتأكيد الوحدةانية الإلهية تتبعها عبارة السلام . ويظهر تاريخ الإنشاء فى النهاية تماماً . هذا ، ويمكن ملاحظة بعض الخصائص ، مما أشار اليه أ. ليفى - بروفنسال (١) ، مثل :

- أ - استخدام صيغة الجمع فى الخطاب .
  - ب - كثرة العبارات الاستعطافية فى صلب الرسالة .
  - ج - الأسلوب المبهرج والعبارات الطنانة .
- واعتباراً من عهد يعقوب المنصور ، تدخل عبارة جديدة فى صدر الرسالة ، بعد ذكر مكان الإنشاء ، إنها الوصية (٢) .

ولكى تأخذ الرسالة شكلها النهائي ، فيجب عليها أن تحمل إشارة تسمى العلامة ، يجب ان توضع على أصول الرسائل التى يصدرها ديوان الإنشاء . ففى سنة ٥٦١هـ ( ١١٦٥ - ١١٦٦ م ) يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، أنه اتفق على ان يكتب الأمير أبو يعقوب ، ابن الخليفة أمير المؤمنين ، بيده هو "العلامة المباركة" ، وهى عبارة : "الحمد لله وحده" ، وأن الأوامر الأميرية العليا لن تكن نافذة إلا بتلك الإشارة (٣) . ويضيف ابن خلدون الذى ينقل نفس الرواية ، ان تلك الإشارة كانت تضاف بمعرفة المهدى فى بعض إصداراته ، وأنها استخدمت بعد ذلك كعلامة للموحدين حتى نهاية الدولة (٤) . وفى عهد أبى يوسف المنصور كان الأمير يكتب العلامة بخط يده نفسه (٥) ، ولكنه

---

(١) الرسائل الموحدية ، الدراسة ص ١٥ وما بعدها .

(٢) رسائل موحدية ، الدراسة ، ص ١٧ .

(٣) المنى بالأمانة .

(٤) العبر ، ج ٦ ، ص ٢٣٩ ، والترجمة ، ج ٢ ص ١٩٧

(٥) ويذكر مؤلف القرطاس (ص ١٤٣ ، ابن أبى دينار ، ص ١١٤ ) ان يعقوب كان اول من كتب

العلامة بيده هو نفسه .

يملك في نفس الوقت خاتماً ، حيث نقش فيه : "عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ" ، وهي الحملة التي كانت رمزا للموحدين (١) . وأضاف الناصر ابن المنصور الى ذلك : "هو حسبي ونعم الوكيل" (٢) . ولكننا نظن ان هذا الخاتم كان مجرد شعار للأمير ، وانه لم يستخدمه في ختم الأوراق الرسمية أبداً (٣) .

### مجالس الدولة :

الى جانب تلك المنظمات الحكومية ، من الوزارة والحجابه والكتابة التي تعطى الدولة شكلا مركزيا مطلقا ، كان الأمير يتصرف في عدد من المجالس أو المجالم التي تساعد في حالات الضرورة التي تتطلب الإجماع الوطني .

### مجلس العشرة :

ولنتطرق أولا إلى مجلس العشرة الذي يعرف باسم "أهل العشرة" أي مجمع العشرة . هؤلاء العشرة يمثلوا حاشية المقربين من الأمير الموحدى . وهم يكونون العشرة الأوائل الذين اعترفوا برسالة المهدي : ابن تومرت . وكان لعبدالمؤمن الذي كان عضوا في هذا المجلس مكانة خاصة . فقد كان المهدي يسميه "صاحب الوقت" (الوقت المناسب) . وكان له وحده امتياز ركوب حصان أسود (٤) . ونحن نلاحظ أن المؤرخين لا يتتبعون تطور هذا المجلس عبر الزمن ، ولكنهم يكتفون بذكر العشرة : أصحاب محمد بن تومرت . ومع ذلك فكل الدلائل تشير الى أنه كان لهذا المجلس مكانة هامة طوال الوقت ، كما كان على عهد ابن تومرت ، وأنه كان واحدا من أعلى المنظمات في الدولة الموحدية . وعلى عهد الحفصيين كان ذلك المجلس ينقسم الى جماعتين

---

(١) القرطاس ، ص ١٤٨ .

(٢) القرطاس ، ص ١٣٣ ، وفارن ح . ديمومبين ، مقدمة كتاب المسالك للعمري ، ص ٣٨ من رقم المقدمة .

(٣) البيدق ، ص ٣٣ والترجمة ، ص ٤٨ .

(٤) البيدق ، ص ٣٣ والترجمة ، ص ٤٨ .

، الأولى فى رتبة أعلى من الثانية ، وكانت تتكون من ٣ ( ثلاثة ) شيوخ ، وكانت الجماعة الثانية ٧ ( سبعة ) أشياخ . وإذا كانت المعلومات التى يقدمها الكتاب عن مجلس العشرة ليست واضحة تماما ، فإنه يمكننا على الأقل تقرير أن وجود حماعتين فى داخل ذلك المجلس أمر يعود الى بداية الدولة الموحدية (١) .

### مجلس الخمسين :

والمجلس الثانى هو مجلس الخمسين (٢) . ولهذا المجلس أهمية خاصة من حيث أنه يتكون من رؤساء القبائل ، وأعيان أهم القبائل الذين يسودون كل جماعة التوحيد . أنه أشبه ما يكون بالمجلس الوطنى فى الدولة الحديثة أو بالمجلس التنفيذى لأحد الأحزاب القوية ، حاليا .

إن عدد الممثلين للقبائل المشاركة فى هذا المجلس يختلف حسب الأهمية لكل قبيلة . وهكذا كان عدد أعضاء قبيلة أهل تيممل ، مهد الدولة الموحدية ، كان يتراوح ما بين ١٤ ( أربعة عشر ) أو ١٩ ( تسعة عشر ) (٣) ، بينما كان عدد مندوبى القبائل الأخرى يصل الى ما بين واحد وثمانية (٤) . إن مجلس الخمسين ، رغم أنه يتكون من رؤساء القبائل الموحدية ، فإنه من حيث الطبقة أقل من مجلس العشرة . والمهم أن الخليفة ، فى آخر الأمر ، -والذى يقرر وحده كصاحب الكلمة الأخير- ، على أساس أنه صاحب

(١) انظر العمرى ، مسالك ، مقدمة ، ص ١٣ ، ١٤ ، والترجمة ، ص ١٨٥ .

(٢) يلاحظ أن المؤلفين عندما يقدمون عدد أصحاب هذا المجلس يختلفون فى تعداد ما بين ٤٠ ( أربعين ) و ٥٠ ( خمسين ) فردا . البيدق ، ص ٣٣ ، الترجمة ص ٥١ ، والتاريخ المجهول فى منوعات ر.ياسيه ، ١٩٢٥ ص ٣٤١ ، القرطاس ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٣٥ - ١٣٩ .

(٣) المؤرخ المجهول ( حسب ابن صاحب الصلاة ) ، منوعات ر.ياسيه ١٩٢٥ ، ص ٣٤١ ، البيدق ، ص ٣٣ ، الترجمة ، ص ٣١ .

(٤) نفس المصدر .



## الطلبة والحفاظ :

أما عن الطبقتين التاليتين ، فهما طبقة الطلبة (ومفردها طالب ) وطبقة الحفاظ (ومفردها حافظ ) . ولقب الطالب أعطاه ابن تومرت الى أتباعه وبنى رؤساء الجماعات الذين التفوا حوله لتعلم مذهب التوحيد . ولما كنا نعرف ان عبدالمؤمن كان واحداً من أوائل اتباع ابن تومرت ، فتستطيع القول أنه كان واحداً من أوائل من حملوا لقب "طالب" . أما بالنسبة لبقية أتباع ابن تومرت من أبناء الشعب الذى اعترفوا بإمامته الروحية ورئاسته الدنيوية فقد سماهم "الموحدون" . وهكذا لا ينبغي ان نستنتج أن "الطلبة" كانت لهم مهمات محددة أو أنهم كونوا فى بداية الأمر تنظيمًا خاصاً له خصائص معينة . فحسب اشتقاق الكلمة كان الطلبة هم الذين يدرسون علوم التوحيد ، ويعرفون كتب الدين ، ومجموعات كتب الحديث التى ألفها المهدي لأتباعه . وهم يمكن ان يكونوا أعضاء فى مجلس العشرة أو مجمع الخمسين . وكانت اختصاصاتهم تتنوع حسب مقتضى الحال ، من العمل : بالدعوة ، أو حكومة الأقاليم أو القيادات العسكرية من برية وبحرية (٢) .

ولكنه على عهد عبدالمؤمن أصابت هذه الطبقة تغييرات أساسية . لقد

---

(١) ان التاريخ المجهول المعنون بالحلل الموشية (ص ٥٨) ، يقرر بمناسبة التدرج الموحى الطبقى فى حالة المغرب ، أن الطبقة الثالثة التى تاتى بعد أهل خمسين كانت "مجلس السبعين" ، وكأنه من المحتمل ان تكون هناك طبقة على ذلك النحو . والظاهر ان صاحب الحلل يأخذ معلوماته من التاريخ المجهول المؤلف لها الذى حقق ونشر بمعرفة أ. ليفى . بروفنسال (متوعات ، ر. باسيه ، ١٩٢٥ ، ص ٣٤١) وهنا نجد موضعاً للقول ان ابن الخطيب فى جزئهسمى رقم الحلل (ص ٥٤) يذكر تلك الطبقة من أهل سبعين ، فى الطبقة الخمسين .

(٢) من ذلك أن من يسمى : ابو محسن وسنار أو ابو حفص عمر بن قفراجين اللذين كانا على التوالي واليين لمراكش ، كانا عضوين لكل من مجلس العشرة ومجمع الخمسين . انظر ، البيدق ، ص ٥٢ ، ١٩٦ والهامش ، رسائل موحدية ، الدراسة ، ص ٣٣ .

أصبح الطلبة يكونون طبقة الولاة والرؤساء العسكريين . والحقيقة ان عبدالمؤمن جمع حوله أبناء رؤساء الموحددين ، وعمل على تربيتهم مدنيا وعسكرياً حسب برنامج تربيوى خاص ، وجعلهم يخلفون آباءهم فى الحكومة ، فخلق منهم نوعاً من الطبقة الادارية الحسنة التأهيل ، والأكثر طاعة والأقل خطراً (١) .

وهؤلاء الطلبة حملوا فى أول أمرهم لقب الحفاظ (ومفردها حافظ) : نسبة الى حفظ القرآن ، أول خطوات التعليم وقتئذ . وهكذا انقسمت طبقة الولاة الى طبقتين ، هما : الحفاظ فى بداية التدريب المهنى ، ثم الطلبة ، وهم الأكثر ارتقاءً فى مراتب التنظيم ، والتي يرتقى اليها طبقة الحفاظ ، بعد فترة زمنية محددة ، أو حسب الظروف بعد تقديم خدمات مرموقة .

وهنا يمكن ان نلاحظ ان طبقة الطلبة تنقسم الى صنفين : "طلبة الموحدين ، طلبة الحضر" . حدث ذلك بعد أن أخذت قبائل مصمودة لقب "الموحدين" ، فقسم عبدالمؤمن الطلبة الى هذين الصنفين (٢) . وهذا التقسيم كرس التفرقة بين كل من طبقتى "طلبة الموحدين" ، وغيرهم علماء القبائل الأخرى ، ممن كانوا من الأحلاف أو من أبناء البلاد الخاضعة (٣) .

### أجهزة الدولة الأخرى :

لما كان بناء الدولة قائماً على الاسس الدينية لم يكن من المستغرب ان تكون الأمور الدينية دائماً ، موضع اهتمام الأمير المباشر . فعن طريق الرسائل التى كان يصدرها الأمير من وقت الى آخر ، والموجهة الى كل ولايات الدولة ، كان الأمير يلح على الواجب الضرورى على كل الرعية الموحدية فى احترام

(١) انظر ابن الأثير ، ج ١١ ص ١٤٠ ، اخلل الموشية ، ص ١٢٥ .

(٢) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٤٤ .

(٣) نفس المرجع .

تعاليم مذهب التوحيد . وهكذا كان حريصاً على ادارة السياسية الدينية بنفسه مباشرة .

### إمامة الصلاة:

كان ابن تومرت قد اتخذ عادة الإنابة عنه في إمامة الصلاة بسرعة ، فقد كان يوكل عنه لإمامة الصلاة أحد أصحابه ، وهو : الشيخ أبو زكريا الدّرعى (١) . واستمر هذا الأخير في شغل وظيفة الامام على عهد الخليفة عبدالمؤمن ، وعلى عهد يوسف أيضا .

ولكنه ، وفي بداية عهد أبي يوسف يعقوب المنصور ، إلا يركن الى الإنابة في إدارة الصلاة باسمه ، بل أراد السير على نهج الخلفاء الراشدين في إمامتهم للصلاة بانفسهم . ومع ذلك أفلم يكن من الأمور الصعبة للامير المثل بمهام الدولة الزمنية دون الحديث عن مهامه الشخصية ، ان يقوم بنفسه باداء المهام الدينية التي يمكن ان يعهد بالقيام بها الى غيره ؟ ان توالى الأحداث أثبت بحق أنه افتقد حسن التصرف ، ووضوح الرؤية بالنسبة لهذا الأمر ، وبالتالي فإنه اضطر الى تغيير توجهه في هذا المجال (٢) .

ونحن ندين لعبدالواحد في وصفه للاحتفال بصلاة الجمعة حسب قواعدها وشكلياتها الرسمية (٣) . فبعد صلاة قصيرة ، يجلس الإمام (٤) . ويقوم أحد خدمة الجامع بقراءة ١٠ (عشر) آيات من القرآن . وعندما يآزف وقت الصلاة يطلب رئيس المؤذنين السماح للخطيب بالصعود الى المنبر . وعندئذ تبدأ الاحتفال برسوم الصلاة الشكلية ومضامينها الشرعية . فيدعو ٣ (ثلاث) من المؤذنين الى الصلاة الواحد بعد الآخر ، ثم يقوم الخطيب ويبدأ

(١) البندق ، ص ٣٧ ، والترجمة ، ص ٥٨ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ ، ص ٢٤٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٤) في هذه الصلاة يقوم الامير باداء ركعتين ، عبدالواحد ، ص ٢٥٠ .

الخطبة بالحمدلة تتبعها الإستعاذة . ثم تأتي بعد ذلك الشهادة ، يتبعها الدعاء للحضور . ثم بعد ذلك يقرأ سورة قاف (١) . جميعها ، حيث ينتهي القسم الأول بين الخطبة . وبعد فترة يقف الخطيب للقاء النصف الآخر من الخطبة التي تبدأ بحمدلة ثانية تتبعها استعاذة أخرى ، وشهادة ثانية . ثم تأتي التصلية ، واستنزال الرحمة على النبي والبركة ، وعلى آله وصحبه ، وكذلك على الإمام ابن تومرت : محمد بن عبد الله (٢) ، القرشي ، الحسني ، الفاطمي ، المحمدي (٣) ، وعلى وريث شرفه ، الإمام عبد المؤمن ، وعلى أبي يعقوب خليفته ، وعلى " المجاهد في سبيلك " ، الخليفة الامام أبو يوسف بن أمير المؤمنين ، وولي عهده . وبعد ذلك يأتي دعاء من أجل الخليفة ، يتبعه آخر من أجل الموحدين ، وبه تنتهي الخطبة . وينزل الخطيب ، ويؤم الصلاة . وبعد الصلاة يقوم الأمير نفسه بدعاء أخير ، ويؤمن على دعائه الوزير بصوت مرتفع .

وهكذا يذكر رسم الخطبة وشكلها القانوني بالخطابات الرسمية الموحدية (٤) . في خصائصها التقنية .

(١) السورة ٥٠ من القرآن ونفس هذا التقليد ، المنسوب إلى يعقوب سيستمير على عهد الحفصيين بإفريقيا قارن ، ر . برونشفيج ، ونفس بلاد البربر الشرقية . على عهد الحفصيين ، ج ٢ ص ٢٢ .  
(٢) نفس اسم الرسول وهو الأمر الذي لا ينبت امام التحقيق الدقيق . فهو لم يتخذ هذا الاسم إلا عندما صار إماماً مهدياً ، عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٣٣ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٢٥ ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦١ ، الحلل ، ص ٨٤ ، وانظر البيدق ، ص ٢١ ، ٣٠ ، والترجمة ص ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، الفرطاس ، ص ١١٠ ، الزركشي ، ص ٢ ، ابن أبي دينار ، ص ١٠٧ ، وقسارن . ليفي - بروفنسال ، ابن تومرت وعبد المؤمن الكتاب التذكار له - باسيه ، ١٩٢٨ ، ص ٢١ .

لما كان ابن تومرت من اصل بربري فإنه اضطر من أجل اتخاذ المهدية ان يصطنع لنفسه نسباً علوياً ، انظر فيما بعد ، ص ٢٠٤ .  
انظر فيما سبق ، ص ١١٣ .

## تنظيم الجيش وخدماته :

بعد الأمور الدينية تأتي حسب ترتيب الأهمية الأمور العسكرية . وكما هو الحال في الدول الإسلامية الأخرى ، من الصعب رسم خط فاصل بين المنظمات المختلفة . وذلك أنها تختلط بعضها ببعض وخاصة مع الإرتفاع في السلم الوظيفي في الدرجات العليا . والمثل على ذلك ، ودون البحث بدقة في العلاقات بين مختلف المنظمات ، فليس من الغريب ان نجد وزير يستشهد في ميدان القتال ضد النصارى وان نجد "طالباً" أو "حافظاً" يمارس وظيفة عسكرية .

واذا كان كل موحد بمعنى كل عضو في جماعة الموحدين ، له مكانه الخاص "بالأمر الواقع" في سلم التنظيم العسكري ، فلا يجب ان نستخلص ان كل واحد من رعيه الدولة كان موحداً ، فالموحدون فقط هم أنصار المذهب القدامى ، من الأشخاص أو القبائل . فالعرب مثلاً والأسبان ( الأندلسيون ) الذين خضعوا فيما بعد للدولة الموحدية لم يعتبروا أبداً من الموحدين ، رغم وجود كثير من المتعاطفين منهم لنظام الموحدين .

والخليفة هو القائد الأعلى للقوات المسلحة . فهو الذى يسير على رأس الجيش عندما يتعلق الأمر بعملية عسكرية خطيرة الشأن ، ولكنه فى الأحوال العادية ينسب أحد المخلصين من رجاله فى القيادة .

وفى قمة سلم الوظائف العسكرية يأتى مجلس "العشرة" ، ومن بعده مجلس "الخمسين" . أما عن دورهم بالضبط ؟ فمن الواضح أنهم كانوا أول من يتقدم أمام الخليفة فى يوم العرض ( العام ) (١) . وفى أثناء العمليات العسكرية كان يعهد إليهم بقيادات قطاعات أخرى من الجيش ، فى حالة عدم بقائهم فى مركز القيادة فى معية الأمير .

---

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٤٤ .

وأخيراً نأتى الى تكوين هيكل الجيش الحقيقى ، الذى يتكون من ٦ ( ست ) قبائل موحدية ، هى : قبيلة الأمير والقبائل الحليفة الرئيسية . فهى التى تكون النواة العسكرية . وكان من المنطقى ان تكون هرغة ، قبيلة محمد بن تومرت مؤسس الجماعة ، صاحبة المكان الأول فى التنظيم العسكرى وهنا نجد أنفسنا على أرض صلبة من حيث اتفاق كل الوثائق التاريخية على تفوق قبيلة الامام ، وهو سياده شرفية بطبيعة الحال ، منذ إمارة عبدالمؤمن . ومن الطبيعى أيضا ان تكون قبيلة عبدالمؤمن رأس الأسرة المؤمنية ، وهى كومية فى المكان الثانى منذ وصوله الى سدة الحكم . وهكذا إذا أخذنا هذا التطور الزمنى بعين الاعتبار ، فإن الاختلافات بين الشواهد التاريخية تصبح غير ذات موضوع . والذى نراه هو أن المؤلفين الذين لا يذكرون قبيلة كومية بين قبائل الموحدين ، على أساس أنها ضمن القبائل الحليفة إنما يشيرون ، حقا ، الى الفترة السابقة على عهد عبدالمؤمن (١) . وعلى العكس من ذلك يتفق المؤرخون على أن يكون المركز الثانى "لأهل تنملل" ، مهد الدعوة ، والذين يكونون عدداً من القبائل المختلفة.

وفيما يتعلق بترتيب القبائل الأخرى ، فالأمر ليس أكيد أبداً ، من حيث عدم اتفاق الوثائق وهنا يمكن ان تكون قبيلة هنتانة هى التالية ، فى أغلب الظن ، لأهل تنملل (٢) . وحقيقة ان عبدالمؤمن كان يسعى الى اكتساب

(١) عبد الواحد (المعجب ، ص ٢٤٤) وأبو زرع (القرطاس ، ص ١٣١) هما المؤرخان الوحيدان اللذان يضعان كومية بين قبائل الموحدين ، فى المركز الثانى ، بعد هرغة . وحسب صاحب القرطاس فإن عبدالمؤمن استدعى قبيلته الى مراكش سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، لكى نصف فى الطبقة الثانية ، وتكون الحرس الخاص للأمير . أما البيدق (النص ، ص ٤٤ والترجمة ، ص ٦٦) فيضع كومية فى المركز السادس . وقارن ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٤٤ ، والترجمة ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٢) حيث تخطى تلك القبيلة عند أغلب الكتاب الموثوق بهم بالمركز الثالث : عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٤٦ ، البيدق ، ص ٤١ والترجمة ص ٦٢ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٢٤ ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٩ .

حلف تلك القبيلة عن طريق الزواج من ابنة أبى حفص رئيس هنتانة ، الذى كان من الممكن أن يخلف عبدالمؤمن ، يأتى بيساند فكرة تفوق هؤلاء الأخيرين على قبيلة "جدميوه" (١) . فهنتانة تتكون من ٩ (تسعة) أفخاذ (٢) ، وبعدهم تأتى جدميوه ، ولها ٤٦ (ستة وأربعون) فخذاً (٣) . وأخيراً تأتى قبيلة جنفيسة (٤) .

تلك القبائل الست كانت تمثل العناصر الموحدية التى تكون نواة الجيش النظامى ، والذين كان يسجل محاربوهم فى ديوان الجيش كأصحاب رواتب منتظمة .

والى هذه القبائل الست يجب ان تضاف غيرها من الطبقات الأخرى ، وهى القبائل ذات الأهمية الأقل ، من حيث أنها لا تكون طبقة خاصة فى الجيش ، والتى كانت تتجمع معاً لتكون طبقة واحدة ، وهى التى كان يطلق عليها معاً اسم "القبائل" (٥) . وبناءً على هذا التجميع يمكن احتساب قبائل

(١) وهؤلاء يساندتهم فى التفوق مؤلفون آخرون ، مثل : صاحب "الخلل" (ص ٦٨) والعسري (المسالك ، الترجمة ، ص ١٨٥ ، وصاحب التاريخ المجهول (منوعات ر.باسيه ، ص ٣٤٠) .

(٢) البيدق ، ص ٤١ والترجمة ، ص ٦٢ ، ١٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤١ ، الترجمة ص ٦٢ ، وعبدالواحد هو الوحيد الذى يضع جنفيسة قبل جدميوه ، وهو يقول : ان بعض أفخاذ تلك القبيلة كان من الأحلاف . المعجب . ص ٢٤٦ .

(٤) وهى القبيلة ذات اللسان البربرى السليم ، تبعاً لعبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٦ .

(٥) ابن خلدون : الذى يثير مشكلة خاصة بقبائل مصمودة . فبعد القبائل الخمس التى أشير إليها

فيما سبق ، دون كومية ، يصنف تسع قبائل أخرى ، هى : أوريكه ، رجاجة ، هزميره ، دكالة ،

اسادن ، بنوقزجيت وعيلانه (هيلانه) (العبر ، ج ٦ ، ص ٢٢٤ ، الترجمة ج ٢ ص ١٥٩ ،

١٦٠) . ولكنه لا يبين أى اختلاف بالنسبة لطبيعة هذه القبائل الأربعة عشر ، داخل الجيش ، إلا

فيما يتعلق بترتيبها التدريجى . بينما نجد عند عبدالواحد (المعجب ، ص ٢٤٨) وفى البيدق

(ص ٤٣ وما بعدها و الترجمة ص ٦٦ وما بعدها) بعض هذه القبائل مرتبة ضمن القبائل الخليفة .

وهكذا يكون هناك ما يدعو إلى الظن أن القبائل التسعة يجب أن تصنف بين القبائل الخليفة -

التاريخ المجهول ، منوعات ر.باسيه ، ص ٣٤٠ ، البيدق ، ص ٤٣ ، وما بعدها ، الترجمة ، ص ٦٦

وما بعدها ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٨ .



هسكورة ثم جزء من قبائل صنهاجة (١) .

وفى بداية ولاية يعقوب المنصور ، كانت القوات المسلحة تتكون من ٣ (ثلاثة) عناصر ، هي : الموحدون السابقون الأولون ، والقبائل الحليفة ، والعرب من البدو (أى العربان) . وكان دخول العرب فى خدمة الجيش يرجع الى عهد عبدالمؤمن (٢) . وعلى مرّ القرون أصبح العرب عنصراً أساسياً فى القوات غيرالنظامية (المطوّعة) . فكان لهم شرف القتال فى مقدمة المجاهدين بالاندلس ضد القوات المسيحية . وفوق ذلك فقد كان لهم دور يزداد كثافة عند تغير الإمارة وتحولها من حاكم الى آخر . وهكذا فبمناسبة الولاية أصرّ يعقوب المنصور على أن العرب الذين يصفهم "بإخوة" الموحدين ، كانوا قد طالبوا بتعيينه ولياً للعهد ، فى حياة والده (٣) .

ودخل حدث جديد على القوات المسلحة على عهد يعقوب ، وذلك هو السماح لفرقة من "المماليك" المصريين بالعمل بالجيش الموحدى - بعد فترة الاضطراب التى أثاروها بمعاونة العرب فى افريقية - وهؤلاء عرفوا باسم "الأغزاز" أو "الغز" .

وكان هناك فرقة أخرى مكونة فى أغلب الظن ، من العبيد السود الوافدين من السودان . وكان هؤلاء يطلق عليهم اسم "العبيد" (٤) ، من حيث أنهم

---

(١) نفس السابق .

(٢) بعد العمليات الحربية الاولى - الخاصة بتهديد افريقية ، ضحية اعمال عصابات البدو من عرب رياح ، وجشم والأبيج وزغبة ، على يد عبدالمؤمن - اتى فخذ من رياح من الذين يعرفون ببني محمد يعلنون الخضوع والطاعة للموحدين ، ويعرضون خدماتهم من اجل الجهاد . ومثل ذلك فعلت قبائل جشم التى أتت تعلن الخضوع للجيش الموحدى . وهنا قرر الأمير إقرارهم جميعاً فى المغرب ، وإدخالهم فى خدمته . رسائل موحدية ، النص ص ١١ ، والدراسة ، ص ٤٨ وانظر ج. مارسيه ، العرب فى بلاد البربر ، ص ١٨٤ - ١٨٥ ، وانظر فيما سبق ، ص ٨٨ وهـ ٣ .

(٣) رسائل رسمية موحدية ، النص ، ص ١٦١ ، والدراسة ، ص ٥٥ .

(٤) لفرطاس ، ص ١٤٧ .

من الممالك . وكان عمل هؤلاء يتلخص فى لخدمة فى حرس الأمير الخاص (١) ، كما كان عليهم خدمة الأمير المنزلية فى القصر ، كما كان المعتاد فى ذلك العصر . وان هؤلاء السودان هم سلالة الطبقة التى عرفت باسم "أهل الدار" على عهد محمد بن تومرت (٢) . وكان هؤلاء من موالى الأمير ويقومون بخدمته ليل نهار . والى جانب كل ما ذكر من فرق الجيش المختلفة ، تأنى جماعات المتطوعة ، الوافدين من كل أقاليم المغرب (٣) .

والجيش الموحدى فى بداية الأمر لم يكن يتكون إلا من عناصر أفريقية خالصة . ولكنه كما كانت العمليات العسكرية الكبرى تدور دائماً فى الأندلس ضد المسيحيين فإن هذا الواقع أملى ضرورة تكوين جيش أندلسى صرف ، كان يلحق دائماً بالقوات الموحدية عندما تعبر المضيق من أجل الجهاد . وهذه القوات العربية الأسبانية كانت مقسمة حسب قبائلها الأصلية ، وكانت مجمعة حسب مواطنها فى البلاد الأندلسية . والظاهر يدعو الى الظن ان هذه الفرق كانت مستقلة ، وأن رؤساءها كانوا من الأندلسيين ، وانها كانت ذات ترتيب خاص بها ، وفوق ذلك فإنها لم تكن توضع أبداً فى خدمة الأمير خارج الأراضى الأسبانية .

### تنظيم ديوان الجيش وأسلوب عمله :

يلاحظ أنه ابتداء من عهد يوسف تتحدث المصنفات التاريخية عن التفرقة بين ديوان الدولة للانشاء وديوان الجيش الذى أصبح أمينه معروفاً "بكاتب

---

(١) فى المعارك الكبرى كان هؤلاء العبيد يكونون الحرس الخاص للأمير - انظر القرطاس ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ابن عذاري ، المجهول ، ص ٥١ ، ٦٤ .

(٢) التاريخ المجهول ، منوعات ر. باسيه ، ١٩٢٥ ، ص ٣٤٠ ، البهيق (مفتيس) ، ص ٢٥ .

(٣) فيما يتعلق بمعركة الأراك (الاركوس) يقول ابن خلدون ان جماعات المتطوعة هذه ، التى كانت تعادل نصف قوات جيش يعقوب المنصور ، كان يقودها محمد بن أبى حفص ، بينما كان أخوه يحيى يقود بقية القوات (العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ ، الترجمة ، ج ٢ ص ٢١٢ .

الجيش". ويجب ان يفهم من ذلك أنه وجدت سجلات خاصة تدون فيها اسماء العساكر النظاميين الذين تصرف لهم رواتب شهرية أو على فترات منتظمة. ومقر هذه السجلات، كما رأينا، كان فى القصر الخلافي مع مجموع المكاتب الخاصة بالحكومة المركزية (١). وهى لا تحوى فى قوائمها الى العساكر النظاميه، الأمر الذى يعنى انهم من الموحدين الخالص (٢). وهؤلاء العساكر كانوا يسمون "الجموع"، وكانوا من ذوى الرواتب فهم اذن من "المرتزقة" أى المحترفين، الذين يخدمون أبدا تحت العلم بمراكش العاصمة. أما جماعات العساكر الأخرى ممن يسمون "بالعموم" (العامة) فكانوا مستقرين فى بلادهم، فلا يحضرون الى مراكش الا وقت التعبئة (٣). وهنا يمكن المقارنة بين هذا التقسيم، الى: محاربين موحدين وغير موحدين وبين التفرقة بين شاميين وغير شاميين على عهد الأمويين الأندلسيين، بالنسبة لديوان الجيش، حيث لم يكن الديوان إلا من أجل الشاميين وحدهم (٤).

والى جانب تسجيل المحاربين، ودفع الرواتب، فمن المحتمل ان يكون أمين ديوان الجيش هو المسئول عن العرض الذى يعنى التفتيش الدورى العام الذى يحضره الأمير، الى جانب عمليات إمداد الجيش والتموين، وأخيرا توزيع المغانم حيث يعاونه وقتئذ بعض المختصين الذى ربما كان القاضى. ومنظمة ديوان الجيش هذه التى بدأت متواضعة على عهد يوسف، والتى ازدهرت على عهد يعقوب، ستتطور الى أن تصبح من أهم دواوين الحكومة على عهد

---

(١) انظر فيما سبق، ص ١٠٧.

(٢) انظر عبد الواحد، المعجب، ص ٢٤٦.

(٣) عبد الواحد، المعجب، ص ١٤٨ - حيث تقدير عدد العسكر النظامى (أجناد) فى مراكش بعشرة آلاف، دون حساب أولئك الذين يستقرون فى الولايات.

(٤) قارن أ. ليفى - بروفنسال، اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر، ص ١٩، دوزى، بحوث (Recherches)، ج ١ ص ٨٨.

## التسليح والمعدات :

ان تجهيز القوات الموحدة وتسليحها سواء كانت نظامية أو غيرها من القوات المساعدة ، لم يكن يختلف كثيرا عن غيرها من القوات الاسلامية الأخرى ، خلال كل العصور الوسطى . وهنا نأسف لندرة الوثائق التاريخية ، وافتقاد الوثائق الأيقونوغرافية (التصويرية) تماما ، من : النحت أو الحفر ، والنقش والتقود والرسم وغيرها .

وكما هي العادة في تلك العصور كان الحصان هو آلة الحرب بالامتياز ، فقد كانت الخيالة هي التي تقرر مصير المعركة في نهاية الأمر (٢) . فالفراس كان المحارب الحقيقي في المعركة ، وهو الذي يركب الحصان ويتسلح بالسيف والدرع (٣) . أما المشاة الرجالة فلم يكونوا أكثر من قوات مساعدة ، إذ ليست لهم أهمية كبيرة عند الكتاب . وهكذا عندما يتكلم عبدالواحد ، بمناسبة المحاربين العرب في الأندلس على عهد عبدالمؤمن ، يقول : أنه كان هناك منهم حوالي ٥ (خمسة) آلاف "فراس" ، بينما يهمل تعداد الرجالة (٤) . ومن المحتمل ان يكون استخدام الجمال كفرقة للدخيلة ، كما كان الحال عند المرابطين - على الأقل في المغرب والصحراء (٥) . وليس في الأندلس ، كان

(١) فارن ، العمري ، مسالك ، الترجمة ، ص ١٨٣ .

(٢) ولا بأس من الإشارة هنا الى ان المصطلح العسكري الدارج في تلك العصور ، هو : " الخيل والرجال " اي الفرسان والمشاة ، حيث كانت كلمة حصان تعادل كلمة فراس .

(٣) فارن . ١ - ليفي - بروفنسال ، اسبانيا الاسلامية في القرن العاشر ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٤) المعجب ، ص ١٦٠ .

(٥) أما ما يقوله ابن خلدان (٢ ج ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٣) - وما ينقله عنه المقرئ (ج ٢ ص ١١٧٥) من استخدام المرابطين للجمال في موقعة الرلاقة الشهيرة بالأندلس - حيث كان الفضل للجمال التي لم يكن قد رآها الاسبان المسيحيون قبل ذلك ، سببا في القاء الرعب في قلوبهم ، وهو ما أدى الى هزيمتهم ، فمن الواضح انها رواية تخيلية وحيدة ، ليس لها ما يسند لها ، كحديث الآحاد - إذا صح التعبير .

أمرأً وارداً (١) .

أما عن الرجالة ( المشاة ) فكانوا حسب صنفهم يحملون الترس أو الرمح الطويل أو النشاب ( المراق ) القصير (٢) . أما عن رماة السهام أو النبالة فكانوا يحملون أقواسهم ونبالهم (٣) . وكان للموحدون من بين مقاتليهم ، قطعة حربية من حاملي الحجارة فى الخيالي (٤) ، وهو السلاح البدائي الذى تم الاستغناء عنه بمجرد تحسن قواهم الحربية .

والآن تعرض لنا مشكلة التجهيز والتسليح وهل كانت على حساب الدولة أم على حساب المجاهدين ؟ إنه من المؤكد ان الدولة كانت تقدم عادة السلاح والملابس للمقاتلين (٥) . وهناك فقرة فى ابن صاحب الصلاة تدلنا فى الحقيقة على أن الدولة هى التى كانت تقدم السلاح ليس للموحدون فقط ، بل وأيضا

---

(١) ابن عذارى ، المجهول ، ص ٦٢ . أما ما قيل عن عبور الجمال مع يوسف بن تاشفين من أجل إرهاب النصارى ، كما حدث فى الزلاقة ، فالظاهر أنها كانت من أساليب الحرب النفسية . التى شنها المرابطون على الأمازيغ - انظر للمؤلف ، تاريخ المغرب العربى ، ج ٤ ( عن المرابطين ) ، ص ٣٠٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ص ٧١ وجه .

(٣) كان للسهام والنبال فى الجيش وقتئذ ما للسادق والرصاص حاليا فى الجيوش الحديثة . فمن طريقها كان يمكن الوصول الى العدو من بعد قبل الالتحام وجها لوجه . وفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م - ١١٦٢ اهتم عبدالمؤمن بالانتاج الكثيف للنبال - إذا أمر بإنتاجها فى كل أرجاء الدولة الفسيحة ، حتى بلغ الانتاج عشرة فئات فى اليوم الواحد ( القرطاس ، ص ١٣١ ، ابن أبى دينار ، ص ١١٢ ) .

(٤) الخلل ، ص ١٠٨ .

(٥) فيما يتعلق بالحملة التى كان يعدها عبدالمؤمن للمسير الى الأندلس يذكر ابن صاحب الصلاة

( المخطوط ، ورقة ٣٨ وجه ) من بين المعدات : الخيل ، والسيوف ، والترس ، والملابس ، والنبال ، والعمائم والبرانس . ولكنه من ناحية أخرى ، فإن ما فعله يعقوب المنصور بعد معركة الأرك من السماح للمقاتلة بالاحتفاظ بالقيمة باستثناء السلاح الذى ينبغى ان يعود الى الدولة يثبت ان السلاح كان من ممتلكات الدولة وليس غيرها . وهذا الرأى يؤكد رواية البيهقي ( المقتبس ، ص ٤٨ ) التى تذكر ان الناصر ( محمد بن المنصور ) سمح لرجال الدين ببيع اسلحتهم والاحتفاظ لأنفسهم بتملك الثمن .

لفرق غير الموحدين ، من : مسوفة وملتونة وكذلك العرب (١) . هذا ولو ان الامر هنا يتعلق بحملة صغيرة . اما فى العمليات الواسعة النطاق حيث تأتى الأعداد الكثيرة من المقاتلين من كل الأفاق ، فحن نظن ان مخازن السلاح فى الدولة لم تكن تكفى لتزويد كل الرجال بالسلاح . وهنا كان على الرجال من غير الجند النظامى ان يدبروا تزويد أنفسهم بالسلاح على حسابهم الخاص وكان لكل منهم مكانه فى الجيش حسب نوعية تسليحه ، سواء كان فارساً أو مشاة أو من المتطوعة . فبالنسبة لهؤلاء الرجال كانت الحرب صاعقة رأس مالها السلاح .

والى جانب الأسلحة الفردية تجب اعتبار الأسلحة الجماعية ، وخاصة من آلات الحصار . ومن ذلك النوع تذكر السلاالم الطائرة ، والابراج المنحركة ، والمنجنىقات التى تصب وابل الحجارة وغيرها من القذائف المحرقة (٢) . وكان المعتاد بناء معظم آلات الحصار تلك فى ساحة القتال .

### رواتب العساكر وأعطياتهم :

كان لجميع العساكر ، مثل غيرهم من الرتب الأخرى ، الحق فى رواتب محددة . وتختلف تلك الرواتب تبعاً لطبيعة الخدمة وبوعيتها . وفى البداية يحسن البدء بالكبار من أصحاب الرتب ، من المشايخ ورؤساء القطاعات المختلفة ، وهى الأفراد الذين يكونون نواة الجيش ، والذين كانت منافعهم المباشرة تحقق اخلاصهم فعلاً . ولما كان الأمير يعرف هذا الامر فقد كان من المعتاد ان يقدم لهم قطعاً من الأرض الزراعية وهى القيمة الوحيدة التى كان يسهل نقلها ، والتى كانت تدفع الرئيس الى الخضوع طوعاً للأمير ، وتدفعه الى القيام بما كان يقع على عاتقه من الواجبات العسكرية . وكان إعطاء

---

(١) المخطوط ص ٢٩ ظهر .

(٢) رسائل رسمية موحدية ، النص ، ص ٢٠٣ وما بعدها ، الدراسة ، ص ٦٣ .

الممتلكات الزراعية هذه في سبيل القيام بالأعباء العسكرية ، هي التي عرفت "بالإقطاع" . (١) . ونظام الإقطاع هذا يختلف عن نظام الإقطاع الذي عرف في اسبانيا على عهد الأمويين الأوائل ، والذي كان قائما على قاعدة إقطاعات الحدود البيزنطية حيث كان سكان مناطق الحدود يتمتعون بالاستفادة من استغلال الأرض الزراعية في نظير المشاركة في الدفاع عنها .

والى جانب الاستفادة من الأرض ، كان لكبار رجال الدولة رواتب منتظمة تعرف "بالبركة" (٢) ، التي كانت تقدم ٤ (أربع) مرات في السنة ، بمعنى أنها كانت فصلية كل ٣ (ثلاثة) أشهر (٣) . ومن بين كبار رجال الدولة تتميز طبقتان ، أحدهما يأخذ أفرادها من الإقطاع والراتب ضعف الطبقة الأخرى (٤) .

وفيما يتعلق باستفادة رؤساء العساكر غير الموحديين مثل العرب والأغزاز ، فمما يستحق الإشارة انهم كانوا يتمتعون بإقطاعات ورواتب أكبر من تلك التي كانت لرؤساء الموحديين (٥) .

وهنا ، من المعروف ان المنصور عندما ادخل الماليك المصريين في الجيش ،

---

(١) العمرى ، مسالك ، الترجمة ، ص ١٢٣ ، الفلقشندي ، ج ٥ ص ١٤٦ .

(٢) الفلقشندي ، ج ٥ ص ١٤٠ ، ابن عذاري ، المجهول ص ٦١ ، ٦٩ .

(٣) قارن عبدالواحد ، ص ٢١٠ ، ٢٣٣ من حيث يقول انها كانت تصرف ٣ (ثلاث) مرات في السنة (مرة كل ٤ أشهر) . وهنا يقتبس عبدالواحد كلمة "جامكية" والجمع جوامك من مصر ، وذلك ان الرواتب تعرف في المغرب بالبركة . انظر دورى ، ملحق القواميس العربية (بالفرنسية) ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٤) العمرى ، مسالك ، الترجمة ص ١٢٦ (الفلقشندي ، ج ٥ ص ١٤٠) وهنا نشير الى ان المؤلف يصر على القول بأن الجيش الموحدى كان متمسكا بنظامه الاول الذى يرجع الى عهد ابن تومرت ، الامر الذى تمسك به عبدالمؤمن وأبناؤه .

(٥) الفلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ١٤١ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢١٠ .



فإنه مَيَّز رؤسائهم برواتب واقتضاعات لم يتمتع بمثلها أحد من أشراف البلاد من قبل (١) . هل كان تمييزهم عن الموحدين كرمًا وعطفًا فحسب ؟ هذا ما قاله ردأ عني الأخيرين عل الأقل عندما أثاروا مسألة بعدهم عن بلادهم والصعوبات المادية التي كانوا يواجهونها . أم ان المسألة ربما كانت خوفا من تلك العناصر التي كانت المنفعة الخاصة وحدها هي التي تضمن إخلاصها ، والتي كانت مؤامراتها خطيرة بالنسبة لهدوء الأمير ؟ ولا شك ان تحرية وقوفهم الى جانب العرب وبنى غانية في افريقية كانت تثير في نفسه ذكريات أليمة (٢) . وهكذا فأغلب الظن أنه حاباهم بالنسبة لغيرهم من أجل أن يضمن إخلاصهم له .

أما عن الجنود النظاميين - المسجلين في ديوان الجيش - كانوا يتناولون بركاتهم (رواتبهم) كل حسب درجته ، وطبيعة المهام التي يقوم بها ، فارساً كان أو من الرجال (٣) . أما العساكر الذين يحشدون من أجل حملة معينة فكانت لهم "بركاتهم" طالما ظلوا في خدمة العلم . وهنا أيضا تظل رواتب المحاربين الأجانب أكثر ارتفاعا من أجور الموحدين (٤) .

والى جانب الرواتب كان للعساكر الحق الذي لا يمارى في المغام المؤخوذة من العدو . وكان نصيبهم دائما هو أربعة الأخماس (٥) . وكانت الغنيمة من الأسباب الرئيسية على تحريض المجاهدين ، في حربهم ضد الكفار . والحقيقة

---

(١) انظر عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢١٠ .

(٢) انظر فيما قبل ، ص ٧٥ .

(٣) كان راتب الفارس ٣ (ثلاثة) امثال الرجال ، البيدق (كتاب الانساب) ، ص ٥ .

(٤) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢١٠ ؛ القلقشندي ، ج ٥ ص ١٤١ .

(٥) وهنا لا بأس من الإشارة الى أنه في كثير من الاحيان ما كان الأمير يتنازل عن نصيبه في الغنيمة لصالح المحاربين ، تحريضا لهم على حسن القتال قبل لقاء العدو . ومثل هذا كانت حاة المنتصرون في كثير من المناسبات . انظر ما سبق ، ص ٤٨ .

أنه كثيرا ما كانت أهداف الحملات الحربية في أرض العدو ، هي الفكرة من أجل العودة بالأسرى والمغانم .

### الربط (على الحدود)؛

ويمكن ان يرتبط بالجيش نظام الرباط ، وهو نوع معسكرات العباد على الحدود (الشغور) ، وكان ازدهار الربط في ذلك الوقت ، ليس إلا نتيجة لمفهوم الحرب الجهادية لدى الموحدين . ففي القرون الاسلامية الأولى بعد الفتح العربى للمغرب كانت أهم الربط في بلاد افريقية . وهذه كانت هدفا للهجمات البيزنطية وكذلك الانتفاضات الشعبية ، وفي هذا المقام لم يكن بناء القيروان كرباط إلا ردًا على مثل هذه الاحتمالات (١) . والحقيقة ان افريقية حافظت لمدة طويلة على تلك السمة ، وخاصة على عهد الأغلبة ، حيث بلغ الأمر الى حدّ توجيه نشاطاتها الجهادية ضد ايطاليا مقر البابوية (٢) . ولكنه بعد ردود الفعل من جانب النورمان في صقلية (نهاية القرن ١٠هـ / ١١م ، وبداية القرن ١١هـ / ١٢م) ، واحتلال الشاطئ الافريقى ، فقدت هذه الرباطات أهميتها ، وعرفت فترة من الاضمحلال .

وعلى العكس من ذلك فإن تلك الفترة عرفت العصر الذهبى للربط في المغرب ، وذلك بفضل انتصار المرابطين ، وهم أصل الربط التي قامت ضد برغواطة ، زنادقة البلاد المراكشية ، وضد المسيحيين فى الأندلس (٣) .

---

(١) انظر كتاب الاستبصار ، (ص ٤) الذى ربما اقتبس رواية البكرى ، حيث النص على صفة الرباط الذى لتصق ببناء مدينة القيروان التى بناها عقبة بن نافع .

(٢) انظر البكرى ، جغرافى بلاد المغرب بالامتياز فى القرن الـ (١١هـ / ١١م) ، حيث تعداد عدة أربطة افريقية مزدهرة فى ذلك الوقت ، مثل : رباطات سوسة ، التى كان من أشهرها رباط المنستير (الدير - ص ٣٥ - ٣٦) ، رباط أبى سليمان قرب قرطاج (ص ٤٤) ، ورباط جبل رعفران (ص ٤٦) ورباط قلاع بنزرت (٥٧) .. الخ .

(٣) مما يسترعى الانتباه انه منذ بداية الفتوح الاسلامية فى المغرب ، ظهر عناد برغواطة فى هرطقتهم ، الأمر الذى أدى الى انشاء مدينة رباط سلا ، من حيث كانت تتمحور الحملات الحربية الوحدة بعد =

ومع مجيء الموحدين الى الحكم ، كانت الربط الغربية هي التي تجذب الانتباه بالنسبة للجماعة الجديدة . فكان على هذه الأخيرة ان تحقق هدفا مزدوجا ، هو : القضاء التام على برغواطة الزنادقة ، ثم الصراع العنيد ضد اسبانيا المسيحية . وهكذا كان أول ربط الموحدين هو رباط تازا الذى انشئ في سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٣ م) (١) . على يدى عبدالمؤمن ، من أجل ان يخدم ، على ما يظن ، كنقطة استراتيجية تعمل على سهولة الانتهاء من غزو اقليم المغرب . وعلى عهد عبدالمؤمن أيضا بدأت مدينة رباط الفتح ، التي انشئت في مقابل سلا (٢) . فى الازدهار ، أولاً كمقاعدة للعمليات الموجهة ضد برغواطة ، ثم كمقاعدة لحشد القوات الموجهة نحو الأندلس . ولقد كبرت هذه المدينة على عهد يوسف ، لكي تصبح على عهد المنصور من أعظم الأربطة التي شيدت على الإطلاق (٣) .

والأربطة الشرقية ، رغم قلة أهميتها كانت تتمتع بمقدار لا بأس به من الازدهار . حقيقة أنه بعد طرد النورمان ، لم يحاول هؤلاء استرداد أماكنهم القديمة هناك ، ولكنه إذا أخذنا برواية صاحب الاستبصار الذى يكتب فى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ، فإننا نلاحظ حقيقة ان الربط الافريقية كانت

---

= الأخرى حتى القضاء عليهم تماما على عهد الموحدين . «نظر تراس وأ. ليفى بروفنسال ، سلا ، هسبيريس ، ١٩٢٢ ، ص ٦ وما بعدها ، ج. مارسيه ، منوعات ر. ياسيه ، ١٩٢٥ ، هامش عن الربط فى بلاد البربر ، ص ٤٠٤ وما بعدها .

(١) القرطاس ، ص ١٢٢ ، الاستبصار ، حيث يقول المؤلف ان هذا الرباط يمثل نقطة - استراتيجية تربط المغرب بالمشرق ، وأنه شيد فى الوقت الذى كان يعيش فيه (حوالى ٥٨٧ / ١١٩١) لكي يقرر بعد ذلك انه بنى فى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ - ١١٧٣ م .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٠٩ ، أبو الفدا فى النص ١٢٣ ، والجغرافيا ، ج ٢ ص ١٨٣ .

(٣) قارن عبد الواحد ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، القرطاس (١٥١) حيث يرجع المؤلف بناء المدينة (رباط الفتح) الى عهد المنصور ويربط اسمها بانتصار الأرك (أ. ليفى - بروفنسال ، رسائل رسمية موحدية ، الدراسة ، ص ٣٦) . وانظر فيما بعد ، ص ٢٨٠ ، ٢٧٩ .

مزدهرة مرة أخرى . فبالقرب من سوسة كان يوجد المحرس الشهير ، المعروف بالمنستير . أنه عبارة عن قلعة مرتفعة ، حيث يحيا رجال من الزهاد حياة عسكرية ، بعيداً عن أسرهم ، وأصدقائهم ، حيث كان القريبون منهم يقدمون لهم الزكاة (١) . وبالقرب من هذا المحرس ، كان هناك خمسة محارس أخرى ، وثيقة البناء يسكنها الزهاد . هذه الأربطة كانت مواضع خلوة لمن يريد ان ينقطع الى حياة الزهد لفترة من الوقت ، بقصد البعد عن أحوال الدنيا ، والعمل من أجل إحياء الأمان والخير . ولذلك كان يلزمها نوع من الدعاية من أجل حشد المرابطين . وفي ذلك ظهرت أحاديث مصطنعة عن الجهاد في إفريقيا ، تقول : ينقطع الجهاد من كل البلاد ولا يبقى إلا في إفريقيا ، ورغم شدة البرد في تلك البلاد ، فإن جزاء الله أعظم (٢) . ان الاعتقاد في كرامات المرابطين وفي قداسة الأربطة - وهي الاعتقادات التي تعبر عن نوعية الأفكار السائدة في تلك الفترة - كانت تحبذ على الإقامة بتلك الربط . فكل من يسرق أو يرتكب ذنباً في الرباط القريب من ندرومة ، على ساحل تلمسان ، لا يلبث ان ينزل به العقاب ، وكل الناس متفقون على ذلك بفضل العناية الإلهية (٣) . وفي روطة ، وهي موضع رباط في جنوب غرب شريش ( Jerez ) ، وعندما يأتي الناس من كل الجهات لكي يقضوا حياة زهدية ، ترتفع مياه الآبار هنا ، وعندما ينصرفون ينزل مستوى الماء (٤) . وهذه القصة تريد تفسير زيادة الماء وقت مجيء المرابطين للإقامة بأنها حدث يعبر عن الرضاء الإلهي على هؤلاء الاتقياء ، فكانها تفسر غيبياً ذلك الحدث الطبيعي . والمحمّل أن حامية رباط روطة كانت تتغير موسمياً ، ربما في فصل الربيع أو في فصل الصيف . ولما كان أهل المنطقة يعتقدون في تلك الفكرة المعجزة ، فانهم

(١) الاستبصار .

(٢) الاستبصار ، البكري ، ص ٣٢ والترجمة ص ٤٤ .

(٣) البكري ، ص ٧٩ .

(٤) الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٠٢ ، والترجمة ، ص ١٨٥ .

كانوا يقدمون صدقاتهم للضيوف العباد.

## التخطيط الحربي وإدارة المعركة وفن الحصار:

فيما يتعلق بالفن العسكري فإنه من المحتمل جداً أن يكون الموحدون قد اقتبسوه من المدرسة الأندلسية ، وخاصة بما يتعلق بالاستراتيجية والتكتيك . والشبه مثير للانتباه بين نصين تاريخيين ، أحدهما يتعلق بالتكتيك الذي طبقه الموحدون في معركة منداس (١) ، والآخر متعلق بإدارة المعارك في الأندلس بشكل عام (٢).

في النص الأول اختار الموحدون أرضاً مستوية ، حيث اتخذوا في وصفهم شكل المربع ، وفي كل ضلع اصطف الناس في خطوط بعضها وراء بعض . وفي الخطوط الأولى وقف المشاة (الرجل) ومعهم الحراب الطويلة في أيديهم ، وكذلك الطوارق المانعة (المقاييس) . وخلف هذا الصف اصطف حملة الدرق (دروع الجلد) والمزاريق ، وخلف هؤلاء حملة الخيالة المليئة بالحجارة ، وبعدهم رماة السهام ، وفي وسط المربع تقف الخيالة . فعندما تهاجم خيالة العدو لا تجد أمامها سوى الرماح الطوال المرفوعة ، والمزاريق والأحجار والسهام ، وعندما تحارب منسحبة تخرج الخيالة الموحدية من بين الفتحات المعدة بين الصفوف ، وتلاحق العدو . فإذا عاد العدو إلى الهجوم يعود فرسان الموحدين إلى مواضعهم السابقة ، وسط غمّة الحراب . والبص الثاني يوضح نفس التحركات . لقد كان تكتيكاً عبقرياً ، كانت الأندلس ، من غير شك ، مدرسته المعلمة . ولكنه كان تكتيكاً دفاعياً أكثر منه هجومياً ، أملاه الموقف في إسبانيا الإسلامية المقطعة إلى إمارات الطوائف في مقابل الدول المسيحية

(١) الحلل الموشيه ، ١٠٨ .

(٢) أ. ليفي - برونسال ، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ، (بالفرنسية) ، ص ١٤٦ . حيث نص مقتبس من أبي بكر الطرطوشي الذي عاش في أواخر القرن الخامس الهجري (١١١م) (سراج الملوك ، ص ١٢٩ .

التي كانت تزداد قوة من يوم الى آخر . ولم يكن الموحدون في موقف أفضل من موقف خصومهم المرابطين . ومع ذلك فإذا تطرقنا الى ما كانوا يحسنونه من هذا الفن مع مرور الوقت ، فمن الواضح أنه رغم استمرار القتال بشكل دائم ضد المسيحيين في اسبانيا ، فإن خطط القتال ظلت على ما هي عليه تقريبا دون تغيير . فكان القتال يعنى الغارة على أراضي الأعداء ، وتخريبها ، وقطع الأشجار ثم العودة الى الوطن بالأسرى والمغانم ، وهي الأحوال التي لم تكن مواتية لتقدم الفن الحربى .

وهكذا يمكن تفسير عدم نجاح ابى يعقوب يوسف أمام حصن وبذه ( Huete ) بسبب المطر الطارىء الذى ملأ آبار المسيحيين وأطال مدة مقاومتهم (١) . وعلى إثر فشله فى حصار شنترين كان عليه ان يدفع حياته ثمنا لذلك . وإذا كان يعقوب قد ظهر ماهراً أمام قفصة (٢) ، وكذلك أمام شلب ( Silve's ) (٣) ، فإنه ظهر عاجزاً عن الاخذ بثار والده من شنترين ، هذا كما لم يستطع أبداً الاستيلاء على طليطلة رغم انتصاره الكبير فى الأرك . وإن استئصال الجيش الموحدى ، رغم تفوقه العددي ، فى حصن العقاب ( LasNavas de Tolosa ) على عهد الناصر ، الأمر الذى انهارت إثره اسبانيا الموحدية كقاعة من ورق كما يقال ، كل ذلك أتى ليؤكد فشل الاستراتيجية والتكتيك الموحدى .

## الأسطول:

على عكس القوى الاسلامية الاخرى فى ذلك العصر ، كان للدولة الموحدية قوة بحرية برية فى نفس الوقت . ومن أجل تحرير افريقية من الوصاية

---

(١) عبدالواحد المعجب ، ص ١٨٠ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٨٥ وما بعدها .

(٣) ما سبق ، ص ٣٣ .

الصقلية، وجب مواجهة الاسطول الصقلى القوى الذى فرض سيادته على حوض المتوسط الأوسط . ومن أجل إتمام غزو الأندلس ، وجب بناء عمارة بحرية لنقل القوات الى ما وراء المضيق ( العدو ) . وإلى جانب ذلك ، يجب إضافة القرصنة ، التى أصبحت منذ وقت طويل منظمة حقيقية ، لها كيانها .

وإثناء الصراع ضد الصقليين سنة ٥٤٤هـ / ١١٥٩م ، كان هناك ٧٥ ( خمس وسبعون ) سفينة فى انتظار عبدالمؤمن أمام تونس (١) . وفى مياه المهدية ، كان على الاسطول الصقلى نفسه ، الذى بلغت قوته ١٥٠ ( مائة وخمسين ) مركبا ، الفرار امام القوات البحرية الموحدية (٢) . وبعد طرد الاسطول الصقلى من افريقية ، كان عليه ألا يعود أبداً خلال الفترة الموحدية . وهكذا حوّل نشاطه الى الحوض الشرقى للمتوسط ، كما حدث بالنسبة لبعض المدن المصرية (٣) . أما عن الحملة الضخمة المخصصة لفتح الأندلس ، فقد تطلبت بناء ٤٠٠ ( اربعمائة ) سفينة ، منها : ١٢٠ ( مائة وعشرون ) فى مرسى المغمور بالقرب من سلا ، و ١٠٠ ( مائة ) فى طنجة ، وسبتة ، وباديس ،

(١) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥٩ (ابن خلدون ، الترجمة ، ملحق ٢ ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٦٠ (ابن خلدون ، الملحق للترجمة ، ج ٢ ص ٥٩٢)؛ التجانى ، الرحلة ،

الترجمة ، ص ١٦١ ، ١٦٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٣) وكانت أجراً غارات الاسطول الصقلى تلك التى شنّها عل مدينة الاسكندرية سنة ٥٧٠هـ /

١١٧٤م ، باسطول قوامه ٢٨٢ ( مائتين واثنين وثمانين ) مركبا تحمل الرجال والخيول والعدد

والذخيرة . ولم يكن لدى المصريين ما يدافعون به سوى القوات البرية . انظر ابن الأثير ، ج ١١ ص

٢٧٢ ؛ الاستبصار ، أبو شامة (ج ١ ص ٢٣٤) الذى ينقل رواية ابن الأثير ، والذى يعلق على ذلك

قائلا : ان الاسطول الصقلى سبق ان هدد ابن عبدالمؤمن ، أمير المغرب ، وكذلك الامبراطور

البيزنطى ، ولكن ما هو أكيد ، أنه منذ هزيمة الاسطول الصقلى فى المياه الافريقية سنة ٥٥٤هـ /

١١٥٩-١١٦٠م ، لم يحاول ان يجرب حظه مرة أخرى . وفى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥ كان دورتنيس

وبعد حصار المدينة لفترة من الوقت كان على الاسطول الصقلى ان يغادر المكان . ولكنه فى سنة

٥٧٣هـ / ١١٧٧م ، أتت أربعون مركبا من نفس الاسطول ونجحت فى الاستيلاء على المدينة .

المقريزى الخطط ، ج ١ ص ١٨٠ .



وغيرها من موانئ الريف ، و ١٠٠ (مائة) في افريقية ، في : هني ، ووهران ، وفي الأندلس (١).

ان الاسطول الذى ولد على عهد عبدالمؤمن أصبح عند وفاته قوة يخشى بأسها ، وعلى عهد يوسف يصل إلى ذروة قوته . والحقيقة ان حادثا طارئا حمل على رأس الأسطول الموحدى رئيسا مؤهلا ، تكون فى المدرسة البحرية الصقلية ، هو المغربى (البربرى) المسمى بـ أحمد الصقلى ، وأصله من مدينة جربة بالقرب من قابس ، والذى كان قد أسره النورمان ، ونشأ بعد ذلك فى خدمة الاسطول ، تحت رعاية الملك روجر الأول . وعندما توفى روجر الأول اختلف أحمد مع روجر الثانى ، وهرب إلى تونس ، ومن هناك وصل إلى مراكش حيث أحسن يوسف استقباله ، وعهد اليه بقيادة الاسطول (٢) "وعلى عهد يوسف بلغ الاسطول الاسلامى ، من حيث العدد ، والقيمة الحرفية ، درجة لم يبلغها ، حسب معرفتنا ، لا قبله ولا بعده" (٣) .

وعلى عهد المنصور حافظ الاسطول على تفوقه . ففى كل من حوضى المتوسط ، الغربى والأوسط كان له التفوق ، حيث طرد الاسطول الصقلى نحو المشرق : بلاد الشام ومصر . وهكذا لم يستطع بنو غانية بقوتهم البحرية المحدودة الدخول فى حرب مفتوحة ضد الموحدى (٤) . وهكذا كان على ملك قشتالة فى خطائه المصطنع من غير شك ، ولكنه يعبر عن الفكرة السائدة فى تلك الفترة- ان يطلب من الأمير الموحدى ان يبعث اليه المراكب والشوانى والطرائد والمصطحات ، حتى يعبر اليه بالمغرب (٥) .

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، والمخطوط ، ورقة ٣٦ ب القرطاس ، ص ١٣١ .

(٢) ابن خلدون العبر ج ١ ص ٢١٣

(٣) ابن خلدون العبر ج ١ ص ٢١٣

(٤) ما قبل ، ص ٧١ وما بعدها

(٥) ما قبل . ص ٤٢

المشرق الاسلامي أو على الأقل شرقي البحر المتوسط ، كان يعترف  
سمياً بتفوق البحرية الموحدية على عهد المنصور ، في غربي المتوسط .  
وهكذا كان على صلاح الدين أن يحاول اقناع المنصور بمد هذا التفوق على  
خوص الشرقي للمتوسط ، والذي كان مهدداً من قبل الدول المسيحية  
لأوروبية (١) .

### العدالة والشرطة :

المقابلة مع الموضوعات السابقة ، فإن المعلومات الخاصة بالعدالة والشرطة  
ما كانت مفتقدة تماماً . والحقيقة ان الوثائق التاريخية لا تمس إلا من بعيد  
لكل المسائل ، وبمجرد كلمة من وقت لآخر .

إن ابن تومرت الذي كان يمارس وظيفة الحكم (٢) ، ولكنه كان من المعتاد  
يسبب فيها أحد أصحابه (٣) . وبعد ذلك ومع كبر الدولة على عهد عبدالمؤمن  
، اتخذ القاضي الذي كان قد استقر في الحضرة الخلافية مراکش لقب "قاضي  
لجماعة" تماماً كما كان الحال بالنسبة لقاضي قرطبة على عهد الأمويين (٤) .  
فكان الأمير هو الذي يعينه بشكل مباشر ، كما كان يمكن عزله حسبما يشاء  
ومع ذلك فعلى بداية عهد المنصور ، الذي كان يتطلع الى الكمال والاتقان ،  
حاول ان يجعل من القضاة نماذج يقتدى بهم ، كما كان الحال على عهد  
حلفاء الراشدين ، فخلال بعض الوقت أخذ بنفسه إدارة القضاء بين يديه  
(٥) . وجعل الأمير تحكيمه في متناول الجميع ، دون مراسم خاصة أو شكلية  
قانونية . ولكنه عزف عن ذلك بسرعة بسبب تفاهة الموضوعات التي كانت

---

(١) ماقبل ، ص ٣٦ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٣٨ .

(٣) البيهقي ، ص ٣٣ ، والترجمة ، ص ٤٢ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٦ .

(٥) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

تعرض عليه . هذا ، كما غير ما كان قد قرره من اتخاذ بعض المجالس فى ايام معينة من الاسبوع لبعض الموضوعات المحددة ، اكتفاء بالعهد لغيره بالإشراف على القضاة . وفى بعض الأحيان ، ومن وراء ستار (١) ، فكان يستمع الى إعلان الأحكام ، وربما تدخل فى الوقت المناسب .

وكيف يعين القاضى ؟ من الواضح ان الأمير هو الذى يعين فى هذه الوظيفة بالأشخاص الذين يتميزون بصفات خاصة ، مثل : العلم ، والورع ، القيمة الأدبية العظيمة (٢) . ولكنه اختلافا مع القاضى الأموى (٣) ، لم يكن للقاضى الموحدى أية سلطة فعلية على قضاة المدن الأخرى فى الولايات ، فهؤلاء كانوا مسئولين أمام حكام ولاياتهم الذين كان عليهم أن يقدموا الحساب ، أو التوضيحات للأمير (٤) . وهنا لا ينبغى استخلاص ان نفوذ القاضى كان ضعيفا أو هامشيا ، وذلك ان طبيعة الوظيفة الدينية كانت تعطى لصاحبها قوة روحية قد تمتد الى الأمير نفسه . وهكذا حدث ان أخت المنصور اختلقت مع زوجها ، وهو الشيخ القوى والوزير : أبو محمد عبدالواحد بن أبى حفص ، وان هذا الأخير من أجل ان يطلب بعودة زوجته التى كانت فى كنف أخيها الأمير لم يوجه خطابه إلى يعقوب ولكن إلى :

---

(١) انظر عبدالواحد ، (المعجب ، ص ٢٠٧) - حيث يقول المؤلف ان المنصور عندما عين إيا القاسم بقى بن مخلد قاضيا ، طلب منه ان يعقد مجلسه بحيث يمكنه سماع كل الاجراءات القضائية .

(٢) على عهد يوسف شغل وظيفة القاضى من يسمى حجاج بن ابراهيم التجيبى ، وأصله من مدينة اغماث وعرف الرجل بأنه زاهد ، ورع ، صوفى . وكان عالما بالفقه والاحاديث النبوية . كما عرف بالنقاء والطهارة . وكان صلبا فى الحق الى حد ان كثيرا من اعيان الناس تضرروا منه وانتقدوه لدى أبى يعقوب . ولكن هذا التصرف لم يعمل الا على زيادة قدره ، وثقة الأمير فى شخص قاضيه والتماطف معه (عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٧) .

(٣) قارن أ. ليفى - بروفنسال ، اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ، ص ٨٢ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٧ . وفيما يتعلق بعمر الرشيد ، أخى الأمير ، ووالى مرسية ، يقول المؤلف انه قتل قاضى المدينة .

قاضي الجماعة ابي عبدالله بن علي بن مروان (ت ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ - ١٢٠٥ م). ولما لم يحصل القاضي على أية جواب ، قدم استقالته الى الأمير طالباً قبولها إذا لم يوافق عل طلبه . وأمام إصرار القاضي وعناده ، اضطر يعقوب الى إجابة مطلبه ، ورجعت الأميرة العروس الى بيتها . وإذا كان لهذه القصة أثرها الشديد على ابن حلكان (١) ، فيجب الاعتراف بأن الأمر هذا لم ينقصه السبب . فالحقيقة ألم تكن أمراً يستحق التنويه ، من حيث انه في مواجعة : أمير مثل المنصور ، معروف بالورع والتفهم ، ولكنه صاحب سلطان مطلق ، كان يمكن ان يقف قاضي محترم ولكنه عنيد في الحق بالنسبة لأمره هذا ، بحيث أن هذا الأخير كان يمكن ينحني ، ويستجيب لمطالبه .

وكما هو الحال بالنسبة لخدمات الحكومة المركزية ، وباسلوب آخر البلاط الخلافي ، كانت محكمة القاضي تنعقد في إحدى القاعات الملتحقة بالقصر الملكي .

---

(١) وميات الاعيان ، ج٣ ، ص ٣٨٠ ، وعن هذا القاضي انظر ابن الأبار ، التكملة ، ح١ ص ٣٧٤ ، المراكشي ، الذيل والتكملة ، مخطوط ، باريس ، ورقة ٥٧ وجه .

## اختصاصات القاضى :

لا يحب نسيان ان القاضى كان ممثلا للدولة الخلافية ، وأنه يوجد فيه تداخل بين القوى الدنيوية والروحانية ، وأنه بالتالى ينبغى ان يجمع فى اختصاصاته الأمور الدينية ، مثل : الصلاة ، والزواج ، والوراثة ، وشرب الخمر وغيرها ، والأمور المدنية أو الجنائية . ومن الصعب رسم خط فاصل بين الشئون المدنية والجنائية ، أى بين اختصاصات القاضى واختصاصات "صاحب الشرطة" ، مدير الأمن . وعندما كان يعقوب يدير أمور العدالة بنفسه ، بصفته قاضى الجماعة ، كان صاحب شرطته وزيره : يحيى الذى كان يحضر مجلس القاضى (١) ، وهذا الأمر يدل على أنه يوجد تعاون بين القاضى ومدير الشرطة ، وأن الثانى كان فى درجة تابعة للأول . وهنا تظهر مشكلة أخرى ، وهى ماذا تعنى وظيفة الوزير صاحب الشرطة ؟ ومن الواضح ان الأمر ليس إلا حالة خاصة لتداخل السلطان فى الإدارة العليا لمنظمات الدولة ، وهى تابعة لشكل السلطة المطلقة التى يتمتع بها الأمير . وهكذا كان يمكن للوزير ان يضيف الى وظائفه تلك الخاصة برئيس الشرطة.

## المحتسب :

والى جانب القاضى ورئيس البوليس نلتقى بالمحتسب . ويظهر ان هذه الوظيفة الموحدية (٢) . تقترب من وظيفة المحتسب فى القرن الثامن الميلادى (٢٠٠هـ) أكثر من وظيفة محتسب القرن العاشر (٤٠٠هـ) . إن محتسب القرن العاشر (٤٠٠هـ) أصبح صاحب السوق المكلف بالتفتيش على الأسواق والأوزان والمكاييل (٣) . ان محمد بن تومرت عندما طبق شخصيا مبدأ الأمر بالمعروف

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

(٢) البندق ، ص ٤٧ والترجمة ، ص ٧٠ .

(٣) ج - ديمومبين ، النظم الاسلامية ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، لى برونسال ، اسبانيا الاسلامية فى

لقرن العاشر ص ٨٧

والنهي عن المنكر في أول دعوته ، كان أشبه ما يكون بمحتسب القرن الثامن (٥٢هـ) ، من حيث مراقبة الاخلاق العامة ، فقد كان يسكب آنية الخمر ، ويكسر آلات الموسيقى (البو) ، كما كان يتصدى بشكل عنيف لسيدات البلاط البرابطي غير المحجبات .

والظاهر ان المحتسب الموحدى ورث تراث ابن تومرت لمراقبة الاخلاق العامة ، والحقيقة هذا الاختصاص يأخذ شرعية من أحكام الفقه الاسلامي (١) .

### الولايات والإدارة المحلية؛

ونأتى الآن الى موضوع التنظيم الحكومى فى مراكش - وهنا تحسن دراسة تنظيم الولايات التى كانت تنقسم اليها الدولة الأمبراطورية . وتحديد عدد الولايات أمر صعب نظراً لندرة الوثائق . أما عن اتساع تلك الولايات فربما اختلف تبعاً للكثافة السكانية وأهمية الإقليم . وكل عاصمة إقليمية ، مثل : فاس وسلا ومكناس ، وتلمسان وبجاية وتونس إشبيلية وقرطبة وغرناطة ، بمساجدها الجامعة ، وقصبتها ، وأسواقها تعطى شكل العاصمة مراكش ، فكما كان لمراكش خليفتها كان لكل ولاية حاكمها (الوالى) ، ممثلة على رأس الحكومة المحلية ، الأمر الذى كان يعطى للولاية حكماً ذاتياً يكاد يكون كاملاً .

فالوالى يمثل الدولاب الرئيسى لآلة الحكم الادارية ؛ وهكذا كان الأمير يختاره بكل حذر . إنه الممثل الشخصى للأمير فى كامل اختصاصاته الادارية . انه ينشر الرسائل والأوامر الرسمية ، ويعمل على تنفيذها . وهو يدير الأعمال العامة ويسير على اقرار النظام وضمان سيادة العدل . وهو الذى يجمع الحشود العسكرية ويقودها . واخيراً فهو الذى يتلقى ايمان الطاعة والاخلاص من الرعية للأمير . والوالى قابل للعزل كما يمكن للأمير تبديله

---

(١) جولدزيهر ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، ص ٨٥ - ٨٦ .

بالنقل من موضع الى آخر حسبما يشاء ، وكما هو المعتاد فى ذلك العصر . وعلى عهد يعقوب كان يمكن ان يخلف الوالى أفراد عائلته ، وتلك كانت حالة الحفصيين فى افريقية . وكان يمكن لواحد من الولاة ان يرأس مجموعة من الولايات حسبما كانت تقضى الضرورات الادارية أو العسكرية لذلك الضم . هذا ، ولو أنه كانت العادة ان يرأس الوالى وحدة إدارية واحدة .

وفى جميع الأحوال كان على الوالى ان يبقى خاضعا للامير الذى عينه بشكل وثيق . فعلى عهد يعقوب كان الوالى الذى يسمح لنفسه ببعض الحرية التى تقدر خارجة عن المعتاد ، لم يكن يعرض ولايته وحدها للخطر بل رأسه أيضا (١) . والحقيقة ان الخليفة كان يحدد حرية تصرف الولاة - وكلاؤه فى الحكم - عن طريق ارسال التعليمات الخطية فى شكل رسائل دورية ، وكذلك عن طريق الدعوة الى المجيء الى الحضرة الخلافية لتقديم الحسابات أو إعطاء المبررات (٢) . هذا ، كما يمكنه أيضا أن يتحرى عن ادارتهم باستقبال الوفود الآتية من كل ارجاء الدولة ، وتسلم الشكاوى ممن يقدمها ، وعن طريق اشراف المندوبين فى الولايات ، ممن يشبهون المفتشين الخاضعين مباشرة اليه .

وكان للوالى الذى يظهر فى ولايته كخليفة صغير على رأس مملكة اقليمية ، حاشيته المحيطة به هو الآخر كما الحال فى مراکش . وأول أتباعه هو الوزير أو « كاتب » المستشار بالامتياز ، والذى عادة ما يعينه الخليفة ، ثم يأتى افراد ديوانه الصغير ، من حيث تصدر صور للخطابات الخليفية أو الأوامر المحلية الصادرة للولاية . وأخيرا يأتى القاضى الذى تمتزج فيه الامور المدنية والدينية بشكل لا ينفصم .

ومن وجهة النظر العسكرية فالوالى لا يمثل الخليفة دائما ، لأنه كان يحدث

(١) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٨٠ ، وانظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢١١ ، ٢٠٤ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .



ن يعين هذا الأخير نائبا أو قائدا للقوات المراقبة في الولاية . وكان ذلك إجراءً عبقرياً لضبط ولاء الوالى الذي كان اخلاصه موضع الريبة فى كثير من الأحيان .

وفىما يتعلق بالأمور المالية نظن ان العامل أو كاتب بيت المال ، وهو مسئول عن جباية الضرائب ، لم يكن مسئولاً أمام الوالى ، بل أمام الكاتب الذى كان يقدم الحسابات مباشرة الى الخليفة (١) .

### **القبيلة، وحدة ادارية؛**

فى قلب الدولة الموحدية كان للقبيلة مركز فى المقام الأول . فالقبيلة كانت النواة بالنسبة لتنظيم الدولة . وحياة لقبيلة كانت ، كما هو الحال دائما وفى كل مكان ، حرة مستقلة ذاتيا ، وكانت غيرة دائما على الحفاظ على تلك الحرية خالصة غير منقوصة ، على الأقل فيما يتعلق بشئونها الداخلية .

### **ترتيب القبيلة الموحدة؛**

كانت القبيلة الموحدية مقسمة إلى أفخاذ ، كل واحد منها له رئيس ، هو : المحتسب (٢) . ولكن يمكن أن نميز فى داخل القبيلة جماعتين مختلفتين الأعضاء . الجماعة الأولى تتكون من الموحدين حقيقة، وهم السابقون الأولون

---

(١) انظر ابن عذارى ، المجهول ، ص ٥٦ ، ٧٥ . كان أحد الاتهامات التى وجهت الى عمر الرشيد ، أخى المنصور ، حاكم الولاية الشرقية من الأندلس (مرسيه) ، أنه كان يتدخل فى الشئون المالية . ولقد اتهم بالاستيلاء ، بغير حق على أموال التجار ، وكان يطالب جباة الضرائب ، ويستولى على نفود بيت المال التى كانت تحت أيديهم (ص ٥٦) . وفى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦-١١٩٧م وأثناء إقامة المنصور فى اشبيلية بدأ يدقق فى حسابات أبى سليمان داود ، رئيس الجباة . وبعد عمل مستمر ٦ (سنة) أشهر اتضح ان حساباته ليست صحيحة ، وانها أظهرت عجزا يزيد على ١٥٠ ألف دينار ، وهو المبلغ الذى اتهم بالاستيلاء عليه . وبعد ذلك تم القبض عليه ، وصودرت أملاكه لحساب الدولة . وفى نفس الوقت اتهم من يسمى أبو على عمر بن أيوب ، المسئول عن النفقة بالاستيلاء على جزء كبير من الأموال التى كانت فى عهده . . وهكذا صودرت أمواله وحبس مع ابن داود الى ان عفا عنهما الأمير (ص ٧٥) .

(٢) البيدق ، ص ٤٦ ، الترجمة ، ص ٧٠ .

. والجماعة الثانية ، هم المتأخرون الذين التحقوا بالقبيلة ، وهم الذين أخذوا ، على عهد المنصور اسم "الغزاة" (أى المجاهدين فى سبيل الله) (١) . وكان لكل جماعة منهما رئيس هو "المزوار" (٢) ، ممثل الخليفة لدى القبيلة ، باستثناء قبيلة هرغه ، قبيلة ابن تومرت ، التى لا تكون الا جماعة واحدة ، والتى ليس لها إلا مزوار واحد (٣) . وهذا التنظيم القبلى الذى كان دارجا على عهد المنصور لا ينطبق إلا على القبائل التى تمثل العنصر الحربى الدائم فى الدولة الموحدية .

### القبيلة العربية:

وفيما يتعلق بالقبائل البدوية الوافدة أصلاً من افريقية فإنها كانت تتمتع بما يشبه الاستقلال الذاتى التام ، وذلك فيما يتعلق بتنظيمها الأول الذى لم يدخل عليه تغيير ما فى العصر الموحدى .

والتنظيم الاجتماعى الذى كان يتفق مع حياة البداوة كان بطبيعة الحال بدائياً ، وافراد القبيلة مرتبطون نظرياً ، ان لم يكن فى الحقيقة الواقعة ، برابطة القرابة والدم ، وهم يضعون على رأسهم زعيماً يسمى "السيد" أو "الشيخ" (٤) ، الذى يظهر كرئيس أو حاكم مطلق ، وان كان فى خدمة الجماعة . والقبيلة العربية لم يكن لها ممثلون لدى الأمير ، فى قلب مجالس الدولة ، مثل القبائل الموحدية . والرابطة الوحيدة بالأمير كانت تتمثل فى يمين الطاعة والولاء الذى كان يتراوح ما بين الإخلاص وعدمه ، أو رباط الخلف ،

(١) البندق ، ص ٤٧ ، والترجمة ، ص ٧٠ .

(٢) نفس المصدر ، السابق . وعن لقب مزوار قارن ر. برونشميج ، بلاد البربر الشرقية ، على عهد

الحفصيين (بالفرنسية) ، ج ٢ ص ٤٨ ، ٥٩ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) لقباً السيد والشيخ هما ليس لهما ، كما هو الحال عند الموحدين ، قيمة رسمية . فلقب سيد

عند الموحدين يطلق على أفراد العائلة الملكية ، أما لقب شيخ فيطلق على كبار رجال الدولة .

بمعنى لوعده بتقديم العون العسكرى الأمر الذى يزيد الاخلاص فيه أويقل .  
وفى دراستنا هذه عن الادارة الإقليمية ، التي اتضح لنا أنها فى مقابلة للإدارة  
المركزية بالعاصمة ، وبالتالي فإن تنظيم القبيلة كان بالنسبة بدائيا .

### الخزانة العامة:

ويتبقى لنا الآن اختيار التنظيم المالى للدولة . وتبعاً لقانون أزلنى تتميز  
الشئون المالية بأهمية عظمى . فالمشروعات الكبرى العديدة على عهد يعقوب  
رادت من أهميتها يوماً بعد يوم . فالنفقات كانت ثقيلة ، من : الحروب  
المستمرة ، وزيادة الترف الخلفى ، وفخامة الانشاءات المعمارية ، كل ذلك  
كان له ثمن غال ، وكان الأمير يصادف الكثير من الصعوبات فى موازنة  
الدخل والنفقات (١) . ومن الواضح أن الدولة كنت فى حاجة الى تنظيم  
مالى معتبر من أجل ادارة الوارد والمنصرف مما كانت طبيعته مختلفة على قدر  
تنوع أساليب الجباية .

والنظام المالى ، كما يظهر ، لم يكن أكثر من تقاليد الماضى الحية للدولة  
الاسلامية ، بمصادر دخلها المختلفة مما كان يجمعه الأمير بخاصة الى جانب  
الدخول العامة للدولة .

### دخول الخليفة الخاصة:

من بين مصادر الدخل المختلفة التي كان يمكن للأمير الاعتماد عليها ، كان  
استغلال الضياع الخاصة يأتى فى المقام الأول . ونظراً لافتقار الوثائق ، يفترض  
ان تكون الممتلكات التى كان يتصرف فيها يعقوب ضخمة ومورعة على طول  
امتداد الدولة . وكان ينبغى ان تكون كتلة عظيمة متماسكة فى منطقة

---

(١) القرطاس ، ص ١٥٢ ، الترجمة ، ص ٣٨٥ . حيث يذكر المؤرخ ان المنصور كان يأسف على عدد  
من المشاريع التي قام بها ، من بينها : بناء مدينة رباط المتح ( الرباط ) . وهنا يشير الى ان هذا  
لشعور ، يعتبر مقياساً للرأى العام فى ذلك الوقت بالنسبة لسياسة العمران البائية التى أرهقت  
الدولة إقتصاديا

مراكش ، بناء على مصادرة ممتلكات الأسرة المرابطية مما تم لحساب عبدالمؤمن ويوسف ثم يعقوب الذين كانوا يهدفون إخصاب تلك المنطقة (١) . وأغلب الظن ان الأمر كان كذلك بالأندلس ، فى منطقة اشبيلية ، حيث كان الأمير يقضى حانيا كبيرا من وقته ، وحيث كان والده قد أقام كوال فى حياة عبدالمؤمن (٢) . هذه الضياع ، كانت كما هو الحال أراضى زراعية ، وسهوب أو حدائق مما بقى بعضه تحت الادارة المباشرة للأمير ، بينما كان الأغلب قد أعطى كإقطاع الى رؤساء الموحدين أو العرب أو الغز (٣) . ان حقيقة وجود أمناء من أجل الاشراف على الاستغلال ، وصيانة الممتلكات المنقولة والثابتة - كما هو الحال فى الضياع الكبيرة ، من : الماشية ، والمساكن والزرائب والاصطبلات والطواحين - يثبت انه كان من مصلحة الأمير ان يحقق لكل ذلك ادارة كاملة ولا شك ان حاجته إلى المال كانت تضطره الى مراقبة "أمين الضياع" مراقبة لصيقه - تمتد الى الجباة أيضا (٤) .

وعلى عهد المنصور كان من يسمى "ابوبكر" ، وهو ابن كاتب "ابن تومرت" سليمان آحضرى ، يشغل منصب أمين الضياع الخلافية بينما كان أخوه يعقوب كاتباً للخليفة (٥) ، الأمر الذى يوحى بأن ادارة الضياع الأميرية

(١) الإدريسي ، ص ٦٨ - ٦٩ ، الاستبصار ، والمخطوط ، ورقة ٨٠ ظهر ، والترجمة ، ص ١٨٠ وما بعدها ، وانظر فيما بعد ، ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) لقد كان فى شهر صفر ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م حينما قام يوسف ببناء قصوره المعروفه بالبحيرة (البستان) ، والتي غرست حولها عشرات الآلاف من اشجار الزيتون المختاره ، وحيث صدرت الأوامر أيضا بالجمي بمختلف اشجار الفاكهة ، مثل : الكمثرى ، والتفاح وكل ذلك على حساب الخزانة العامة . ابن صاحب الصلاة ، ص ، والمخطوط ، ورقة ١٦٠ ظهر ، ١٦١ وجه ، و ١٦١ ظهر ، والمستخلص من انطونيا (Antun'a) ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣) عبد الواحد ، المعجب . حيث يقول المؤلف ، ان يعقوب أعطى من يسمى شعبان ، من زعماء الغز ، عددا من القرى (المزارع) فى الاندلس ، مما كانت غلته تصل الى ٩ (تسعة) آلاف دينار .

(٤) انظر ص ١٥٠ .

(٥) البيدق ، المقتبس ، ص ٤٠ .

لم تكن أقل أهمية فى نظر الأمير عن رئاسة "ديوان الانشاء".

### الدخول العامة للدولة:

يرجع الفضل الى عبدالمؤمن الذى كان أول من حقق فى المغرب جباية الضرائب حسب أسلوب حسن التنظيم ، فلاول مرة قُيِّمت مساحة الأراضى فى كل بلاد الشمال الافريقى ، من تخوم برقة حتى بلاد نول فى السوس الأقصى . واستثنى عبدالمؤمن الثلث غير المنتج من المساحة ، من : الجبال والغابات ، والأنهار ، والسباخ والطرق ، فأعفاه من الضرائب . وفرضت ضريبة الأراضى على الباقي ، فكان على كل قبيلة ان تدفع حصتها ، إما نقداً وإما عيناً (١).

وكانت ضريبة الخراج (على الأرض) هى المورد بالامتياز لدخل الخزانة العامة (٢). كانت الدولة الفسيحة مقسمة الى عدد من الولايات المحددة المساحة التى تتفق مع مسمياتها الادارية . وأخيراً ، كان مندوب الأمير الذى يحمل لقب "عامل" مسئول عن جمع الضرائب وكل الاموال المقررة للأمير فى حدود ولايته . وهذا الجابى هنا كما فى كل البلاد الاسلامية الأخرى ، كان مستقلاً عن الوالى ، وعادة ما يكون معيناً من قبل الخليفة الذى تؤدى اليه حسابات الجباية . وإذا كانت المصادر المتوفرة لدينا لا تحدثنا عن هذه المسألة ، باستثناء عبد الواحد الذى يتكلم عن الخراج بشكل عام تماماً (٣) ، الذى

---

(١) فارن القرطاس ، ص ١٢٨ (ابن أبى دينار ، ١١٢) .

(٢) هذا ما يظهر من رواية عبد الواحد ، عندما يعرض وان كان بشكل عام لضريبة الأرض الخراجية فى

الولايات المختلفة (المعجب ، ص ١٨٣) .

(٣) البيدق ، ص ٤٧ ، الترجمة ، ص ٧١ .

يتحدث عن سك النقود (١) . وهكذا يجب الاعتقاد في ان دخل الدولة كان متعدد المصادر ذوات الطبيعة المختلفة . وبناء على ذلك كان المسلمون يخضعون الى "الزكاة" (٢) . وفي المدن كان السكان من غير المسلمين وخاصة اليهود ، مضطرون الى دفع ضريبة "الجزية" . ومن المحتمل جدا ان الضريبة المفروضة على اليهود الذين تعرضوا على عهد المنصور الى اجراءات صارمة ، كانوا يمثلون مصدرا مهما بالنسبة لخزانة الخلافة العامة . ولما كان الأمير في صراع دائم مع النصارى الاسبان ، كان "الخمس" من الغنائم يكون مصدراً شبه منتظم للدخل العام .

ان مختلف الضرائب التي ذكرناها تمثل الضرائب الشرعية المقننة بالنصوص الدينية . ومع ذلك فلنا ان نتساءل إن كانت هناك ضرائب أخرى موازية لها ما قد يعتبر من الضرائب غير الشرعية . فالمعروف أنه كانت توجد على عهد المرابطين ضرائب مبيعات على كل ما يباع أو يشتري من كبير الثمن أو قليله . ولكن مصمودة وضعت نهاية لذلك التقليد ، فكان يحكم بالموت

---

(١) ان معلوماتنا عن سك النقود محدودة . فحين نعرف ان قطع النقود كانت ، في العادة ، مربعة ، وهو ابتكار يعزى لابن تومرت . وكانت تضرب من الذهب والفضة ومن سبائك عنية أو فقيرة في المعادن الثمينة . وكانت القطعة الذهبية تحمل على لوجه العبارة التي تؤكد ، التوحيد الإلهي والرسالة النبوية والاعتراف بمحمد ابن تومرت إماما معصوما . وعلى الوجه الآخر (الظهر) كنا نقرأ أحيانا اسم الأمير مع لقبه "أمير المؤمنين" واللقاب والده وجده . قارن دي ساسي ، مذكرات عن بعض النقود العربية ، مستلة من المجلة الآسيوية (J.A) ١٨٣٧ ، ص ١ وما بعدها . والقطع التي لم تكن من الفضة لا تحمل أبدا اسم الأمير ، ولكن العبارة التي تؤكد قاعدة المذهب (التوحيد) (٢.٤) بل ، إضافة الى دراسة الدراهم الموحدية ، هسبيريس ، ١٩٣٣ ، ص ٨ ، ١٠ ) ومن بين هذه القطع الصغيرة يوجد بعض الدراهم ، ونصف الدرهم ، والربع ، والثلث بل وواحد على ستة عشر من الدرهم ، الأمر الذي كان يسهل شراء الأشياء الزهيدة الثمن (عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٤٨ والترجمة ص ١٧٩) .

(٢) رسائل رسمية موحدية ، ص ١٦٧ ، الدراسة ، ص ٥٧

على من يزاوله مهما كان شخصه (١) . وهكذا وعلى عهد يوسف ، كانت الضريبة المعمول بها هي ضريبة الأرض وحدها بدون "مظالم" ، وهي التي ازدهرت الدولة بها حيث كانت المصدر الكبير لدخل الدولة (٢) . ومع ذلك فنحن نلاحظ ان الدولة كانت تقتضى في هذه الفترة ضريبة مقدارها ١٠٪ (عشرة بالمائة) على جميع البضائع المباعة فى الموانئ الموحدة بمعرفة التجار المسيحيين (٣) . وماذا يمكن ان يقال عن هذه الضريبة ونحن نرى أنها يمكن ان تفسر على أساس الاستثناء فيما يتعلق بالعلاقات التجارية مع النصارى ، مما كانت تنظمه المعاهدات الخاصة . أما عما منعت مضمودة عن جباية ضريبة المبيعات أياً كان قدرها وهل بقى ذلك الى عهد المنصور ؟ فليس من الممكن الفصل فى ذلك الأمر ، المعروف هو ان المؤرخين يصرون على أن يعقوب لم يبن قصبة وجامع مراكش وكذلك رباط الفتح الا من المال الحلال المأخوذ من خمس الغنائم . وهو الأمر الذى يؤدي الى التفكير فى انه كان من بين الجبايات المختلفة التي تدخل خزانة الدولة ، انواع اعتبرت غير شرعية ، مثل المكوس ، والغرامات ، وحق المرور على الطرق والقناطر ، وحق الدخول والخروج ، وضرائب الأسواق مما كان يجبيه عمال الخزانة فى المدن الكبيرة وفى الموانئ والأسواق .

من دراسة النظم الموحدة هذه يمكن استخلاص بعض الخطوط العريضة . من عرض تاريخ تلك النظم أمكننا الإشارة الى انها ظهرت فى حالة بدائية ، تماما كما كان الحال فى المجتمع الاسلامى الاولى على عهد النبوة والخلفاء الأوائل ، وذلك المجتمع كان النموذج الذى اقتدى به محمد تومرت . ولاحظنا بعد ذلك التطور الذى ألم بتلك النظم مع مرور الوقت وتغير الأحوال الى أن

---

(١) انظر الارديسى ، ص ٧٠ .

(٢) القرطاس ، ص ١٣٥ ( ابن ابي دينار ، ص ١١٣ ) .

(٣) انظر فيما بعد ، ص ١٩٦ .



بلغت ذروة الإزدهار على عهد يعقوب . هكذا كان الأمر مع خلافة  
وخصائصها الأولية المحلية ثم تحولها نحو العالمية ، وكذلك الحال بالنسبة  
للوزارة وخطة الكتابة . وخلال تلك التطورات الأخيرة ركزنا على الروح  
الموحية التي قامت بها بلاد الأندلس .

ومن بين النظم الموحدية حقيقة تعرفنا على مجالس الدولة ، مثل : مجلس  
العشرة ، ومجلس الخمسين ، "والطلبة" : الابتكار الخاص بابن تومرت حقيقة  
. وعرفنا أيضا الخصائص الفريدة لتنظيم الجيش ، أهم المنظمات على  
الاطلاق .

وأخيراً فهناك خاصية تنفرد بها تلك النظم . حقيقة انها كانت متنوعة ،  
و ذات اختصاصات مختلفة ، ولكننا لاحظنا ان هنا نوعا من المزج أو التداخل  
الذى يكثر أو يقل فيما بينها ، وخاصة فى الدرجات العليا ، وهذه الصفة  
المميزة تابعة توجهات الحكم المطلق عند الأمير الذى كان يود ان يجمع بين  
يديه كل مقدرات الدولة .

## القسم الثالث

# الحياة الاقتصادية

## الحياة الاقتصادية:

من أجل رسم خريطة للاقتصاد الموحدى ، علينا ان نرجع الى الجغرافيين العرب ، وخاصة كتب البكرى والإدريسى ثم كتاب الاستبصار لمؤرخ مجهول .

ولما كانت قاعدة هذا الاقتصاد زراعية ، فهو يظهر وكأنه اقتصاد متوقف منذ دخول البلاد تحت مظلة الاسلام ، وان كان النشاط الصناعى غير مفتقد بطبيعة الحال . وهكذا سنعرض لهذين المظهرين من ثروات البلاد ومن ناحية أخرى فقد عرفنا ان الدولة الموحدية تنقسم الى ثلاثة أقاليم سنعرض لها جميعا هنا نظرا للتأثيرات التى كانت تمارسها على كل منها الخصائص المختلفة لكل واحد من تلك الأقاليم .

## الزراعة ومنتجات البحر

### أ - المغرب :

لما كانت بلاد المغرب هى نواه الدولة ، ومقر الخلافة الموحدية ، كان المغرب دائماً موضع عناية الأميرالخاصة . وهنا يمثل كتاب الاستبصار وثيقة ممتازة عن الحالة الاقتصادية للمغرب على عهد المنصور ، من حيث ان مؤلفه كان من المعاصرين .

فمنطقة مراكش التى كانت جذباء الى حد الاعتقاد فى أنها كانت مكونة من طبقات من الحجارة المتوالية ، أصبحت بلداً عجيب الخصب بفضل أعمال الرى الذكية (١) ، التى سمحت لأهلها بحياة أكثر سهولة . ان ضواحي العاصمة وضواحي المدينة كانت تكثرفيها البساتين والرياض . وفيها كانت تقوم بالحرثة والزراعة كل من قبائل دكالة ونفيس (٢) . ويرجع الفضل

١ م الاستبصار ، ترجمة ، ص ١٨٠

(٢) المصدر لسابق .

لعبدالمؤمن فى تحقيق هذا العمل فهو الذى أثبت عن طريق حراثة هذه المنطقة وزراعتها واستغلال ثرواتها ، أنه إذا كانت تلك الناحية قد عانت من الفقر فى السابق فإنما يرجع الى عجز ادارتها وقتئذ . والحقيقة ان أعمال الرى التى قام بها هذا الأمير هى التى حققت الخصب والرخاء لذلك الإقليم . فمنايع المياه المحلية وكذلك الآبار الواسعة لم تكن كافية لإمداد المراكز النامية بالمياه . فوجب استغلال مصادر أخرى للماء ، وحفر آبار جديدة فى الأطراف المجاورة ، وحتى فى الجبال البعيدة . وهكذا جلبت المياه من انهار جبال درن ، وحفر صهريجين كبيرين خارج المدينة لاستقبال تلك المياه (١) . وبذلك اقيمت بحيرة ( حديقة ) كبيرة فى غرب المدينة بالقرب من اقليم نفيس . كما أقام يوسف هو الآخر حدائق وبساتين مخصصة للزراعة بفضل أعمال مائية أخرى أكثر أهمية من السابقة (٢) . ولقد أمر أبو يوسف يعقوب بحفر قناة أخرى تمر فى وسط المدينة من الجنوب الى الشمال . وعلى طول هذه القناة التى كانت تدير قصره بالماء ، بنى أحواض الماء لسقيا الخيل والماشية ، والتى كانت تخدم الناس أيضا (٣) . وظلت هذه السياسة مستمرة على عهد يعقوب حتى أصبحت المنطقة من أغنى المناطق غنى بالحدائق والرياض ، حيث وجد بها

---

(١) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨١ . ولا بأس من الاشارة هنا الى ان عبدالمؤمن وابناءه لم يعملوا

أكثر من الاستمرار فى الأعمال المائية التى كان قد بدأها المرابطون ، بناء مدينة مراكش . وفى البداية

كانت الآبار المصدر الوحيد لإمداد المدينة بالماء . وكان على بن يوسف بن تاشفين أول من حقق

أعمال جلب المياه من مسافة أميال بعيدة . وعهد بهذا العمل أولا إلى من يسمى عبدالله بن

يوسف ، وهو مهندس ، ولكن الأعمال هذه لم تتم فى عهد على . فمقصودة هم الذين أكملوا

الأعمال وادخلوا المياه الى المدينة بعد استيلائهم عليها (الأدريسى ، ص ٦٨ - ٦٩) .

(٢) انظر الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٠٢ - حيث الاشارة الى ان دخل الحديقة ( السحيرة ) التى اقيمت

فى سنة ٥٤٣ هـ فى مراكش كان ٣٠ ( ثلاثين ) ألف دينار (الحلل ، ص ١٢١) .

(٣) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٢ .

الكثير من اشجار الزيتون ، والكرم والفواكه من كل لون ، وذلك فى نفس المكان الذى كان العصفور ، كما يقول صاحب الاستبصار ، يقع فيه ميتا قبل ذلك من شدة الحرارة والعطش (١) .

وكانت منطقة نفيس فى غرب مراكش منطقة زراعية هى الأخرى ، حيث كانت غنية بالقمح وأشجار الفاكهة ، وكانت الكرمة هناك تعطى أنواعاً مختلفة من العنب الذى كان يجفف الى زبيب (٢) . وكذلك كان الأمر بالنسبة لمنطقة أغمات التى كانت مركزا زراعيا وتجاريا فى نفس الوقت . ففى أفروجى ، على مسافة مرحلة من مراكش ، كان الماء لا يفتقد أبدا . وكانت المنطقة منتجة للفواكه وغيرها من المواد الغذائية (٣) .

وكانت منطقة وادى سبو موضع إهتمام الأمير أيضا . ومدينة فاس التى تقع على ٣ ( ثلاثة ) أميال من النهر ، بعدوتيهما ( حبيها ) : عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين اللذين يفصلهما وادى فاس ، رافد وادى سبو ، كانت أكبر مدن المغرب وأكثرها ازدهارا (٤) . وإذا كانت مراكش هى العاصمة الرسمية للمغرب ، فإن هذا الأخير كان فخورا بفاس ، على اعتبارها العاصمة الحقيقية . فعندما وصل ابن منقذ سفير صلاح الدين الى يعقوب المنصور ، يقول انهم صحبوه خارج فارس ليتنزه فى بستان يسمى العجبية ، يصل ثمنه الى ٤٥ ( خمسة وأربعين ) ألف دينار . وهو يقول انه كان هناك حدائق ورياض أعظم من ذلك وأكبر (٥) . وفى داخل المدينة كان هناك ٣٠٠ ( ثلاثمائة ) طاحونة (٦) . تدور بالسوانى « القنوات » التى تجرى فى المدينة ، وعددها ٣٦٠

(١) نفس المرجع السابق ، الترجمة ، ص ١٣٧ .

(٢) الأدريسى ، ص ٦٣ ، وقارن الاستبصار .

(٣) الاستبصار .

(٤) نفس المصدر ، عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٦١ .

(٥) العمرى ، مسالك ، الترجمة ، ص ١٦٠ ، القلقشندى ، صبح ، ج ٥ ص ١٥٧ .

(٦) عبد الواحد ، المعجب ص ٢٦١ .

( ثلاثمائة وستين (١) . والتي تمر بمعظم منازلها . والاقليم الذى يعتبر من اخصب بلاد المغرب ، وأكثرها امدادا بالماء ، كان غنيا بالحدائق ، والفواكه ، والنباتات ، والمزروعات من كل الأنواع ، وخاصة على عهد المنصور (٢) . فالقمح هناك رخيص السعر ، والفواكه موجودة بكثرة وفى قرية قلعة زياد ، غرب عدوة القرويين ، كان يكثر الزيتون (٣) . وحسب مقالة عبدالواحد (٤) ، كانت المدينة زاخرة بكل شىء ، ولم يكن ينقصها إلا العطر الهندى . ومع ذلك ، ورغم غنى المنطقة الزراعية ، فإن مؤلف الاستبصار يرى أن المنطقة كان يمكن ان تكون أكثر ازدهارا لو أن الحكومة أتت بالماء من وادي سبو فى السهول المجاورة من أجل تأكيد الرى المنتظم ويرى المؤلف انه كان من الممكن تسهيل تحقيق هذا المشروع فى عدة مواضع وانه يعتقد ان تنفيذها لن يتأخر كثيرا .

وغير بعيد من فاس ، كان أهل صفروى منصرفين تماما الى زراعة الأرض . والمنطقة بها الماء الوفير ، وأهلها فى معظمهم من الفلاحين ، أصحاب الماشية ودواب الركوب (٥) . وتكثر الكرمة فيها وكذلك الفواكه ، واللوز الذى كان يصدر الى اسواق فاس (٦) . أما مغيلة القاط ، وهى قرية فى نفس المنطقة ، فكانت تميز فاس بالتين الجاف (٧) . ومنطقة مكناسة الزيتون لم تكن أقل غنى فى رراعاتها ، فقد كانت المركز الرئيسى لشجر الزيتون ، ومنها أخذت المنطقة اسمها : "مكناسة الزيتون" . وهذه المدينة تحوي ٤ (اربع) مدن ، أهمها

---

(١) الاستبصار .

(٢) الادريسي ، ص ٧٥ .

(٣) الاستبصار ، ص ٧٤ .

(٤) المعجب ، ص ٢٦١ .

(٥) الاستبصار ، ص ١٩٣ ، والترجمة ، ص ١٤٧ ، الادريسي ، ص ٧٦

(٦) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٤٧ .

(٧) نفس المصدر .

تقرارات (تجارات) وهي كلمة تعنى المعسكر (١). وفي هذه المنطقة ، لتي عرفت بخصبها أنشأ المنصور حدائق واسعة جلبت اليها الماء النهر (الوادي) . وأمر ان يغرس فيها شجر الزيتون وأشجار الفواكه (٢).

ومنطقة تازا على التخوم الشمالية الشرقية للمغرب الأقصى ، مع مركزها مدينة رباط تازا أو مكناسة تازا ، التي بنيت حديثا بمعرفة عبدالمؤمن (٣) ، كانت هي الأخرى مردهرة ، كما كانت غنية بأشجار الفاكهة ، من : التين والكرم وخاصة شجر اللوز (٤) . وفي الجبال كان شجر الأرز ، كما وجد بها أنواع من النباتات الطبية . وخيل تلك البلاد شهيرة بماشيتها ودوابها ، اشتهرت بشجاعتها ومقدرتها على العمل (٥).

واشتهرت بلاد غمارة بفلاحة أرضها ، من : القمح ، والشعير ، والحبوب ، والفواكه والعسل وغيرها (٦) . فمدينة بصره كانت تسمى : بصره "اللبان" (الجليب) وبصره "الكتان" ، لكثرة هاتين الغلتين (٧) وقصر عبدالكريم المعروف بقصر دنهاجة تطور بالتالي الى مركز تجارى . وبنى فيه المنصور فندقين عجيبين ، وبذلك أصبح يفد على هذا المركز التجار من كل البلاد (٨) . وهكذا كانت كل بلاد غماره ، على عهد الموحدين ، مكونة من مدن مردهرة ، وأراض محروثة ، وحقول مزروعة ، كل ذلك فى الأودية وفى الجبال أيضا (٩) .

(١) الاستبصار ، قارن الادريسي ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ١٣٥ ، هـ ٣ .

(٤) الاستبصار ، الترجمة ، ١٣٤ .

(٥) الاستبصار ، الترجمة ص ١٣٥ .

(٦) الاستبصار ، وقارن الادريسي ، ص ١٧٠ .

(٧) الاستبصار ، الترجمة ، ١٣٩ .

(٨) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٤٦ .

(٩) الاستبصار ، نفس الصفحة .



وفي جنوب وادي تنسيفت ، نهر مراکش ، كانت منطقة جبال درن من احسن البلاد سقاية ، وأكثرها شجرا وكروما . وكانت تلك الأخيرة من الكثرة بحيث كان طعام الناس من العنب طازجا وزبيبا جافا ، كما كان شرابهم عصير العنب المعروف بالرب<sup>(١)</sup> . ومنطقة واد سوس عرفت بغناها في قصب السكر ، وخاصة في تارودانت ، حيث أصبح استخلاص السكر صناعة مزدهرة . فمن تارودانت كان يصدر السكر الى افريقيا والاندلس وكل بلاد المغرب<sup>(٢)</sup> .

والى جانب قصب السكر والفواكه كانت التمور وفيه في إيجلى ، عاصمة السوس . فقد كانت من الكثرة بحيث ان حمل الدابة منها كان اقل ثمنا من أجرة نقلها من الحديقة الى السوق<sup>(٣)</sup> . وكانت ثمرة الهرجان ، وهى الفاكهة الشبيهة بالكمثرى التى يستخرج منها زيت ممتاز لعلاج وحفظ الكليتين ، هى المحصول المحلى الوحيد الذى يمد المنطقة بالزيت<sup>(٤)</sup> . وكان يوجد بالبلاد عسل ممتاز ، منه يصنع شراب مسكر عجيب<sup>(٥)</sup> . وفي الجنوب كانت بلاد صنهاجة ( من لتونة ومسوفة ) ارض مراعى وتربية ماشية . فاهلها كانوا يأكلون اللحم وحده مجففاً ، ويشربون اللبن ، فكانوا لا يعرفون الخبز<sup>(٦)</sup> . وهكذا كانت ١٠ ( عشرة ) خراف وربما أكثر ، لا تساوى أكثر من دينار واحد<sup>(٧)</sup> . وفيها كان الاشتغال بصيد اللمط الذى كان يستخدم جلده فى صنع الدروع الشهيرة بالدرق<sup>(٨)</sup> .

---

( ١ ) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٤ .

( ٢ ) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٦ .

( ٣ ) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٣ .

( ٤ ) نفس المصدر ، والترجمة ، ص ١٨٢ و ١٨١ ، البكرى ، ص ١٦٢ .

( ٥ ) الاستبصار ، نفس الصفحة ، الأدريسى ، ص ٦٢ - ٦٣ .

( ٦ ) الاستبصار ، الترجمة ص ١١٨ ، الأدريسى ، ص ٥٨ - ٥٩ ، وقارن للمؤلف ، ج ٤

( ٧ ) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٩ .

( ٨ ) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٩ .

أما عن اقليم درعه وكذلك سجلماسة فلم يكونا محرومين أيضا من الثروة العظيمة . فسجلماسة كانت مشهورة بزراعة القطن (١) . وفى أرضها المعروفة بشقوقها كان يبذر القمح مرة واحدة، فتكفى لجنى المحصول ثلاث سنوات متصلة وربما أكثر من ذلك (٢) . وفى درعة كان هناك الكثير ، من : الزيت ، النيلة ، والكراوية ، والكمون ثم بعد ذلك الحناء بصفة خاصة (٣) . وهناك كانت شجرة التاكوت ، التى تستخدم لدبغ الجلود الآتية من غدامس (٤) .

واقليم الساحل بالمغرب الأوسط كان هو الآخر خصيبا ، فكان ينتج الحبوب الكثيرة ، كما كان غنيا بمراعيه المناسبة لتربية الماشية والدواب للركوب ، وهكذا ازدهرت التجارة فى كل من : تنس ووهران ، وأرشجول - مينا تلمسان - وهنين (٥) .

### ب- افريقية:

رغم التجارب القاسية التى عرفتها افريقيا ، من : العزوة الهلالية ، وغزوة بنى غانية ، فإن صورة البلاد على عهد النصور ظلت كما كانت عليه فى الماضى .

فمن بين المحاصيل الرئيسية فى افريقية كان القمح يشغل كما فى الماضى المكانة الأولى . واذا كانت منطقة القيروان قد فقدت شهرتها كمنتج للقمح

---

(١) الادريسي ، ص ٧٥ .

(٢) الادريسي ، ص ٦٠ ، الاستبصار .

(٣) الادريسي ، ص ٦١ ، الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٨ .

(٤) الاستبصار ، الترجمة ٨٨ ، البكرى ، ص ١٥٢ .

(٥) الاستبصار ، والترجمة ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، الادريسي ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ١٧٢ ، البكرى ، ص

٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ .

(١) ، فإن منطقة باجة ، ظلت ، كما فى الماضى ، " أهراء افريقية " . فقد كانت تمير كل المدن بالقمح ، وكانت تطعم سكان البلاد جميعا ، من عرب وبربر (٢) . وكانت المحاصيل الغذائية بها رخيصة الثمن جدا ، وبقرب باجة كانت منطقة القل ذات الأرض السوداء الصالحة لزراعة جميع محاصيل الحبوب ، وكذلك القل والفل (٣) . أما بجاية وجزائر بنى مزغنانى ( الجزائر العاصمة ) فكانت هى الأخرى مناطق للقمح والشعير (٤) .

وبعد القمح يأتى الزيتون . وإذا كان القمح مخصصا عادة للاستهلاك المحلى ، فإن الزيت كان معتبرا من المحاصيل النقدية الأجنبية فى تلك الفترة ، اذ كان جزء كبير من المحصول مخصص للتصدير ، وكانت المنطقة المخصصة لأشجار الزيتون بالامتياز تمتد من صفاقس الى تونس . فقد كانت شجرة الزيتون هى شجرة السهول الرملية كما هو الحال فى كل منطقة الساحل (٥) . هذا الاقليم المطل على طول الساحل والمكون من الحدائق والرياض احتفظ من غير شك بنفس اقتصادياته فى سالف الآوان فزيت صفاقس كان من نوعية أعلى من كل غير ، باستثناء الزيت المشرقى (٦) . ومثل ذلك وفى كل بلاد الجريد وقسطيلية وقفصة ونقطة وتقيوس ، والحامة ، وطرة وبشرا ، كان أهلها

---

(١) حسب البكرى ( ص ٢٤ ) كان ذلك الاقليم غنيا بالقمح . فالحبة الواحدة كانت تنتج فى منطقة الدارّة ، بالقرب من القيروان ، حوالى مائة حبة فى السنوات الطيبة . فالادريسي ( ص ١١٠ - ١١١ ) يقول ان الاقليم الذى تقع فيه القيروان وصبرة ورقادة يسوده العرب ، ويؤكد أنه خراب على أيامه . أما صاحب الاستبصار فلا يقول شيئا عن القيروان على أيامه ، ويكتفى بمدح ازدهاره فى الأيام الخالية .

(٢) الاستبصار ، وقارن الادريسي ، ص ١١٥ - ١١٦ ، البكرى ، ص ٥٦ .

(٣) الاستبصار .

(٤) الادريسي ، ص ٩٠ .

(٥) هذا الاقليم كان يسمى الساحل لبس بمعنى ساحل البحر ، ولكن لأن لونة القاتم ناتج عن كثافة

أشجار الزيتون فيه ، وأشجار الفاكهة والكرم . التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص ٦٨ .

(٦) الاستبصار ، الادريسي ، ص ١٠٧ ، البكرى ، ص ٢٠ ، ٤٥ .

قد كرسوا جهودهم لزراعة شجر الزيتون (١) . أما في بلاد الزاب فلم تفتقد زراعة الزيتون تماما ، إذ كانت الزيتون تزرع في بسكرة (٢) .

والأقاليم الثلاثة الأخيرة كانت أكثر مواطن إنتاج التمر . فلقد كانت النخلة هي أساس ثروة بلاد الجريد ، وهي التي أعطت لتلك البلاد اسمها : "سعف النخل" (٣) ، وأقليم الزاب كان له مركزه : واحة بسكرة التي عرفت باسم "بسكرة النخل" بسبب شهرة تمرها العالي الرتبة (٤) . وتوزر : مركز نشاط قسطنطينية المعروفة باسم "توزر مدينة التمر" (٥) . كانت تمر بلاد إفريقية المختلفة وكذلك الصحراء بالقسم الأكبر من حاجتها من التمر (٦) . وفي قفصة أيضا كان يوجد نوع من التمر حجمه كحجم البيض . وكان يحفظ في الجرار حيث يترك شرابا كان يستهلك كما العسل ، كما كان يستخدم في عمل الحلوى (٧) .

إلى جانب هذه المحاصيل الأساسية الثلاثة ، وجد غيرها مما هو في درجة أقل ، مثل أشجار الفاكهة ، والكرم ، والتوت ، ونباتات استوائية غريبة ، مثل : الموز وقصب السكر والقطن .

أما عن أشجار الفواكه فكانت توجد متناثرة في كل مكان ، فقد كانت تكسو سفوح زغوان ، وتحيط بتونس ، وتحمل موقع قرطاجنة . كل منطقة الشاطئ وحواف الساحل كانت مشهورة بكثرة أشجارها . جلولا ، كانت

---

(١) الاستبصار .

(٢) الاستبصار ، الإدريسي ، ص ١٠٣ - حيث تسمية بلاد الجريد ببلاد التمر .

(٣) الاستبصار ، وما بعدها .

(٤) الاستبصار ، البكري ، ص ٥٢ .

(٥) الإدريسي ، ص ١٠٤ .

(٦) الاستبصار .

(٧) الاستبصار .

غنية بحدائقها ، وأشجار الفواكه والرياحين أما الياسمين الذى كان يجتذب  
خلايا النحل فكان غزيرا فى المنطقة حتى تخصصت فى انتاج نوع متميز من  
العسل (١) ، وخاصة فى قصر لحم (٢) . هذا ، ولم تكن اشجار الفاكهة  
مفتقدة فى منطقة القل الشهيرة بالحوب والقريبة من باجة (٣) .

وفى جيجل كانت توجد الأعناب وكذلك التفاح . وبلاد الجريد كانت  
دائما مزدهرة رغم ما كانت تعانيه من غارات البدو . وفى الماضى كانت  
المنطقة الممتدة حول قفصة مغطاة بالقوى التى بلغ تعدادها ٢٠٠  
(مائتين) وكانت تعرف باسم "قصور قفصة" . فعندما كانت القوافل تعبرها  
الجمال تُخطم خشية ان تاكل أوراق الشجر . ولكن الاقليم أصابه الخراب بعد  
وصول البدو (٤) . وعلى العكس من ذلك كانت قفصة تزهر بغناها الزراعى  
.. وكان أهل البلدة يستخدمون فى رى حدائقهم أساليب جد فنية ، فيها  
كثير من العبقرية والدقة الرقيقة . فالسقى تكون فى ساعات معينة ، وعن هذا  
الطريق كان أولئك الذين يزرعون الحدائق والرياض أكثر الناس مهارة فى معرفة  
ساعات النهار (٥) . والى جانب أشجار النخيل والزيتون كانت "غابة" قفصة  
تحوى الكثير من أشجار الفواكه . فكان فيها التفاح والرمان ، والبرتقال والموز  
.. وتميزت قفصة بانتاج كميات هائلة من الفستق ، حتى كان يظن أنه لا  
يوجد فستق إلا هناك (٦) . وهناك كانت الحدائق تزهر بأنواع الأزهار  
والنباتات العطرية ، من : الياسمين ، والفاردين ، والترجس ، والLys  
وغيرها (٧) .

(١) الاستبصار ، البكرى ، ص ٣٢ .

(٢) الادريسي ، ص ١٣٨ .

(٣) الاستبصار ، الادريسي ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) الاستبصار .

(٥) الاستبصار .

(٦) البكرى ، ص ٤٧ ، الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٤ .

(٧) الاستبصار ، ابو الفدا ، الجغرافيه ، ص ١٤٣ .

أما الكرمة التى يؤكل عنبها طازجا إذ لم يجفف زبيبا فى الشمس لعمل  
النبيذ ، فكانت تزرع فى هذا الاقليم كما فى واحات الجريد . وكانت الحامة  
أكثر بلاد الجريد فى الكرمة . وكان يصنع فيها من العنب شراب حسن جداً  
؛ وكان ذلك الشراب كحوليا الى حدّ انه كان يمكن شحن السراج به بدلا من  
الزيت (١) ، كانت بلاد الزاب تزهر أيضا بفواكهها وخاصة الجوز ، وكانت كل  
من المسيلة وتقاس من مراكز الانتاج الكبيرة (٢) . والى جانب انتاج قابس  
للتوت ودودة الحرير كانت قابس مركز انتاج الموز الوحيد فى افريقية . وكان  
قصب السكر يوجد فى القيروان (٣) . وقابس وفى واحات الجريد (٤) ،  
والقطن فى المسيلة وطبه (٥) . وفى مستغانم (٦) . أما عن سهول الرعى  
فكانت متوفرة فى كل البلاد . وكانت القطعان عديدة وخاصة بعد استقرار  
البدو من العرب بقطعانهم فى السهوب والصحراء .

وفيما يتعلق بالانتاج البحرى ، كان أهل الساحل المغربى يمكنهم الاعتماد  
على صيد السمك كمورد غنى يميز الاسواق بمحصول جيد التغذية وعادة ما  
يكون رخيصا . والامر يتعلق بصفة خاصة بطرفى الساحل : الغربى والشرقى ،  
وذلك ان منطقة الوسط كانت خالية من مراكز الصيد الهامة ففى سلا كانت  
الاسماك من الكثرة بحيث كانت من الرخص وكأنها بلا ثمن (٧) . وفى سبتة ،  
مركز صيد السمك المشهور ، كان سمك التونة يصاد بالحرايب ، كما كان

---

(١) الاستبصار .

(٢) الاستبصار ، وقارن الادريسي ، ص ٩٤ .

(٣) البكرى ، ص ٣٢ .

(٤) البكرى ، ص ٦٩ .

(٥) البكرى ، ص ٥٩ ، أبو الفدا ، الجغرافيا ، ص ١٣٩ ، ابن حوقل ، ص ٦٠ .

(٦) البكرى ، ص ٣٢ .

(٧) الادريسي ، ص ٧٣ ، قارن الاستبصار ، ص ٢٧ .

يستخرج المرجان الممتاز . وكان للمرجان سوق خاص في المدينة حيث يقطع ، وينظف ، ويشق من أجل عمل العقود المخصصة للتصدير ، وخاصة الى غانة وبلاد السودان (١) . في بليونش القريبة من سبتة ، كان صيد المرجان (٢) . ولم تكن مدن الساحل فقط غنية بالأسماك ، بل ومدن الداخل أيضا . ففي وادي فاس كانت تصاد في المدينة كميات كبيرة من الأسماك المتنوعة ، مثل : الشابل ( alose ) والشولي ( esturgeon ) والبوري ( mullet ) والقرب ( thon ) . وكان سمك التوبة يباع الرطل منه وافي الميزان بالثمن الرخيص ، الذي يقدر بدرهم ونصف الدرهم (٣) . وفي مكناسة كان يوجد سمك الشولي أيضا ، وهو الألد طعما ، والذي يجهز بمختلف أنواع الخضر منه أطباق لا تظهر فيها رائحة السمك أبداً (٤) . وفي افريقية كانت مدينة قابس تفخر بكونها مدينة بحرية وصحراوية في نفس الوقت فساكن قابس وحده يمكن ان ياكل كلا من السمك ولحم الغزال أو التمر الطازج (٥) . وفي صفاقس (٦) . وتونس كان الصيد البحري كثيرا (٧) . وتظهر بنزرت كمركز ممتاز لصيد السمك حيث كان يعد فيها حوالي اثني عشر نوعا من الاسماك (٨) . وكانت كميات السمك الكبيرة تؤكل إما طازجة أو محفوظة ففي طبرقة ومرسى الخزر ، كما هو الحال في بليونش ، كان المرجان هو المصدر الأساسي لرزق السكان (٩) . وفي النهاية لم تكن بونة ( عناية حاليا ) محرومة من الأنواع الممتازة من الاسماك .

(١) الادريسي ، ص ٦٨ .

(٢) الادريسي ، ص ١٦٧ .

(٣) الاستبصار ، الترجمة ص ١٣٠ وقارن البكري ، ص ١١٧ ، والقرطاس ، ص ١٨ .

(٤) الاستبصار ، ص ٧٣ والترجمة ص ١٣١ .

(٥) الاستبصار .

(٦) الادريسي ، ص ١٠٧ .

(٧) الاستبصار .

(٨) الاستبصار ، ١٥ ، الادريسي ، ص ١١٤ .

(٩) الاستبصار ، ص ١٦ ، الادريسي ، ص ١١٦ ، البكري في ص ٥٥ ، ابن حوقل ، ص ٥٠ .



## الصناعة

ان الثروة الزراعية بشمال افريقية كانت تمثل رأس المال الأساسي للبلاد .. هذا ، وان كان من المعلوم ان المغرب وافريقيا فى القرن الثانى عشر ( ٦هـ ) كما هو الحال بالنسبة لكل العصور الوسطى لم تكن محرومة من الثروات المعدنية ولكن نظرا لغلبة الطبيعة الإقتصادية الزراعية ، كان للصناعات الزراعية الغلبة على الصناعات المعدنية. ومن ناحية أخرى كانت المدن أوفى كثيرا من الأرياف بالنسبة للنشاط الصناعى ، بمعنى انه إذا كان الريفى مزارعاً يكون المدنى صانعاً .

فكل إقليم زراعى كان يعمل على قيام صناعة تتفق مع الثروات المحلية . فزراعة الزيتون ، والكرمة ، وقصب السكر ، وكذلك ، جود مراعى واسعة ، كل ذلك كان يعمل على قيام سلسلة من الصناعات الزراعية .

كان للزيتونه دور أساسى فى الاقتصاد المغربى . فمنها يستخلص الزيت ، وخاصة فى بلاد مكناسة - حيث أعطت البلاد اسمها ، فهى " مكناسة الزيتون " - وفى منطقة وادى سبو . وبفضل أمراء الموحدين الثلاثة الأول ، افتخرت مراكش والمنطقة المحيطة بها بزيتونها وبانتاجها من الزيت ، بعد ان كانت المنطقة لا تعرف إلا زيت الهرجان (١) ، الذى كانت حبوبه الشبيهة بالكُمثرى ، توضع على النار فى أوانى بالفخار ليستخلص منها ريت تستخدم فى الرواء كما يستخدم فى الطعام ، له طعم القمح المقلو (٢). وفى عصرنا ، عصر المنصور كانت مراكش تمتلك من الزيتون أكثر من مما لدى مكناسة : مدينة الزيتون أصلا (٣). أما ايجلى عاصمة السوس ، فاشتهرت كمركز

(١) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٢ .

(٢) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٧ .

(٣) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٢ .

لانتاج زيت الهرجان (١) . أما عصير الخمر فكان معروفا في كل بلاد درن (٢) . وان مجهودات يعقوب من أجل منع شرب الخمر في بلاده ، والعقوبات الصعبة التي كانت تنزل بالمخالفين (٣) ، والتي بلغت أحيانا حدّ العقوبة العظمى ، كل ذلك يظهر الى أى حدّ كانت تلك الصناعة مزدهرة . وفي بلاد وادي سوس كان هناك عدد من المعاصر التي تسمح باستخلاص السكر من القصب ، وكان الانتاج يكفى الاستهلاك المحلي ، بل وتصدير ما زاد على ذلك الى الخارج . وفي السوس كان العسل كثيرا ، وكان يمكن باعداد خاص استخلاص نوع من المشروبات الروحية ، له جمال لون الزمرد الأخضر (٤) .

وكان النسيج معروفا في مكناسة ، حيث كانت نسبة حسنة من الناس تعمل في منازلها (٥) . وكانت سجلماسة من البلاد المنتجة للقطنيات بالامتياز في كل نواحي المغرب الأقصى (٦) . كما كانت الضأن في ذلك الاقليم تقدم نوعا من أفضل الأصواف (٧) . التي كانت النساء تحسّن غزله بامتياز . أما النيل ذات اللون الأزرق كانت تزرع في بلاد درعه غير بعيد من سجلماسة (٨) . وهكذا كان يصنع هناك الملابس المشهورة ، التي كانت مفضلة على تلك التي كانت تصنع في درجين في طرف بلاد الجريد (٩) .

---

(١) نفس المصدر ، والفرجه ، ص ١٨٧ .

(٢) نفس مصدر .

(٣) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٨٠ ، رسائل رسمية موحدة ، ص ١٦٥ .

(٤) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٧ - حيث كان صاع المشروبات الروحية من ماء العسل يضيفون

الى مكيال العسل ١٥ ( خمسة عشر ) مكیالا من الماء ، لكي يصنعوا منه الشراب الروحي المسكر .

(٥) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٣٨ .

(٦) الادريسي ، ص ٧٥ .

(٧) البكري ، ص ١٤٦ .

(٨) الادريسي ، ص ٦١ ، ابن خلدون ، المعبر ج ٦ ص ١٠٢ .

(٩) انظر فيما سبق .

وكانت تنسج هناك أيضا سراويل من الصوف تزيد حسنا على تلك التي كانت تسمى "القصب" والتي كانت تأتي من مصر (١) . لقد كان الثوب من صناعة سجلماسة يساوي من ٢٠ (عشرين) الى ٣٥ (خمسة وثلاثين) مثقالاً (٢) ، الأمر الذي لا بأس به بالنسبة لهذا اقليم ، وان لم يعادل انتاج افريقية الذي كان يتفوق عليه من حيث الصناعة ، التي لا ترقى إليها أقمشة صفاقس وقابس وسوسة . وفي درعة كان يوجد خشب الشاكوت ، الذي كان يستخدم في الدباغة ، ولما كان وعمل "اللمط" كثيرا في الصحراء عرفت صناعة دباغة الجلود ، وخاصة في عمل الثروس المعروفة باسم "الدرق" اللمطية ، والتي كانت كل من نول - لمطة وأودغست من أشهر مراكز صناعتها (٣) .

وفي افريقية كانت هناك عدة عوامل ساعدت على ازدهار صناعة الغزل والنسيج ، هي : القطن في قرطاجنة ، وفي حوض الهدنة ، والمسيلة ، والتوت ودودة الحرير في قابس ، والصوف قليلا في كل سهول المراعي ، والكتان في بونة (٤) . وسببية (٥) . حيث كان حصاد الزعفران ، والنيلة في سباب بيرقة (٦) . وكان نسيج القنبه الرقيق وكذلك الصوف معروف في سوسة (٧) . ولقد تخصصت قابس في نسيج الحرير والصوف ، وتميزت صفاقس في انتاج الجوخ . وفي قفصة كانت تصنع أردية وعمائم من الصوف الرقيق جدا ، من

(١) ياقوت ، معجم ، ج٣ ص ٤٦ .

(٢) البكري ، ص ١٤٦ ؛ ياقوت ، معجم ، ج٣ ص ٤٦ .

(٣) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٩ ، ١٩٣ .

(٤) الادريسي ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٥) ابن حوقل ، ص ٥٨ .

(٦) ابن حوقل ، ص ٥٨ ؛ البكري ، ص ١٠ ، ١٤٦ ؛ ياقوت ، معجم ، ج٤ ص ٤١٧ ؛

وقارن Mas-Latrie عنه ، ص ١٢ .

(٧) الاستبصار ، الادريسي ، ص ١٢٥ ؛ البكري ، ص ٣٦ .

نوع الثياب التي يلبسها الأشراف (١) . وفي درجين في طرف بلاد الجريد تنسج الأردنية ذات النسيج والالوان التي تشبه أردية سجلماسة وان كانت أقل رتبة (٢) . وفي طرة في نفس الاقليم ، كان يصنع رداء كان يوجد في اسواق الاسكندرية (٣) . وفي توزر كانت صناعة الصباغة معروفة بازدهارها اللامع (٤) . وفي سوسة لم تكن المصانع تكتفى باستخدام المواد الأولية التي تدخل في تصنيع الأقمشة ، والتي كانت عادة من خيوط الصوف أو الحرير ذات الالوان المختلفة ، ففي الأقمشة الراقية كان يخلط بلحمة النسيج خيوطا من المعدن ، من الذهب أو الفضة التي تعطى الكثير من البريق في ضوء الشمس أو لمعان المشاعل (٥) . ولكي يصبغ الصوف كانت الأصباغ الطبيعية هي المستعملة وليست الاصطناعية ، فالأزرق والأصفر كانا يأتیان بصفة خاصة من النيلة والصفوان .

وكانت معاصر الزيتون توجد في كل مكان حيث تنبت شجرة الزيتون وأكبر مراكز انتاج الزيت كانت صفاقس ، وكل مدن الساحل ، وواحات الجريد .

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ .

(٢) الاستبصار .

(٣) أبو القدا . جغرافية ، النص ، ص ١٤٧ .

(٤) العجاني ، الرحلة ، النص ، الترجمة ص ١٤٤ . وكانت كلها مركزة تقريبا في موضع باب المنشور حيث كان الصباغون يأتون لنشر الملابس ذات الالوان المختلفة ، والأقمشة المطرزة . فكان الناظر اليها يظن نفسه في روضة غنية بالازدهار ذات الالف لون ، المتفتحة على الجداول الطرية الهواء ، الرائقة الماء . وقارن ، اليعقوبي ، ص ٣٥٠ .

(٥) قارن ، ج. مارسيه ، العرب في بلاد البربر ، ص ٢٧ - حيث كان يباع نوع من الخبط بسعر ١٠ مناقيل للمثقال الواحد (البكري ، ص ٣٦ ، الاستبصار ، ياقوت ، معجم ، ج ٢ ص ١٩١-١٩٢ - حيث تنسج عمامت تسمى المعمور ، تساوي الواحدة منها ١٠٠ (مائة) دينار (الاستبصار ، قارن الادريسي ، ص ١٢٥ .

وفن تجفيف الفواكة كان معروفا أيضا في الأقاليم الغنية بأشجار الفاكهة .  
ففيها كان يجفف العنب من أجل عمل الزبيب ، أو من أجل صناعة النبيذ .  
وكانت كثرة النباتات العطرية تسمح بتقديم صناعة العطور . فمن الورد  
الأبيض كان يستخرج بقفصة ماء رائحته نفاذة تذكر بعطر "الحورى" الذى  
كان يصدر من مصر (١) .

أما غدامس ، وهى المدينة الصحراوية على الحدود ما بين ولاية طرابلس  
وتونس ، كانت تحتفظ دائما بسمعتها كمركز كبير للدباغة (٢) .

أما عن الصناعات المعدنية ، فكان تقدمها يلاحظ فى بعض الأقاليم .  
ففى بلاد سجلماسة كان تبادل الذهب أكثر منه فى أى بلاد أخرى بالمغرب  
، فالمدينة كانت بوابة لبلاد غانة (٣) . وكان النحاس يستخرج من السوس ،  
وهى نفس البلد الذى يوجد فيه الكحل المستخدم فى صناعة النحاس  
الأصفر (٤) . وكانت إيجلى ، عاصمة السوس ، هى مركز تلك الصناعة (٥)  
ولكن فاس كانت تظهر كأكبر مركز لصناعة النحاس الأصفر ، وهو المعدن  
المعد للتصدير الى كل البلاد ، وخاصة السودان (٦) .

وكانت الصحراء تنتج الملح قرب ولىلى (٧) ، كما كان عنبرها الأشهب ذا  
شهرة عظيمة .

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ .

(٢) الاستبصار ، البكرى ، ص ١٨٢ ، ياقوت ، معجم ، ح ٣ ص ٧٧٦ ، أبو الفدا ، الجغرافية ، النص ،  
ص ١٤٧ .

(٣) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٦٥ ، العمري ، مسالك ، الترجمة ، ص ٢٠٠ .

(٤) عبد الواحد ، الترجمة ، ص ١٨٦ ، البكرى ، ص ١٦٢ .

(٥) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٦٤ .

(٦) الاستبصار ، الترجمة ص ١٢٤ .

(٧) الاستبصار ، الترجمة ، ١٩٠ ، والادريسي ، ص ٢ ، ٣٢ ، البكرى ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

وفي المغرب الأوسط ، قرب الساحل (١) ، كان يوجد الحديد ، فيما بين  
وهران وتلمسان .

وفي منطقة مجّانه ، وهي المنطقة الجبلية ذات الأودية والأخوار ، على  
الحدود الجزائرية - التونسية ، شمال شرق تبسّا ، كانت مدينة مجّانة التي  
أخذت اسمها "مجّانة المعدن" من موقعها كمركز لاستخراج المعادن المختلفة ،  
من : الفضة ، والأثمد (الكحل) والحديد والمرتك (أكسيد الرصاص)  
والرصاص (٢) . وكان الحديد موجوداً في جبل قرب بونة (عناية) (٣) . وفي  
منطقة بجاية (٤) . وفي المراكز الكبيرة ، مثل : تونس ، قفصة ، وبجاية  
وغيرها من المدن الأخرى كان التميز في صناعة وعمل النحاس ، والزجاج  
والخزف وأواني الفخار . ففي قفصة مثلاً كانت تصنع أواني فخارية تسمى  
"الريحية" مخصصة لماء الشرب . كانت ناصعة البياض رقيقة بدرجة لا مثيل  
لها في أي مكان آخر (٥) . وإلى جانب ذلك كان يصنع هناك الزجاج ،  
وأواني أخرى مذهبة ، عجيبة الصنع (٦) . وكانت صناعة الزجاج مزدهرة  
أيضاً في طرّة في بلاد الجريد (٧) .

### ج - إسبانيا الموحدة :

نحن لا نعالج هنا الأندلس . ولما كانت هذه معتبرة كثفر شمالي للدولة  
فإن الصراع ضد المسيحيين هو الذي اجتذب انتباه الكتاب . والظاهر يدعوان

---

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٦٤ .

(٢) البكري ، ص ١٤٥ ؛ ياقوت ، معجم ج ٤ ص ٤١٧ ؛ قارن ج . مارسيه ، بلاد البربر الإسلامية  
والمشرق .. ، ص ٧٨ .

(٣) الإدريسي ، ص ١١٧ .

(٤) الإدريسي ، ص ٩١ .

(٥) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ ؛ البكري (ص ٤٠ ، والترجمة ص ٩٩) يرجع صناعة هذه الأنية  
إلى مدينة تونس .

(٦) الاستبصار .

(٧) أبو الفدا ، الجغرافية ، النص ، ص ١٤٧ .

الظن انها عرفت حتى اضمحلال الدولة الموحدية اردهارا زراعيًا وانها استمرت  
تقوم بدور مهم في هذا المجال . ومن المحتمل ان احوالها الجغرافية وبنيتها  
الاقتصادية لم تختلف أبدا عما كانت عليه في العصر الوسيط (١) .

## التجارة

مع التجارة نحن نعرض لأهم تلك الفصول المخصصة للاقتصاد . فهي من  
لتعقيد بحيث تتعدى إطار السياسة الداخلية لكي تعتمد الى حد كبير على  
السياسة الخارجية . وبناء على ذلك فيمكن اعتبار ما تقدم - من الزراعة  
والصناعة - وكأنها مقدمة للفصول التي تأتي عن التجارة ، فهذه الأخيرة تبدأ  
نموها عادة في النشاطات الزراعية والصناعية . فمع البحث عن منافذ للانتاج  
الزراعي الصناعي وغيره يبدأ نقل المنتج من مركز الانتاج نحو مركز الاستهلاك  
القريب أو البعيد . وان كثافة التبادل التجاري هي التي تسمح بتقدير قيمة  
الازدهار الإقتصادي .

ومن المناسب تقسيم النشاط التجاري لدولة الموحدين الى صنفين : من  
ناحية التجارة الداخلية التي تتكون بدورها من تجاره محلية وغير محلية ، ومن  
الناحية الأخرى التجارة الخارجية التي يمكن ان نلاحظ من خلالها تيارين :  
العلاقات التجارية مع البلاد الاسلامية ، والأخرى مع الأجنبي المسيحي .

## التجارة الداخلية:

ان انشاء الاسواق السنوية والاسبوعية والدائمة كان أمراً عادياً في كل  
مكان . فالفلاحون والرعاة والتجار يفدون على السوق من أجل تبادل الأطعمة

---

(١) أ. لبقى - بروفنسال، اسباب الاسلام في القرن العاشر (٥٤١ هـ) ، ص ١٥٩ . وقارن الحميري ،  
الروض المعطار . ومؤلف هذا الكتاب التاريخي - الجغرافي « المدون في القرن الرابع عشر (٥٨٠ هـ) ،  
الذي يقتبس من البكري صفحات عن اسبانيا الاسلامية ، كما فعل قبله صاحب كتاب الاستبصار  
عن المغرب في القرن الثاني عشر (٥٦٠ هـ) ، لم يفعل أكثر من نقل الشكل التقليدي للاندلس .  
عن هذا الموضوع المؤلف الهام جداً للأستاذ أ. لبقى - بروفنسال .



، من : المواد الغذائية والماشية والطيور ، والبصائع ، من الأقمشة والسجاد ،  
والثياب الحريرية أو الصوفية ، والمنتجات الغريبة ، من : البهار ، والعاج والعنبر  
والبخور والعطور ، وتجارة الخشب للدفئة ( الخطب ) ، وهي حرفة بسيطة ،  
كانت من حيث الكم مهمة في كل الأسواق وان منع الموحدين جباية  
المكوس في الأسواق (١) ، وجب ان يكون له تأثير في كثافة التبادل التجاري .

والظاهر ان قلة النقود بشكل عام والذهب بصفة خاصة ، وكذلك عدم  
الثقة في سلامة أصنافها (٢) . كان يشجع اقامة الاسواق غير الدائمة ، وخاصة  
في الريف حيث كانت قلة النقود سببا في اللجوء الى أسلوب المقايضة .  
ونتيجة لذلك كانت مكافآت العمل والخدمات ، وكذلك جميع المبادلات  
الأخرى ، كانت تتم في معظمها عن طريق التبادل العيني (٣) .

والى جانب هذه الأسواق البدائية كانت المدن الكبيرة تمثل مراكز تجارية

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٥٦ و ٢٠٠ .

(٢) ان النقود الرائفة لم تكن مادرة على عهد الموحدين . بل ان أمراء بني عبد المؤمن لم يترددوا أحيانا  
في ضرب النقود الزائفة . فعبدالواحد المراكشي يروي ان أبا يعقوب يوسف ضرب دنائير ذهبية  
رائفة من النحاس لكي يدفع لعرب افريقية فدية قدر أنها مبالغ فيها . المعجب ، ص ١٩٦ ،  
والترجمة ، ص ٢٣٤ : وقارن ا. بل ، إضافة الى دراسة الدراهم الموحدية ، هسبيريس ، باريس ،  
١٩٣٣ ص ٧ .

(٣) وعندنا دليلان على ذلك هما فقرتان تتعلقان بحدثين أحدهما سابق على العصر الموحدي والآخر  
نال له ، والحدث الأول تم في سجلماسة "باب بلاد الذهب" ، والآخر حدث في افريقيا ، بلاد البدو  
فإن بناء سور سجلماسة (نهاية القرن الثاني هـ / مطلع الـ٩م) تكلف ألف مدّ من القمح (الطعام)  
(البكري ، ص ١٤٨ ، الاستبصار ، الترجمة ص ١٦٢) . وحسب مقال البدرى (حوالي ٦٨٨ هـ  
/ ١٢٨٩ م) فإن البدو في طرابلس وبرقة لا يعرفون إلا المقايضة ، وإن النقود غير معمول بها .  
فعندما أراد أحد الحجاج ان يشتري شيئا من البدوى عرض عليه ثمننا له جملاً وديارين ، رفض  
البدوى الديارين قائلا كيف ادخل في خيمتي ذلك الذي لم يدخل أبدا خيمة ولدى ولا خيمة  
جدي (العبدري ، الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٤٧ وجه) . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان القبائل العربية  
كانت تدفع الضريبة الخراجية إما نقداً وإما عينا (ما سبق ، ص ١٥٤ - ١٥٥) يمكن لنا ان نجس  
تقدير تطور هذا الاسلوب في ذلك العصر

دائمة . ففي افريقية ، ظلت : تونس والمهدية وصفاقس وباجة وقفصة وبجاية من أكبر أسواق الدولة الامبراطورية . وفي المغرب كانت فاس ومكناسة وقصر دهاجة (١) ، ومراكش ، العاصمة ، حيث شيد يعقوب الاسواق ، والقنادق ، وقبسارية كبيرة (سوق مركزي ) أكبر من كل ما عرف في سائر انحاء العالم ، اذا صدقنا صاحب الاستبصار (٢) ، وايجلى ، عاصمة منطقة السوس ، وسجلماسة ، ودرعة (٣) .

وكذلك كان الأمر بالنسبة لمدن الأندلس الكبرى ، من : اشبيلية وقرطبة ومرسية فكل واحدة من تلك العواصم كانت متخصصة في نوع من التجارة الذي يتفق مع ثروات إقليمها .

### العلاقات التجارية مع الخارج :

رغم القطيعة السياسية بين المشرق والمغرب الاسلامي ، باستثناء محاولات صلاح الدين لدى يعقوب من أجل تحقيق وحدة العمل ضد الخطر المسيحي (٤) . كانت العلاقات التجارية دائما مستمرة وخاصة مع مصر ، بلد المرور الى مكة . فالصدامات المتكررة مع بلاد الخارج غير الاسلامية لم تمنع أبداً العلاقات السلمية في المجال الاقتصادي . وفيما وراء الصحراء لم تنقطع التجارة أبداً مع الممالك السودانية هناك . وكذلك الأمر بالنسبة للمتوسط

---

(١) الاستبصار ، لترجمه ، ص ١٤٠ - حيث أقام يعقوب فندقين عظيمين . مثل هذا المكان مركزا تجاريا معروفا للتجار الذين كانوا يعرّدون عليه ويقيسون فيه . وكانت فاس "محجة" المغرب وربما المشرق والأندلس ، وخاصة علي عهد يعقوب . فمن هناك كانت تقوم الحملات الى بلاد السودان والمشرق ، وكذلك قوافل التجارة في جميع الاتجاهات . نفس المصدر ، والترجمة ، ص ١٢٤ .

(٢) نفسه ، والترجمة ، ص ١٨٢ - حيث يحدد لنا التاريخ الدقيق للانشاء (أول سنة ٥٨٥هـ / فبراير ١١٨٩م) .

(٣) كانت التجارة مزدهرة في درعه حتى انه كان يقام فيها سوق في بيوم الواحد (الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٨ ) وغيرها .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٥ .

الذى كان مركز النشاط التجارى ، كما كان الرابطة المعتادة بين أوروبا والغرب الموحدى .

### مصر: عميلاً للدولة الموحدة:

رغم عدم وجود وثائق ، وقلة المعلومات التى يقدمها المؤرخون والجغرافيون المعاصرون ، يجب ان نقبل وجود علاقات تجارية بين الدولة الموحدية - وخاصة على عهد يعقوب - ومصر . ان موقع مصر الجغرافى على طريق الحج الى مكة . وكنقطة وصل بين المشرق والمغرب فى العصر الوسيط ، ومحطة راحة بين آسيا وافريقية ، كل ذلك يؤكد استمرار تلك العلاقات (١) . ان منتجات الهند العجيبة ، من : العود الثمين ، والبحور ، والعطور (٢) ، والبهار والعاج التى كان يحتاجها الغرب - مثل بقية البلاد الأخرى - كان يجب مرورها بمصر قبل الوصول الى مقصدها (٣) . ومثل ذلك كان على السفن المغربية والمسيحية المحملة سنوياً بالحجاج ان ترسو فى مصر (٤) . وفوق ذلك فإن التبادل المستمر للعلماء والأطباء ، والأدباء كان يمثل دليلاً على تلك الفرضية .

ان المعلومات الدقيقة والمحدودة العدد التى يقدمها صاحب كتاب الاستبصار تلقى بالضوء على طبيعة تلك العلاقات التجارية بين البلدين . فقد كانت المراكب تخرج محملة بفستق قفصة الذى يعلو على فستق الشام ، (١) قارن . هايد ، تاريخ تجار شرق المتوسط فى العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص ٣٧٨ . "أنا نعرف دور مصر الهام فى القديم : وهى مدينة بذلك الى موقعها المركزى ، والى حركة تجارة المرور الكثيفة . وفى العصور الوسطى لم يتغير الموقف . إننا يمكن ان نسد الى مصر كلها ما قلّه ولهم الصورى عن الاسكندرية خاصة : لقد كانت "سوق العالمين" .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٦٢ .

(٣) كانت بجاية مياء ترسو فيه سفن الصليبيين فى الشام ، وسفن المسلمين الآتية من الاسكندرية ، واليمن والهند ، الصين (الاستبصار) .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٤ .

متجهة نحو مصر (١) ، كما كانت افريقية الغنية بزييت الزيتون تبعث أيضا بما يفيض منه عن حاجتها . وإلى جانب برقة من حيث كانت تأتي معظم الماشية المطلوبة في القاهرة . كانت مصر ربما استوردت من افريقيا ، وربما من المغرب الأوسط ، بلاد المراعى ، المواشى والغنم الرخيصة الثمن .

وفى المقابل كان على المغرب ان يسعى الى الحصول على حبوب مصر أثناء سنوات القحط . كما كان عطر "الجورى" الشهير مطلوبا فى المغرب (٢) . وكذلك الأمر بالنسبة لمصنوعات النسيج المصرية ذات السمعة القوية ، فالظاهر انه كان يرسل منها كميات لا بأس بها من النخب الجيدة (٣) .

### التجارة مع الممالك السودانية:

امتدت العلاقات التجارية دائما الى ما وراء الصحراء ، وخاصة بعد انتشار الاسلام فى تلك البلاد ، بفضل الدعاية والقوات المرابطية فى القرن الخامس الهجرى (١١م) (٤) . لقد كان ذهب غانه هو يشد التجار من كل الآفاق . وفى سجل ماسة كات الثبر بمثابة عملة دارجة - ولهذا السبب حسب مقالة صاحب الاستبصار كان اليهود يسكنون تلك المدينة (٥) . وكان الأمر كذلك بالنسبة لمدينة أودغست حيث كان يتم استيراد الذهب الخام فى شكل قضبات مفتولة (٦) .

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر هايد ، تاريخ لتجارة فى حوض المتوسط الشرقى فى العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص ٩٤ .

(٤) إذا أخذنا برواية الكرى يكون الإسلام قد انتشر فى بلاد السودان ابتداء من السنوات ٣٥٠ - ٣٦٠ هـ (٩٦١ - ٩٧١ م) على عهد أحد ملوك الصهاحين فى مدينة أودغست (قارن الاستبصار ،

والترجمة ص ١٩٣) وعلى عهد يوسف بن تاشفين أصبحت العلاقات عادية بين ملوك غانية

ومراكش ، وبدأت مراسلات رسمية بين البلدين (الاستبصار ، الترجمة ص ١٩٩ ، وانظر العمرى ،

المسالك ، الترجمة ، ص ٥٩) .

(٥) الاستبصار ، والترجمة ص ١٦٦ .

(٦) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٩٥ .

وكانت تجارة العبيد تأتي في الدرجة الثانية . فقد كان لدى الخليفة بين حريمه عدد من السودانيات الجميلات . وفوق ذلك كان له فرقة عسكرية مكونة من الحرس الأسود ، الذين يقطنون معه بالقصر ، ويقومون بأعمال الخدمة المنزلية ، والذين كانوا يتبعونه في مواكبه ، ويقومون بحراسته عندما يغشى ميادين القتال . ومثل هذا كان الأمر بالنسبة لكبار رجال الدولة والأعيان الذين كانوا يمتلكون السودان من الجنسين ، وكانت مدينة فاس باب المغرب والمشرق والأندلس ، من حيث كانت تنطلق الحملات العسكرية نحو السودان (١) ، كانت من غير شك واحدة من أعظم الأسواق التي تمون بالعبيد . وكان لا يجلى عاصمة اقليم السوس هي الأخرى مبادلات تجارية مع بلاد السودان . وفي اودغست كان يوحد سودانيات طباحات ماهرات ، تساع الواحدة منهن بما يناهز المائة دينار (٢) . وكذلك كان يأتي منها جاريات بيضاوات جميلات لا يوجد لهن نظير في مكان آخر (٣) . وذلك كان كل ما يستقبله المغرب من بلاد السودان ، الى جانب العنبر .

وفي المقابل كانت بلاد السودان تستورد من المغرب الملح من منطقة سجلماسة (٤) ، والنحاس المجهر والمصنع في ايجى - ومن هنا كان يحمله التجار ويذهبون لبيعه في السودان - والنحاس صفر من فاس ، والنحاس المجهر في السوس ، وكذلك الزجاج من سبتة . وكذلك كان يستورد المغرب من السودان درق اللمط .

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٢٤ .

(٢) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) البكرى ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، الادريسي ، ص ٢ ، ٣٢ ، الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٩٠ .

## العلاقات الاقتصادية مع أوروبا المسيحية؛

إذا كانت العلاقات التجارية مع البلاد الإسلامية وبلاد السودان تسير بشكل طبيعي دون مشاكل صعبة ، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للعلاقات السلمية مع البلاد المسيحية . وكان ذلك نتيجة طبيعية للنظم الإسلامية التي لا تسمح باقامة أية علاقات سلمية مع العدو الكافر إلا بعد اتفاقات مسبقة . وهكذا يحسن القاء الضوء علي الظروف المختلفة في طبيعتها إلى عقد اتفاقات منظمة للعلاقات بين المسيحيين والمسلمين المغاربة . ومنذ البداية يلاحظ ان الأوضاع السياسية في العالم الاسلامي وفي أوروبا المسيحية كانت تساعد على هذا التقارب . وهكذا كان الانقسام بين الدولة العباسية في المشرق والأمويين في الأندلس من ناحية يقابله في الحانب الآخر انشاء الامبراطورية الكارولنجية التي تتنافس مع الامبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى ، كل ذلك عدل التوازن السياسي في حوض المتوسط ، وأدى إلى تحالفات بين المتنافسين رغم اختلافهم على المستوى الديني . فقد قامت من جانب علاقات صداقة مصحوبة بتبادل السفارات المحملة بالرسائل الرسمية والهدايا بين العباسيين والكارولنجيين ، ومن الجانب الآخر كان على الأمويين في الغرب والبيزنطيين في الشرق التفاهم بدورهم فيما بينهم لمواجهة ذلك خطر الذي كان يتهددهم (١) . ومع ذلك فقد ظلت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين دائما حربية . ومع ذلك فلم يكن العنف دائما عقبة من الصعب تجاوزها . فما بين الحين والحين ، وخلال فترات الهدوء ، كان يمكن للمتخاصمين ان يتفاهموا . ففي الأندلس كانت تجارة الرقيق دائما مرهرة ..

---

(١) انظر هابيد ، تاريخ التجارة في شرق المتوسط في العصر الوسيط ، ص ٤٧ - ٤٨ ، ٩٠

والعبيد الذين كانوا يتداولون فى الأسواق لم يكونوا دائما ضحية الغارات الإسلامية فى بلاد الكفار . فالمسيحيون أنفسهم كانوا يمدون الأسواق الإسلامية بهم حتى وقت متأخر .

فبعد الغارات التخريبية التى أنزلها الأغلبة بإيطاليا فى القرن التاسع الميلادى (٣هـ) ، كان للغارات المضادة التى قام بها الايطاليون والنورمانديون المقيمون فى صقلية وفى إيطاليا الجنوبية نتائجها التى انتهت بإقامة عدد من الإمارات الإسلامية التابعة فى افريقية .

وترتب على ذلك ان ظهرت الحاجة الى روابط تجارية بين إيطاليا وجمهورياتها التجارية من جانب والمغرب من جانب آخر ، وذلك بشكل عاجل لم يكن له مثيل من قبل (١) . ولا شك ان تبادل المنتجات عبر البحر كان سيكون له فوائد جمة بالنسبة للطرفين . وهكذا تم على المستوى السياسى والاقتصادى توحيد المغرب تحت رايات الموحدين .

---

(١) وهكذا فإن الامير تميم (١٠٦٢ - ١١٠٧ م / ) الزبرى لم يحصل على انسحاب البيزانين والجنوبيين الذين كانوا قد استولوا على الهدية إلا بعد دفع مبلغ كبير ، وفك أسراهم ، والسماح بدحول متاجرهم دون مكوس فى أراضيها . انظر هايد ، تاريخ التجارة فى شرق المتوسط ، ص



ومن بين أهم زبائن الدولة يحسب قبل كل شيء الجمهوريات التجارية الإيطالية ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى ( ٥٥ هـ ) كانت تلك الجمهوريات قد سادت التجارة فى البحر المتوسط كله ، وكان بها احتكار نقل البضائع بين الشرق والغرب ، بين أوروبا المسيحية وبضمنها بيزنطة والإسلام فى البحر المتوسط . وان الوثائق المحفوظة فى أرشيف هذه المدن التجارية ، والذى نشرها ودرسها كل من أمارى وماس - لاترى ، تظهر لنا بيزا كان أكبر زبون للإمبراطورية الموحدية (١) .

### مراكز التجارة الأجنبية:

هناك ما يدعو الى الظن بأنه على عهد المنصور، لم يكن التبادل التجارى بين المسيحيين والمسلمين مسموحا به فى كل مدن الدولة، بل أنه كان فقط فى تونس وبجاية بافريقية ، فى وهران فى المغرب الأوسط ثم فى سبته فى المغرب الأقصى . أما فى الأندلس فكانت السفن تتمتع فى المربة بحق تلقى المعونة فى حالة الاستغاثة فقط (٢) . فتبعاً للمعاهدات المختلفة ، يظهر بوضوح ان التجار المسيحيين لم يكن لهم الحق فى المغامرة بعيداً فى داخل البلاد من أجل عقد

---

(١) انظر أمارى ، وثائق عربية (Diplomi Arabi) ، ص ١٧ وما بعدها . كان عدد المعاهدات الموقعة مع بيزا أكثر من تلك التى عقدت مع غيرها من المدن التجارية . وكذلك مما يدعو الى الظن ان بيزا كانت الأهم بالنسبة الى مصر . وبالنسبة للفترة الموافقة لعهد صلاح الدين فهى التى نعرف فيها معلومات أفضل عن العلاقات التجارية بين بيزا ومصر . اما عن بقية الشعوب الأخرى فمعلوماتنا عنها أقل . هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق فى العصر الوسيط ، ص ٣٩٧ . ونقد عقد الدوق سبستيانو زيانى سلما قويا مع أمير بابيلون (القاهرة) وأمير مصرودة : صلاح الدين وأبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن (نفسه ، ص ٣٩٨) .

(٢) أمارى ، وثائق عربية (Diplomi Arabi) ، ص ٧ (معاهدة سلام بين المنصور والبيزانين) .

الصفقات (١) . ولكنه لا ينبغي استخلاص انه في المدن حيث كان التبادل مسموحا به كانت الصفقات تعقد في اى مكان كان . إنما كانت توجد أسواق وطنية ، مؤقتة أو دائمة في مواضع مختلفة من المدينة : ان السوق الدائم في المدينة كان يعرف بالقيسارية ( القيصرية ) - وهو نوع من السوق المغطى بسقف خشبي سنامى الشكل ، ويحيط به سور تقسم ساحته الى شوارع ضيقة جداً ، وعليها تفتح الدكاكين الصغيرة - وهو السوق الوطنى الذى كانت تباع فيه البصائع المستوردة من الخارج ، ولكن لا يكون فيه تجار أجانب . فقد كان لجمعة التجار الأجانب سوقهم الخاص بهم أو على الأصح مقر إقامتهم حيث كان لهم الحق فى عقد صفقات تجارية ، وهو الذى يسمى الفندق ، وهو نوع من الوكالة أو الخان الخاص بالتجار الأجانب فى المدينة (٢) . وكان للتجار الوطنيين أيضاً نزلهم الخاص بهم وبالنسبة للأجانب كان الأمر يتعلق بأحياء أوروبية حقيقية فى داخل المدينة . فكل شركة تجارية كان لها فندقها الذى يحوى الدكاكين والمخازن ، وكان بمثابة مقر الجالية الأجنبية . وكان هناك السفراء والقناصل والمبعوثون الخاصون الذين لديهم الكتبة من أبناء جنسهم الذين يعرفون اللغة العربية (٣) .

---

(١) لا تذكر الوثائق أبداً مراكز العاصمة كمركز للتبادل التجارى بين المسيحيين والمسلمين وكان الأمر كذلك بالنسبة للمدن الداخلية فى البلاد . وهما نلاحظ أن الأمر لم يكن كذلك فى مصر . فقد كان التجار أحراراً فى بيع متاجرهم فى كل المراكز فى البلاد المصرية . هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق فى العصر الوسيط ، ص ٣٩٣ .

(٢) والفندق كان بناء مربعاً ، من وسطه صحن مربع كذلك ، يحيط به ٤ ( أربعة ) أروقة . وكان هناك عدد كبير أو قليل من الحجرات المفتوحة على الأروقة . وعادة ما كان الفندق مجهزاً بحمام وبكنيسة صغيرة . وفى حالة إذا لم يكن هناك حمام فإن السلطات المسؤولة تهيب للتجار حاجتهم بأن تخصص لهم يوماً فى الأسبوع فى أحد الحمامات الوطنية . دى ماس - لاترى . معاهدات سلام ( بالفرنسية ) ، ص ٨٣ ، ٨٩ ، ١٠٥ .

(٣) أمارى ، الوثائق ، ص ٢٦ .

ومن جانب الحكومة الموحدية فقد كانت لا تتردد في حالة الضرورة في إرسال مبعوثين رسميين من أجل عقد الاتفاقات التجارية مع الأجانب بالخارج.

مما تقدم هل يجب استخلاص أن الجالية الأجنبية كانت في فندقها تتمتع من وجهة النظر القانونية بموقف خاص ؟ وبأسلوب آخر هل كانت الدولة الموحدية تعترف بالموقف القانوني الشخصي الخاص على أراضيها ، على الأقل فيما يتعلق بالمراكز التجارية الكبرى ؟ ان معاهدات السلام تقدم لذلك إجابة سلبية وذلك أن العقوبات الصارمة التي كان يخضع لها المخالفون على عهد يعقوب المنصور لا تدع مجالاً للشك في هذا الأمر (١).

### المنتجات المتبادلة تجارياً :

ماذا كانت تستقبل الجمهوريات الإيطالية من الدولة الموحدية ؟ لما كانت الجمهوريات التجارية فقيرة في الجلود فإنها كانت تستفيد من غنى المغرب في تلك المادة . الجلود التي كانت تعرف "بالمراكش : Maroquins" كان لها موضع هام بين الأشياء التي يشتريها التجار المسيحيون . وكذلك كانت الأندلس شهيرة بشغل الجلود وهناك كثرة غير معهودة من الوثائق ، من بينها خطابات من عرب مختلفين موجهة إلى البيزانين (٢) ، تعطينا فكرة عن تلك التجارة الواسعة المدى . وإلى جانب طبيعة الأحمال المصدرة إلى إيطاليا ، فإن الرسائل توضح الكميات المشتراة من قبل التجار ، وأساليب إمداد الأسواق بها ، وطريقة دفع الثمن . وكان الصوف الذي يمثل مصدر ثروة موازياً لتجارة الجلود ، كان هو الآخر مادة تصدير كثيف .

(١) أماري ، وثائق عربية ، ص ٢٠ . كان في بنود المعاهدة ان .. إموال وحياة كل مخالف لهذه الشروط ستكون مباحة" بمعنى ان العقوبة المفروضة على المخالف لتلك الشروط ليس أقل من المصادرة أو الحكم بالاعدام .

(٢) أماري ، رسائل عربية ، دي ماس -لاتري ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، المقدم ، ص ٨١ - ٨٢ .

وكان القمح موضوعا للتبادل بين الطرفين ، نبعاً لحالة المحصول فى إيطاليا ، وفى إفريقيا أو فى المغرب . وبناء على رسالة من البيزنطيين الى الأمير يوسف ، سنة ١١٨١ (٥٧٧ هـ) (١) . كانت صقلية تصدر فى تلك السنة الى إفريقيا . وفى سنة ١٢٠٠ (٥٩٦ هـ) كان لدى البيزنطيين واللوكويين مخزوناً من القمح فى تونس ، دون معرفة ما إذا كان ذلك القمح يستهلك محلياً أم يصدر . ولما كانت كل من صقلية وإفريقية منتجة للقمح ، فلم يكن الفصل فى تلك المسألة .

ومن صفاقس كان يصدر زيت إفريقيا الى صقلية وإيطاليا وكذلك فى أوروبا (٢) . ومن جانبهم كان التجار الإيطاليون يستوردون دائماً العود الثمين من الهند وذلك لحساب الموحددين . وكانوا يبيعون مماليك من اللاتين ، واليونان ، والصقلية . وكانت أقمشة نابولى الأكثر رقة من مثيلتها المغربية تباع من غير شك فى بلاد المغرب (٣) .

### طبيعة التبادل التجارى مع أوروبا :

كما هى العادة ، لما كانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمبادئ الشرعية ، فإنها ظلت متعادلة . فرغم معاهدات السلام المعقودة بين الطرفين المتخالفين ، كانت المبادلات الاقتصادية متبادلة مع أعمال النهب ، وكانت العلاقات السلمية والإيجابية تقطعها الغارات التخريبية . وإن الوثائق التى تحت أيدينا عن عصر المنصور توضح استمرار هذا الوضع . وكل ذلك كان يضايق التجارة دون أن يوقفها رغم ذلك ، كما كان يضعف من روح المغاربة والمسيحيين عند تقديرهم لقيمة الاتفاقات الدولية ومآلها من

---

(١) أمارى رسائل عربية ، النص ، ص ٩ .

(٢) البكرى ، ص ٤٦ ، الاستبصار ، ص ٧ .

(٣) دى ماس - لاترى ، معاهدات سلام ، ص ١٢ .

الاحترام . وفي الشهادة التجارية التي أعطاهها يعقوب لجمهورية بيزا ( ١١٨٦م ) ، يصير الأمير الموحدى على معاقبة كل واحد من رعية الجمهورية يرتكب عملاً من أعمال العنف - وخاصة من القرصنة - ضد الرعية الموحدية . ويطلب الأمير أن تكون عقوبة المعتدى مثل التي تنزل به لو كان المعتدى عليه رعية بيزانية (١) . ولكى يمنع مثل هذه الأعمال ، حدد حقوق التجارة بالنسبة للبيزانين فى ٤ ( أربع ) مدن بافريقية والمغرب ، حتى يمكن وضع التجارة تحت إشراف دقيق جداً . ولا شك ان صرامة العقوبات المقدرة لعدم مراعاة شروط الاتفاقات ، والتي تذهب حتى تهديد حياة المذنب ، كانت نتيجة نفسية لعدم الثقة المتبادلة ، السائدة فى العلاقات بين الموحدين والمسيحيين . ويجب بطبيعة الحال أن يضاف الى ذلك الإشراف المالى الدقيق المترتب على الجباية الحازمة للمضرائب الجمركية .

ومع ذلك ، ورغم الخرق المستمر لمعاهدات السلام ، فإن الطرفين كانا يعملان جهدهما لمعالجة هذا الضرر ، وخلق جو مناسب للتجارة ، بتقديم كل طرف للآخر الضمانات الضرورية .

وهذه الوثائق تكشف لنا فى نفس الوقت أن الحكومة الموحدية ، وهى تقرر

---

(١) وقبل ذلك بخمس سنوات أى سنة ١١٨١م ، كان البيزانيون أنفسهم ضحايا أعمال الموحدين ، وكانوا يطلبون من هؤلاء الأخيرين احترام المعاهدات وان تكون عقوبة المخالفين منهم ، كما لو كانوا من الرعية البيزانية . أمارى ، رسائل عربية ، رسالة من الاسقف ومن قناصل بيزه الى أبى يعقوب يوسف ، النص ، ص ٩ . ونحن نمتلك عدداً كبيراً من الرسائل وان كانت تالية لعهد المصور ، حيث كان المغاربة بدورهم يشتكون من أعمال القرصنة البيزانية . وفى رسالة مؤرخة بسنة ١٣٠٠م ، كان من يسمى عبدالرحمن ، وهونظر الديوان ( الجمرك ) بتونس يطلب التعويض عما أصابه من أعمال عدوانية فى ميساء تونس . أمارى ، رسائل عربية ، النص ، ص ٢٣ وما بعدها . ومثل ذلك تلك الرسالة الصادرة باسم السيد عبدالرحمن بن أبى حفص فى تونس ، والتي تذكر البيزانين بأعمال العنف العدائية التي ارتكبت بالمخالفة لمعاهدات السلام السابقة . أمارى ، رسائل عربية ، النص ، ص ٣٣ ، وما بعدها .

حقها فى التعويض لمصلحة رعاياها عندما يكونون ضحية أعمال عنف من جانب النصارى ، كانت تأخذ بمبدأ خطير بالنسبة للحرية الشخصية لكل فرد من أعضاء الجالية التجار فى الأراضى الموحدة . هذا المبدأ يتمثل فى المسؤولية الجماعية بالنسبة لأعضاء الجالية التجارية . وفى حالة دفع تعويض الى المغاربة ، يكون جميع التجار من مواطنى المعتدى مسئولين معه ، ويجب عليهم دفع المبلغ من ممتلكاتهم ذاتها . ويبقى عليهم بعد ذلك مهمة تسوية الحساب مع مواطنهم ، إما على حاسب أمواله ، أو عن طريق مساهمة السلطات المسئولة (فى الجالية) (١) . ومع ذلك فقد كانت المسؤولية الشخصية معترف بها فى الحالات البسيطة مما يختص بعدم التمسك بالاتفاقيات التجارية (٢) .

### أسلوب جباية مكوس الجمارك:

كان بالموانى الموحدة حيث كان للمراكب المسيحية الحق فى الرسو ، إشراف جمركى دقيق التطبيق - فقد كان على المراكب التجارية الوافدة ان تقدم الأوراق الضرورية . وهنا نعرف ان شهادة سنة ١١٨٦م التى أعطيت للبيزانيين كان من ٥ (خمس) نسخ ، أربعة منها صادرة الى الموانى الموحدة الأربعة التى يهملها الأمر ، والخامس كان يحفظ فى ديوان بيزا (٣) .

من كان المسئول عن تقديم النسخ الأربعة الى السلطات الموحدة ؟ التحار أنفسهم وهم ينزلون بضائعهم أو وكلائهم فى تلك الموانى . وربما كان من

---

(١) لتقدير قيمة التعويض عن الخسارة ، كان يعهد بالأمر الى قاضى المدينة ويعاونه جماعة المحكمين من المشايخ . وكان القاضى يدعو من يهمهم الأمر والشهود فى المسجد الجامع ، وكانت الإجراءات تقضى بقسم من يهمهم الأمر عن القيمة الحقيقية للخسارة . وفى النهاية تاتى المصادرة للمبلغ المطلوب بمعرفة الحكومة ، نقداً أو عينا ، للتعويض . أمارى ، رسائل عربية ، رسالة سنة ١٢٠٠ ، النص ، ص ٢٦ .

(٢) أمارى ، رسائل عربية ، رسالة سنة ١١٨٦م ، النص ، ص ١٧ .

(٣) أمارى ، رسائل عربية ، النص ، ص ٢١ .

المحتمل ، بسبب عدد السفن الكبير ، وتضاعف عمليات المبادلة والبيع والشراء ، ان تبقى تلك النسخ بين أيدي الوكلاء الدائمين بالمدينة . وكانت ضريبة الديوان الجمركي المأخوذ عن البضائع المباعة للمغاربة تعادل العشر من ثمن البيع ، كما كان المعتاد في ذلك الوقت (١) . ومع ذلك فقد كانت العمليات التي تتم بين أعضاء الجالية ، وكذلك البضائع الواردة برسم إعادة التصدير ، معفاة تماما من الضرائب (٢) . أما فيما يتعلق بالتصدير بشكل عام ، فقد كانت عملياته خاضعة لضريبة ٥ (خمس) بالمائة . أما الاعفاء التام من الضرائب فكان يطبق على المعادن الثمينة والجواهر (٣) .

### موقف جزر البليار:

رغم الأعمال العدائية الحامية بين بنى غانية ، أمراء ميورقة ومينورقة ، والموحدين على عهد المنصور ، فإن التجار الإيطاليين كانوا يراعون نهج سياسة سلمية مع هذا الطرف أو الآخر . ويفسر ذلك برغبتهم في تشجيع التجارة . ويفضل سياسة الحياد الصارمة هذه - وكان ذلك موقفهم دائما - تمتعوا بامتيازاتهم الاقتصادية في بلاد أولئك وهؤلاء . وان اتفاقية السلام والتجارة المعقودة بين السيد الفقيه : أبي ابراهيم اسحق بن محمد بن علي ، وممثل بيزا ولوكه ( في أول يونيه ) سنة ١١٨٤م تظهر وكأنها اتفاقية سلام بمنتهى البساطة ، من أجل تشجيع المبادلات التجارية بين البلدين . ففي هذه الرسالة لا تذكر إلا الضمانات المتبادلة ذات الطبيعة التي تحقق الأمن للأشخاص والحرية للتعاقدات التجارية . وتنص الاتفاقية فوق ذلك على واجب البيسانيين على

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) دي ماس - لاتري ، معاهدات سلام ، ص ١٠٧ . وكان الأمر كذلك في مصر حيث كانت "الآلىء" ، والأحجار الثمينة ، والفراء الراقية معفاة تماما من الضريبة" . هايد ، تاريخ التجارة في الشرق في العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص ٤١٢ .



الحفاظ على الحياد المطلق بالنسبة للأعداء من بنى غانية (١) . ومن المحتمل ان يكون هذا المصطلح يعنى الموحدين ، أعداء بنى غانية الوحيدين فى ذلك الوقت : والحقيقة ان هؤلاء كانوا مرتبطين بمعاهدات سلام مع الايطاليين الآخرين ، مثل الجنويين (٢) . وان غياب كل إجراء تجارى صرف ، مثل : ضرورة دفع ضريبة الحمارك ، تدل على الاعفاء الجمركى من الضريبة الذى كان يتمتع به البيزانليون . وهذا الإجراء كان يحمل فى ثناياه نتائج سياسية طيبة بالنسبة للميورقيين ، الذى كانوا يستطيعون تحديث علاقات مع الخارج ، وتقوية مركزهم السياسى على المستوى الدولى (٣) .

والخلاصة التى يمكن الخروج بها من هذه الدراسة عن الموقف الاقتصادى للدولة الموحدية ، وعلى وجه الخصوص على عهد المنصور ، تتمثل فى ان الغرب الاسلامى عرف بشكل عام فترة ازدهار لا نظير لها فى السابق .. فافريقية كانت تعبر ، بعد سنوات مضطربة بفضل غزوة البدو ، فترة هدوء نسبية ، وذلك رغم ثورة بنى غانية والامتحانات الصعبة التى عانت منها بعض المدن الكبيرة . وفى فترة الهدوء تلك عرفت حالة الازدهار وقتئذ . وبعد قرن من هذا الوقت يرسم العبدري لوحة لافريقية والمغرب الأوسط فى غاية السوء (٤) ، إذا ما قورنت بفترة الموحدين ، وهكذا يكون العمل البنائى الذى قام به هؤلاء قد سلط عليه الضوء بشكل يبرز مزاياه . أما المغرب ، نواة الدولة

---

(١) أمارى ، رسائل عربية ، النص ، ص ٢٢٣ . والرسالة واضحة جدا بالنسبة لهذه النقطة ، فهى تطلب من الايطاليين التوقف عن كل عمل يمكن ان يفسر كمعونة للأعداء الميورقيين ، مهما كان شأنه ، بالقول او العمل ، بالرجال او المال .

(٢) دى ماس - لا ترى ، معاهدات سلام (بالفرنسية) ، النص اللاتينى ، ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) انظر د. فرانسيسكو كدويرا ، اصمحلال ونهاية المرابطين فى اسبانيا (بالاسبانية) ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) الرحلة .

، فقد عرف هو الآخر على عهد الموحدين الأوائل سلاماً أكثر استقراراً مما كان عليه في افريقية . وهكذا امتدت هيمنته حتى المجالات الاقتصادية . وبذلك تمتع هو أيضاً بازدهار لا نظير له ، في : الأسواق الداخلية العديدة ، والمبادلات بين مختلف الولايات ، وبين هذه والعالم الخارجي ، وكل تلك الأمور كانت نتيجة طبيعية للازدهار الاقتصادي لا فريقيا الشمالية . أما عن الأندلس فالظاهر والمفترض ان يكون لها مكان خاص بها . وهنا تكون الأمور الاقتصادية قد تركت المجال للأمور العسكرية . فقد كانت الأندلس وقتئذ الثغر الشمالي . وحقيقة ان الإيطاليين ، على عهد المنصور ، لم يكونوا يستطيعون القيام بعمليات تجارية هناك ، دليل كاف على ان أسواقها لم تكن ذات بال ، وهذا يوضح ان مقدراتها الاقتصادية كانت ضعيفة الى حد ما ، وانها كانت قد تقلصت عما كانت عليه في الماضي .

## **القسم الرابع**

### **الحياة الدينية والفكرية والحياة الفنية**

## الحياة الدينية والفكرية

إن النهضة السياسية التي عرفها الاسلام فى الغرب على عهد الموحدين الأوائل كان يواكبها تقدم فى المجالات الفكرية . وهكذا لم يكن المشرق وحده صاحب السيادة الفكرية فى عالم الاسلام . ففى الاندلس والمغرب كانت نجوم أخرى قد ارتفعت وهى لا تكتفى بمراكز التواضع ، فكانت أضواؤها تنتشر حتى العالم المسيحى .

وكان التقدم الفكرى فى الغرب الاسلامى يتسم بالصفتين المميزتين للعصر الموحدى ، وهما : هيمنة الروح الدينية وافتقار التخصص . فالفلسفة والأدب والفن ، كل ذلك كان خاضعا لخدمة "العقيدة الحقة" . ويكفى النظر فى أحوال بعض الوجوه الكبيرة فى ذلك الوقت للاقتناع بافتقارهم التخصص ، من حيث كان المفكر الكبير فى نفس الوقت : رجل دين وفيلسوفاً وطبيباً وكذلك أديباً .

## الحياة الدينية:

قبل التعرض للحركة الدينية على عهد يعقوب يحسن ان نقول كلمة عن الحركة الدينية التى قام بها ابن تومرت ، والاصلاح الدينى الذى قام به فى افريقيا الشمالية . والمعروف فى الاسلام انه لا يصح تغيير سياسى بدون أساس دينى ، فالدين يمتزج بالسياسة ومذهب الدين الحق يتداخل مع مبدأ الحكومة المثالية . ولكى يحقق ابن تومرت هدفه كان عليه أن يحقق ٣ ( ثلاثة ) شروط رئيسية ، هى : مهاجمة الأفكار الدينية السائدة وقتئذ بالمغرب ، والانكباب على البحث عن العقيدة الصحيحة ، ثم تعيين إمام أو رئيس للجماعة ، جدير بأن يقوم بأعباء وظيفته . وهنا نشير الى ان الظروف المواتية ساعدت ابن تومرت ، وهو يسعى الى تحقيق هدفه .

فعلى عهد المرابطين كان المذهب المالكي صاحب ، السيادة فى المغرب والأندلس . وفى حرصهم الشديد على الحفاظ على وحدة دولتهم السياسية ، وقفوا ضد الاختلافات الدينية التى يمكن ان تؤدى الى الانقسامات السياسية . وادى الاهتمام بدراسة الفروع فى المذهب المالكي الى الغلبة على دراسة السنة النبوية وحتى على القرآن (١) . وهكذا لم يكن من الغريب ان تلتهم المحرقة أهم أعمال واحد من مفكرى العصر ، وهو الغزالي صاحب كتاب احياء علوم الدين . وكان الخضوع التام للمذهب المالكي يؤدى الى التفسير الحرفي للقرآن ، وبالتالي الى التجسيم . وضد هذا التفسير اتجهت دعوة محمد بن تومرت الدينية . ففي نظره وعلى عكس رأى كل من سبقه فى محاولة التجسيم - اعتبر المجسمة كفاراً لا يختلفون عن غيرهم من الكفار ، الذين هم اليهود والزنادقة ( الهرطقة ) والمسيحيين ، وان واجبه هو ان يعيدهم الى الدين الحق . وفى ذلك رأى ان واجب حرب المجسمة ( المرابطين ) كان ضرورياً مثل جهاد الكفار (٢) . وهكذا كانت البداية للحركة الموحدية .

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٢٣ .

(٢) كتاب ابن تومرت ، النص ، ص ٢٦٤ وما بعدها . وهنا نرى أنه رغم ظهور ابن تومرت عقلانياً فى عدد من النقاط ، فإنه يظهر فى هذا الموضع بمظهر السمطائي . فهو من الفقرات التى يهاجم فيها المرابطين بصفاتهم مجسمة ، ولكي يثبت فساد اعتقاداتهم وكذلك حكوماتهم ، فإنه يستخدم حججاً لا معنى لها . فهو يرى علامات خاصة تبين سمات عصرهم الفاسد ، ومنها : ما عرفوا به من قبل ملكهم فى المغرب ، مثل : العرى أو ما يشبهه ، وأرجلهم الخافية ، معاشهم الفضولى ، حياتهم الرعوية ، وحملهم بأمور دينهم الشرعية ، وعلامات أخرى تظهر فى أمور حكومتهم ، مثل : إقامتهم المباني العالية ، وانجابه من عبيدهم ، وانهم ليسوا أهل ثقة ، لا يعرفون لعدل ، وأخيراً فإن ملكهم محاط بالفخامة والافتخار ، وكل ذلك من علامات يوم القيامة كما يرى ابن تومرت . ثم هناك علامات أخرى تتعلق بتصرفاتهم ، منها : استخدام السوط الذى يشبه ذيل البقرة ، ويعذبون الناس ، ونساؤهم النصف عاريات ، يصفقون شعورهن فوق رؤسهن . ومن أجل تأكيد رأيه استخدم ابن تومرت عدة أحاديث موضوعه . وفي النهاية فهو يهاجم عدة المرابطين فى ارتداء اللثام . ويقول ألم يقل الرسول " لعن الله النساء المتشبهات بالرجال ، والرجال المتشبهين بالنساء " ( كتاب ابن تومرت ، ص ١٥٨ وما بعدها .

ومن أجل البحث عن المذهب الصحيح عرف ابن تومرت كيف يستفيد من رحلته العلمية في المشرق حيث تأثر بالمدارس السائدة هناك والتي كان للمدرسة الأشعرية بينها مكانة عالية (١) . وفي البداية كان كل مذهبه - ببساطة شديدة - هو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (٢) . وسار ابن تومرت على طريق المعتزلة واتخذ من هذا الواجب الديني أساساً لمذهبه (٣) . ومن أجل منع المنكر ، كان يجب العودة بالاسلام الى بقائه الأول ، وذلك بالرجوع الى القرآن وحده ، والأحاديث النبوية حسب مبادئ الظاهرية . وتمسكاً بهذا المنهج ، ومن أجل تفادي التجسيم ربما انتقاد ابن تومرت وراء

---

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٣٤ ، المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٤٣ ، ٣٥٨ ، مكدونالد (د.ب) ، تطور اللاهوت الاسلامي ، ص ٢٤٥ - حيث "فضل الأشعرى أنه يقف في الوسط ، بين سذاجة التقاليد القديمة ( خشونتها ) ، والفلسفة النظرية ، فهو يقول ان الله يمتلك كل صفاته ولكن تلك الصفات أكبر من ان تقارن بالصفات الانسانية ، ابن عساكر Exposé de la reforme de l'islamisme ، النص ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، الترجمة ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) وحسب الغزالي ( المدرسة الأشعرية ) ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتم على أربعة مراحل ، هي : ١ - التعميم ، ٢ - التحذير أو الدعوة ، ٣ - توجيه غليظ الكلام ، ٤ - المنع بالقوة . ولكن رجل الدين الكبير يقدم التحفظات على ذلك ، ف فيما يتعلق بالأمر لا يجب تطبيق المبدأين الأولين . ويجب الحرص أيضاً في تطبيق المسألتين الآخرين ، فإذا رأى ان ذلك يؤدي الى الفتنة التي تصير نتائجها بالآحري ، فهو امر غير مقبول ، أما اذا لم يتعد الضرر شحبه فإنه لا يكون مقبولا فقط بل واجبا أيضا . فقد قال النبي : المرضي عنهما من الشهداء ، هما : حمزة بن عبدالمطلب ، ورجل يواجه يواحه أميراً ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر باسم الله وحده ، والذي يقتله الأمر عندئذ ( الغزالي احياء علوم الدين ، ج ٢ ص ٣٠٠ ) -

(٣) حولدزيهرم ، مقدمة لكتاب ابن تومرت ، ص ٦٢ ، وقارن ، المسعودي ، المروج ، ج ٦ ص ٢٩ ، ٣٠ .

الغزالي الى الأخذ بأسلوب الأشعرية في تأويل النصوص الدينية الاسلامية (١) . وفي النهاية أعلن مذهب التوحيد (أى الوجدانية) ، وهو الاصطلاح الذى استعاره من نظرية المعتزلة (٢) .

والى هنا لم يكن مذهب ابن تومرت يبتعد عن السنة . وذلك أنه فى المرحلة الثالثة من مشروعه ، عند تعيين إمام ، بدأ فى الابتعاد عن السنة . فعندما أراد تحقيق طموحه السياسى - حيث كان يشتهى اللقب لنفسه - اتخذ اللقب السيعى "الإمام المعصوم" (أى الذى لا يخطئ) . وترتب على ذلك أنه كان عليه ان يتخذ أيضا نسبا يربطه بالإمام علي (حتى يصبح من الأشراف : آل البيت) (٣) . وهكذا وجد نفسه فى تضاد ليس فقط مع مذهب معين بل مع كل مذاهب أهل السنة ، من حيث إبطال الاجتهاد (٤) ، الذى لم يعد له لزوم مع وجود إمام معصوم يرجع اليه فى كل الأمور : كبيرة كانت أم صغيرة . ومن بين أسباب هذا الانحراف الدينى يجب ان نذكر فوق ذلك الأحوال الاجتماعية المتدنية التى تنشر الجهالة التى أضفت مع المذهب الجديد

---

(١) جولدزيهر ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، ص ٩ .

(٢) انظر كتاب ابن تومرت ، ص ٢٠٦ ، ٢٤٠ . والحقيقة ان المعتزلة أعطوا هذا الاسم (التوحيد) لتعريفهم لفكرة الله ، وحسب تصورهم للصفات الإلهية . وهم عبروا بذلك عن تقديمهم لفكرة الوحدة الإلهية الأزلية ، فلم يعترفوا أبدا بوجود الصفات الأزلية المرتبطة بالذات الإلهية ، حيث رأوا ان الاعتراف ، بالصفات يعنى الاعتراف بالشرك وتعدد الذات الأزلية . جولدزيهر ، مقدمة لكتاب ابن تومرت ، ص ٥٥ . قارن المسعودى ، المروج ، ج ٦ ص ٢٠ - ٢١ ، المقربرى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ١٢١ و ٢٥٠ . ولكن هنا يحسن الإشارة الى أنه رغم اتخاذ الإمامة الشيعية بالشكل فإنه كان حريصا على عدم الخروج عن السنة وقبل ان يعرف الإمامة بالشكل الذى يعرفه الشيعة ، اعتنى بالتذكير بأن كلا من أبى بكر وعمر كان إماما حقا . وهنا يتضح انه يجتهد فى لتوفيق بين السنة والشيعة - قارن . كتاب ابن تومرت ، ص ٢٤٨ ، والحقيقة ان انكار الاجتهاد كان يعنى نهاية علم كتاب ابن تومرت ص ٤٠ .

(٤) قارن كتاب ابن تومرت ، ص ٢٥٢ : حيث انكار الاجتهاد ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، ص ٤٠ .



سمات من الغيبيات السرية والتنبؤات والكرامات أو المعجزات (١).

ذلك كان عن الحركة الدينية على عهد ابن تومرت ، فالقاعدة مبنية على التوحيد ، المؤلف من تكوين متباين ، تختلف توجهاته ما بين السنية والشيعية ، مقتبساً العناصر من كل المذاهب من : اشعرية وظاهرية ومعتزلية ، الأمر الذى أدى الى تناقضه مع كل تلك المذاهب بالنسبة لكثير من النقاط . ولكن تلك الحركة تحولت على عهد المنصور . فعلى عهده ستظهر بعض التجديدات ، من : جريئة فى بعض الأحيان ، وخحلة مترددة فى أحيان أخرى .

### موقف المنصور من غير الموحدين :

يبدأ التغيير فيما حدث اختلاف بين فى الموقف القانونى الذى ينظم العلاقة بين الموحدين وغيرهم . وبدأت بوادر هذا التغيير منذ وفاة محمد بن تومرت . ففى نظر هذا الأخير ، كان كل من ليس من الموحدين معتبراً من الكفار ويجب إعادته الى الدين الحقيقى أو قتله بالسيف . وعلى عهد يعقوب لم يكن الأمر كذلك ، حيث كان وجود غير الموحدين مسموحاً به بناء على موقف قانونى محدد ، وإن كان حقيقة يشوبه الغموض كما كان عرضة للتغيير . فغير الموحدين كان يمكن ان يكون كافراً بمعنى الكلمة أو مسلماً زنديقاً حسبما تقضى حالة السلم أو الحرب أو درجة الكفر . فالعلاقات مع الكفار كانت مبنية على معاهدات السلام التى عادة ما كانت محددة الشروط والمدة بينما كان الأمر بالنسبة للمسلمين الزنادقة يمكن أن يرتب ذاتياً ( دون تدخلات ) ففى وقت الحرب كان الموقف يصبح أكثر اختلاطاً ، ولكن كان

---

(١) انظر القرطاس ، ص ١١٤ وما بعدها ؛ هذا ، ويقول عبد الواحد المراكشى ان ابن تومرت كان على أيامه لا نظير له فى "ضرب الرمل" ، الى جانب ما كان قد تعلمه فى المشرق من التنبؤ ومعرفة الغيب بالشعون العامة ، بناء على حساب النجوم - المعجب ، ص ١٣٠ ، الترجمة ، ص ١٥٦ . وقارن : أ. دوتيه ، هامش على الاسلام المغربى ، ص ١١ .

على الحرب أن تدفع الى آخر مدى . ودائما ، وبفضل الله ، ما كان العدو يدمّر ، وأمواله تؤخذ غنيمة ، وتسبى نساؤه وأطفاله ؛ ويقتل رجاله بحد السيف . . ولكن هذا الشرط الأخير ، وهو الموحدى بشكل مميز ، عدل بجرأة الى شكل مخفف على عهد يعقوب . فلم يعد الأمر يقضى بعدم أخذ أسارى من المسيحيين ، بل ذهب الى حدّ تحريرهم بعد الأسر . وهنا يصبح الأمر سياسة مملاة تفرضها الظروف على الأمير ، الذى عرف بأنه كان أكثر تعصبا من سابقه . فقد كان يمكنه الاستفادة من القوة العضلية للأسرى فى دفع مشروعات المعمارية الى الأمام ، من بناء المساجد والقصور . والاستحكامات . وهكذا ، ومن أجل تشييد الابنية المعمارية الدينية ، لم يكتف فقط باستخدام الأموال من خمس الغنائم المأخوذة من الكفار (١) ، بل أيضا وسواعد هؤلاء الأسرى (٢) . وهنا يدخل فى الأمر عامل نفسى هام . فمن جهة أخرى ، كان قتل الأسرى المسيحيين يعنى المغامرة بتحمل الثأر لمثل هذا العمل من الجانب المنافس ، بينما كان الحفاظ على أرواح الأسرى الكافرين يعنى عندما يآزف الوقت الحفاظ على أرواح الأسرى المسلمين . وفوق ذلك فإن إعفاء المسيحيين من العبودية - وهو العمل الجرىء الذى كان لا يستسيغه رجال ذلك العصر - كان يعنى استنقاذ الأرواح المؤمنة من عذابات العبودية .

ولقد عرف تصرف المنصور إزاء غير الموحدين هو الآخر نوعا من التذبذب . ان المذهب الذى يفرض على هؤلاء معاملة الكفار كان لا يرال سارى المفعول ولكنه لم يكن مطبقا إلا على المرابطين المتمردين . فكفرهم الذى لا علاج له

(١) القرطاس ، ص ١٥٣ .

(٢) الحميرى ، الروض المعمار ، ص ١٣ والترجمة ص ١٨ ، ١٥٠ - حيث ارسال اعداد من اشراف الكفار للعمل فى بناء جامع سلا الكبير ، الى جانب أسرى الآرك (الاركوس) (السلوى ، الاستقصا ، ص ١٨٠) .

كان يجعلهم مستحقين لعقوبة القتل ( عقوبة العدالة الإلهية ) (١) ، فكانوا فعلا يقتلون بالسيف .

### الإشراف على الأعمال الدينية:

إذا كان الأمير قد ظهر سياسيا محنكا إزاء غير الموحدين ، فإنه ظل حازما عنيدا إزاء الموحدين . فبالنسبة للمنصور ، الورع ، الناسك ، كانت العقيدة الحققة تبرر كل الوسائل . فبصفته رئيسا للدولة كان مسئولاً أمام الله عن الحالة الدينية في النظر والتطبيق ، كما كان مسئولاً أمام الله بصفته راعيا لقطيعه . وهكذا طبق ببساطة مبدأ " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " بدقة لا تعرف الرحمة . ولما كان إماما للصلاة ، فإنه املى على رعيته الصلوات الخمس اليومية ، وتابع غير الممارسين لها (٢) . وهكذا أم بالنداء بالآذان في الأسواق وعاقب دون رحمة ، المقصرين (٣) . وأمر بالبداء بقراءة البسملة قبل قراءة الفاتحة . وأمر بأن ينتشر هذا التقليد في كل الأقاليم الخاضعة لحكمه (٤) . وفيما يتعلق بالجرائم المنصوص عليها في القرآن طبق الحدود كما هي ، حتى على أفراد أسرته (٥) . وبلغ الأمر أنه في حماسه في تطبيق النهي عن المنكر ان تجاوز الحدود المنصوص عليها . فبعد فترة قليلة من ولايته ، منع شرب كل

(١) رسائل رسمية موحدية ، ص ٢٠٧ ، الدراسة ، ص ٦٢ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ الاستقصا ، ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٨٠ ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٨٢ .

(٤) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ . وكان لهذا الرسم أهمية كبيرة في قراءة القرآن ، والبسملة تبدأ بها جميع السور القرآنية ، سوى واحدة فقط وهي سورة Celui de la Conversion . " عندما ارسلت هذه الكلمات من السماء ، هربت الغمامات الى ناحية المشرق ، وهبات الرياح ، وخمد البحر ، ورفعت الحيوانات آذانها ، وانطلقت الشياطين من إفلاكها السماوية .. إلخ " . قارن القرآن ترجمة فرنسية بمعرفة Sarary ، ص ١١٣ وهـ .

(٥) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ ، ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٣٢ .

مشروب روحى حتى الرب (عصير العنب المطبوخ) (١)؛ وفى سبيل احترام هذا المنع اتخذ اجراءات قاسية جدا ، تصل الى حد الحكم بالإعدام (٢) . وفرض مثل هذه العقوبة أيضا حتى على الولاة الذين تشكوههم الرعية (٣) . كل هذا يعبر عن روح حادة وحازمة .

### فكرة الإمام:

فيما يتعلق بعقيدة عصمة الإمام - وهى النقطة الوحيدة التى تبعد ابن تومرت عن السنة - يجب الاشارة بعبدالمؤمن ، الذى امتنع عن حمل هذا اللقب المشتبه من قبل المهدي ، واكتفائه بلقب 'خليفة الإمام' (٤) . وحافظ كل من عبدالمؤمن وابنه يوسف بحرص لابن تومرت بهذه التسمية . ولكنه على عهد المنصور أخذت الأمور مساراً آخر . فعبد الواحد ايراكشى (٥) . يؤكد ان يعقوب المنصور لم يكن يعتقد فى العصمة ، وأنه أنكرها على مؤسس الدولة الموحدية ، وان القيام بالزيارة (الحج) الى تنملى حيث يوجد قبره ، لم يكن الا تدبير يهدف الى إرضاء رغبة دينية عزيزة على جمهور البربر . ومع ذلك فيمكن القول ان الأمر مما لم يكن كذلك : فإذا كان يعقوب ينكر الإمامة على ابن تومرت ، فآلم يأخذها هو لنفسه ؟ وعلى هذا الأساس يمكن تفسير تمسكه بإقامة العدل ، ونشر الخير ، والجهاد ضد الشر ؛ وفى نفس الوقت أيضا ما قام به من تجاوز حقه فى اختراق القوانين الشرعية ، والحكم

(١) خطابات رسمية موحدية ، ص ١٦٢ ، الدراسة ، ص ٥٧ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٨٠ (السلوى، الاستقصا ، ج ١ ص ١٨١ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) وهنا نحسن الاشارة الى ابن عبدالمؤمن تلقى فى سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥١ م ، اثناء حصاره لتلمسان ، رسالة من احمد بن قيسى ، أمير مرتلة بالاندلس ، يصفه فيها المرسل بلقب لمهدي ، غضب عبدالمؤمن غضبا شديداً ، وامتنع عن الرد على الرسالة . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٣٤ ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٨٤ .

(٥) المعجب ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

بالموت على أصحاب بعض الجرائم التي لا تستحق حسب النصوص الدينية إلا عقوبات أقل من ذلك .

### الظاهرية مذهب رسمي :

إن انكار الإمامة على ابن تومرت قد تعنى فى الحقيقة عدم الاعتقاد ببعثته الاصلاحية . وهكذا لا يكون من الغريب ان تشاهد فى تلك الظروف ، على عهد يعقوب ، تغييرات مذهبية هامة جدا .

ورغم ان المذهب ظل كما هو فى خطوطه العريضة ، فإنه تأثر بتعديلات فى المضمون وفى الشكل أيضا . وكان ذلك التطور راجعا الى حد كبير للأمير نفسه . فحسب تعاليم ابن تومرت كان الرجوع الى القرآن وحده والى الحديث ، وليس الى أى نصوص ثانوية أخرى (١) . وهكذا فإن التفسير الحرفى للنصوص أبعدته بالتالى عن تعاليم ابن تومرت ، وعن هذا الطريق انتهى به الأمر الى اتباع مذهب أهل الظاهر (٢) . وهذا المذهب يعلن أنه لا مكانة للعقل تقريبا فى أمور الدين ، وهكذا كان على الرأى أن يخفى ، والإجماع ان يحدد فى صحابة النبى وحدهم ، بمعنى أنه لا يجب اعتبار إلا القرآن والحديث كمصدرين للتشريع ، وعلى شريطة تفسيرهما حرفيا ( أى ظاهريا ) (٣) .

---

(١) امر يعقوب الفقهاء بالحكم حسب نصوص القرآن والحديث ، والا يرجعوا أبدا الى فتاوى المجتهدين ( من أصحاب مذاهب أهل السنة ) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ .

(٢) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٩٥ .

(٣) قارن ابن حزم ، الفصل ، ج ٢ ص ١٢١ : الشهرستاني ، الملل ، على هامش ابن حزم ، ج ٢ ص ٤٥ : ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ٣٧ . وفوق ذلك فإن المنصور كان من المعجبين بالظاهرى الكبير ابن حزم . فهو عندما عبر منطقة شلب ، زار قبره ، وصاح قائلا : من العجيب ان يكون هذا البند مسقط رأس مثل هذا العالم ذات يوم . ثم انه قال ، وهو يحدث ابن مجير ، شاعر البلاط ، كل العلماء يعيشون ( عيال ) على ابن حزم ، كما الشعراء عيال عليك ، يا ابن مجير ( المقري ) ج ٢ ص ٨٠٣ .

وهكذا يفهم كيف ان المذهب المالكي ، لذى كان مزدهرا من قبل ، أصبح مطارداً بدون شفقة . وهكذا انتهى علم الفروع ( التطبيقات الشرعية ) ، وأصبح موضع اشفاق بالنسبة للفقهاء ، كما أمر باحراق كتب المذهب المالكي ، بعد انتزاع صفحات الحديث النبوى ، والآيات القرآنية منها (١) .

ولكنه إذا كان المذهب الظاهرى كان رسميا مذهب الدولة الموحدية على عهد المنصور ، فإنه لم يكن كذلك فى الأمر الواقع . فالمالكية كانت قد ضربت بجذورها عميقا فى أرض افريقية ، كما فى الأندلس . فللتخلص منها ، لم يكن يكفى إزالتها مجرد خط قلم ، أو إملاء مذهب ابن تومرت أو المذهب الظاهرى مع الاستعانة بالترهيب والتخويف . فالمالكية كانت تتحصن خلف ما يقرب من أربعة قرون من الحياة جعلها تلتصق بالأرض بشكل يمنع من إزالتها . وهكذا كان على المذهب الظاهرى ، الذى دخل البلاد قريبا ، أن يتعايش مع الأرض الجديدة ، وهكذا كان الجرمية ، وهم الظاهرية على عهد المنصور ، أتباع أبى محمد بن جرم ، من اتباع المذهب المالكي ، وهو الأمر المستغرب (٢) . ويكفى استعراض سير كبار العلماء فى ذلك العصر ، وبرامج تدريس المدارس الكبيرة ، لكى نأخذ فكرة عن تفوق المالكية الذى لا يمارى . وهنا تقدم لنا فهرسة ابى الحسن علي بن محمد بن علي الرعينى معلومات ثمينة . فبينما تقدم لنا اسمين لعالمين ظاهريين (٣) ، فإنها تقدم من جانب

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠١ ، والترجمة ، ص ٢٤١ ، ابن الأبار ، التكملة ، ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

(٣) ان المحدث الأندلسى أبا على عمر بن أحمد بن عمر بن موسى الأنصارى ، المعروف باسم ابن الوزير (ت ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٢٨ م) كان ظاهريا مخلصا لا يقلد أى مذهب (ورقه ١ - ب) . (ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٥١) . وكذلك القاضى أبو القاسم أحمد بن أبى الوليد بن بقمى ثنى عن المذهب المالكي ، ودخل فى المذهب الظاهرى مع ابن حزم (ورقه ١١ - ب) .

آخر عددا كبيرا من الأنصار المتعصبين للمذهب المالكي (١) ، ومن جهة أخرى فإن الأمر الصادر بشأن الغاء علم الفروع ، وتدريس المالكية لم يحترم أبداً والظاهر يدل على أن هذا الفرع من العلوم الشرعية كان مجالاً خصباً للمناقشات بين العلماء ، وهكذا كان الفقيهان : أبو العباس بن جهور الأزدي ، وأبو الحسن بن زرقون ، مختلفين بشأن بعض مسائل الفروع فقام كل منهما بتأليف كتاب يدافع فيه عن وجهة نظره . ويقول الرعيني أن ستاذه أبو محمد الجزامي الشلطيشي كان منصرفاً تماماً الى دراسة علم الفروع (٢) . وبدأت دعاية واضحة في الأوساط العلمية لمالك بن أنس . وهكذا كانت دروس ابن جهور الأزدي أبو محمد بن عبدالكبير تمتلئ بالطلبة وأهل النخبة من الدراسين (٣) . وفي دروس الشيخ أبي عميرة بن صالح الحمداني ، كانت تنشد أشعار أبي عبدالله الحميدى في مديح علوم مالك :

- إذا سألنا من هو نجم علم الحديث وسيده ، أشار الحكماء الى مالك .
- فهو الذى جمع شوارده وأضاء الأجزاء التى لولاه لبقيت فى ظلام حالك .
- فليسنى كل من هاجم علم مالك ، وكل من لا يأخذ من علمه فهو

(١) من بين هؤلاء يظهر الفقيه المالكي أبو العباس أحمد بن جهور الأزدي (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) (ورقة ٤ - ١) . وقارن ابن الأبار ، التكملة رقم ٩٨٩) . كان منصرفاً الى تعليم الفقه حسب مذهب مالك . والفقيه المالكي : أبو الحسن بن زرقون (ت ٦٢١هـ / ١٢٢٤م) كان مؤلفاً لعدد من كتب الفقه ، من بينها يذكر كتاب المسمى بـ " كحل من كتاب تهذيب المسالك الى تحصيل مذهب مالك (ورقة ٧ - ١١) وقارن . ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٩٦٧ ) حيث نقبهان مالكيان ، هما : أبو محمد بن عبدالكبير (ت سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) والحاج أبو بكر بن خلف التجيبي (ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م) كانا هدفًا لمقوبات شديدة ، من : الحبس ، والاعتقال والتعذيب (ورقة ٨ - ب) وقارن : ابن الأبار ، التكملة رقم ١٨٨١ ، ٨٥٩) . ويذكر الرعيني بين هؤلاء الفقهاء المالكية من الأساندة ، أبا عميرة صالح بن صالح الحمداني (ورقة ٢٣ - ب) .

(٢) الرعيني ، ورقة ٩ ب .

(٣) نفسه ، ورقة ١٤ ، ٨ ب .



هالك (١).

ويحب ان نشير أيضا الى أن الكتب التي صدر الأمر الخلافى ضدها والتي أقيمت فى النار فى مدينة فاس أمام عبدالواحد المراكشى ، مثل مختصر ابن زيد (٢) . والمدونة (٣) . كانت معروفة لدى الطلبة ، لم كانت من المقررات التى تدرس بعناية من قبل الاساتذة المختصين ، كما كانت موضوع المناقشات العلمية .

والى جانب المذهب الظاهرى ، وهو المذهب الرسمى ، والتدريس التقليدى لمذهب مالك ، كان للمذهب الشافعى وجوده المحدود ، فالرعىنى يسمى عددا من الاساتذة الشافعية ، مثل : الحاج أبو الحسن بن هشام اللخمي الشريشى ، وابى الطاهر اسماعيل بن مكى بن عوف (٤) . والحقيقة إن قواعد الفقه الشافعى تتفق الى حد ما ، مع المذهب الظاهرى (٥) . وهكذا كان المذهب الشافعى موضع التسامح من قبل المنصور ، ولهذا السبب ، فعلى أواخر حكمه تقرب من الشافعية وعينهم فى مناصب القضاة (٦) . ويمكن أن نرى فى ذلك أول اشارة الى الابتعاد عن مذهب ابن تومرت وكذلك مذهب الظاهرية من

---

(١) الرعىنى ، الفهرسة ٢ المخطوط ، ورقة ٢٣ ب .

(٢) الرعىنى ، الفهرسة ، المخطوط ، ورقة ٧ ب ، ٩ ب .

(٣) نفس المصدر ، ورقة ١٩ .

(٤) نفسه ، ورقة ٢٨ ب ، وقارن ابن الأبار ، التكملة رقم ٩٦٢ .

(٥) انها ترتب حسب أهميتها كالاتى : القرآن ، السنة ، الاجماع ونقبل القياس الى حد محدود جداً ، وهكذا فهى نفس الاصول المقبولة من يعقوب المنصور والشافعى يرفض الراى ، والاستحسان الحنفى ، والاستصلاح المالكى ، ولا يأخذ الا بالقياس (التعليل بالمشابهة) الذى يستخدم فقط فى الحالات التى لا يعالجها القرآن أو السنة أو الاجماع ، الأمر الذى يحدد دوره بشكل يكاد يلفيه . هـ. ماسيه ، الاسلام (بالفرنسية) ، ص ٩٥ .

(٦) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٩٥ .

قبل المنصور والاتجاه نحو المذاهب التقليدية . ولكنه كان يجب انتظار عهد المأمون ، الخليفة الثامن ، لكي يتم فشل التوحيد تماما والظاهرية في المغرب الأقصى ، والانتصار النهائي للمالكية .

### دراسة القرآن والحديث:

لما كانت العلوم المتفرعة من القرآن والحديث موضع اهتمام المذهب الرسمي وتشجيع الأمير فقد ازدهرت تلك العلوم من حيث هي المصادر الايجابية والمادية للشرعية . وقراءة القرآن كانت أول مرحلة في دراسة المصحف الشريف وكان يعلم لشباب الطلبة بسبع طرق (القرآت السبع) (١) ، وأشهرها قراءتان ، هما: قراءة ورش وقراءة نافع (٢) . وهناك عدد من كتب القرآت السبع التي كانت تدرس بعناية من قبل الاساتذة المتضلعين في الموضوع . منها كتاب القرآت السبع لأبي عامر بن العلاء ، وكتاب البديع لأبي محمد قاسم المعروف بالزقاق ، ومقدمة التجويد لأبي السباع الطحّان (٣) ، والمبادئ لابن سفيان ، والتبصرة لمكي ، والهداية ، والموضح للمهذولي ، وجامع البيان لأبي عمر ، والجامع للتودسيني (٤) . وكانت عادة حفظ القرآن عن ظهر قلب منتشرة وخاصة بين الطبقة المثقفة ، وكان القائمون على ذلك التعليم يسمون "الحفاظ" . وكانت قراءة القرآن تتم في البيوت كما في المصاحد ، وكانت تعتر نوعا من التضحية التي تجلب الرضاء الإلهي والبركة لكل من المكان ، والمقدم . وإن تطوره هذه العادة هي التي أدت الى ظهور طبقة متخصصة في

---

(١) الرعيبي ، الفهرسة ، المخطوط ورقة ٢ ب ، المراكشي ، الريل ، المخطوط ، ورقة ١٥ ، ١٣٩ ، وانظر ابن الزبار ، النكملة ، ج ١ ص ٦ ، ٣٩ ، ج ٢ ص ٤٩٣ ، ٥٠٨ .

(٢) انظر الرعيبي ، الفهرسة ، المخطوط ، ورقة ١ ب ، ٤ - ب ، ١٥ ، ٢٥ ب .

(٣) نفسه ، ورقة ٢ ب .

(٤) نفسه ، ورقة ٣ ب ، ٥ ب .

والكتاب يتحدثون عن يعقوب كواحد من الحفاظ من الطراز الأول . إذ كانت ردوده على أفراد حاشيته عادة ماتكون باستشهادات من القرآن الكريم (٢) . هذا كما كان في مواكبه يصحبه مصحفان أحدهما ينسب الى عثمان والآخر الى ابن تومرت ، والأول محمول على بغلة والثاني على ناقة . وفي قصره كما كان الحال في حملاته العسكرية ، كان الأمير يحيط نفسه بالطلبة ، والحفاظ القادرين على القراءة السريعة للقرآن (٣) . وكان يقصد من ذلك الحفاظ على المعنويات العالية لرجاله .

وبالتوازي مع ذلك تقدم شرح القرآن الكريم هو الآخر . وكان ذلك العلم ضروريا لفهم آيات الكتاب ، التي كان من بينها "آيات متشابهات" ، وخاصة في البلاد التي لم يكن لسان أهلها هو اللغة العربية ، للجميع . هذا كما سيقع التضاد مرة أخرى مع تعاليم المذهب الظاهري . أن مقولة "الاعتقاد واجب ، والسؤال نوع من الزندقة" لا يمكن الدفاع عنها إلا بصعوبة شديدة في الوقت الذي كان فيه علم التفسير يؤدي الى الدراسة العقلانية للنصوص الشرعية بحكم الضرورة . وكان هناك كثير من الأساتذة الذين كرسوا جهودهم لتلك الدراسة ، بينما كان عدد كبير من المؤلفات في ذلك الموضوع ، تتداول بين

(١) ومن بين القراء يذكر الرعيني اسم افقيه أبي بكر الرمالي (١٢) وأبو عمران مرسى الجذامي الحزيري ، والحاج ابو الحسن بن هشام اللخمي الشريشي ، وغيرهم (ورقة ٤-١ ، ٥ - ب) .

(٢) فعندما أوصي أحد المقربين منه باستاذين لتعليم بعض ولده قال له إن أحدهما بُرّ (صلب) في ديه" ، والآخر "بحر (غزير) في علمه" واتضح له أن الأمر ليس كذلك ، قال للتابع "لقد ظهر الفساد في البر والبحر" (آية رقم ٤٠ سورة رقم ٣٠) . ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ ، الزركشي ، ص ١٠ ، الترجمة ص ١٧-١٨ . ومرة أخرى عندما اغتاز من تحرشات ملك قشتالة ، يعقوب لا يجيب عليه إلا بآية من القرآن . انظر فيما سبق .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٨ ؛ الحلل ، ص ١٢٧ ، ابن الأبار ، التكملة .

أيدى الصلبة . وبعض هذه المؤلفات كانت تدرس الآيات المتشابهات ، وخاصة غريب القرآن لابن عَزِيز (١) . وبعضها الآخر كان مخصصا للشرح العام ، مثل : الوجيز لابن عطية (ت ٥٤١ هـ / ١١٤٦ - ١١٤٧ م) ، والكشاف للزمخشري (ت ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ - ١١٣٤ م) (٢) ، وكتاب أبي محمد بن عبدالكبير بن بقي الغافقي الذي يحوى التفسيرين السابقين (٣) . وكانت دراسة علم الحديث النبوى أيضا ، واسعة الانتشار . فكان ازدهار علم الحديث يأتى بطبيعة الحال على حساب علم القرآن . والحقيقة ان العلماء والأمراء ، كما كان الحال فى السابق ، يجدون فى الحديث مصدراً أكثر غنى وأقل حساسية فى الدراسة ، وأكثر موافقة فى إرضاء مصالحهم الانانية فى بعض الأحيان . فهنا لم تكن المواجهة مع نصوص موثقة تماما فكانت هناك حرية فى التصرف . وهنا كان يمكن ان يكون العمل على نصوص موضوعه ، بل ان البعض أيضا كان يصطنع - ربما بقصد أو بغير قصد - احاديث أخرى غير صحيحة . ولدينا من ذلك بعض الأمثلة . فهناك الاحاديث التى لم يتردد محمد تومرت فى إعادة استخدامها من أجل تأييد هجومه على المرابطين ، واقناع أتباعه فى شروعية دعوته . ومن ذلك الحديث الذى يقول ان أهل المغرب سيكونون أعوان الحق حتى يوم الحشر (٤) . ومثل هذا يقال عن الاحاديث التى تحدثت عن الجهاد فى افريقية ، رغم ما هو واضح من اصطناعها أو وضعها ، وهى التى نالت عناية مؤلف كتاب الاستبصار (٥) .

(١) الرعينى ، الفهرسة ، المخطوط ، ورقة ٢ - ب .

(٢) نفسه ، ورقة ٨ - ب .

(٣) نفسه ، اب الآبار ، رقم ٨٢١ .

(٤) كتاب ابن تومرت ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٩ .

(٥) الاستبصار .

والتي ربما أعطت تفسيراً ، شرعياً الى حد ما ، لحالة الاضطراب كما كانت سائده في تلك المنطقة لبعض الوقت .

وعندما أصدر يوسف الأوامر الى رجال الحديث بجمع كتاب منها يكون في خدمة المجاهدين (١) ، فيمكن التفكير أيضاً في أن يكون العمل قد تم في جو تسوده نفس الروح التبريرية ومثل هذه المبادرة قام يعقوب بالتحريض عليها عندما أصدر الأمر الى الفقهاء بأن يعملوا له مجموعاً من الحديث مأخوذاً من مجموعات الأحاديث العشر المعروفة ، والى جانب قراء القرآن ، كان يوجد بين حاشية الأمير قراء للحديث (٢) . ويسمى الرعيني عدداً كبيراً من العلماء (٣) ، المعروفين كرجال حديث مشاهير ، وكذلك كما من المؤلفات (٤) . التي تعالج كل فروع الحديث ؛ وهذه الأعمال دائرة في الأوساط العلمية . ومنذ وقت مبكر ، أعلن انه إذا كانت السنة يمكن ان تستغنى عن القرآن ، فإن القرآن لا

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٣ .

(٢) محمد بن أحمد بن سماء اللخمي ، البجائي أصلاً ، كان يشغل وظيفة قارئ الحديث في حاشية المصور . ابن رشيد ، افادة النصيح بالتعريف بالاستاذ الجامع الصحيح ، مخطوط الاسكوريال ، رقم ١٧٣٢ ، ورقة ٢٤ - ١ .

(٣) لكي لا نعطي الا المثال الأشهر بين هؤلاء المحدثين نذكر الحاج ابا بكر محمد بن خلف التجيبي ، و ابا محمد بن عبدالكبير بن بقي (الرعيي ، ورقة ٨ - ب) ، و ابا العباس ... اللخمي (ورقة ٩ - ب) ، و ابا القاسم محمد بن عبدالواحد الغافقي ، و ابن عبد لسلام الحميري (ورقة ١٥ - ب) ، وسعد السعود ... ابن عقيّر الأموي (ت ٥٨٨ هـ - المراكشي ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ٦ - ١) . وقارن ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٨٥٩ ، ١٨٢١ ، ٢٠١٢ ، و ابا عبدالله بن القحّار ، البنسي الأصل (ت في مراكش ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) - المراكشي ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ٣٢ - ١ ، ٣٣ - ١ .

(٤) من بين المؤلفات في الحديث يذكر فوق العشر مجموعات التي سبق ذكرها اعمال ابن زرقون عن الصحيحين : قطب الشريعة والمنهل العذب في الشريعة (الرعيي ، ورقة ٧ - ١) ، وكتاب ابن عبدالكبير المؤلف على مسند ، الترمذي و ابي داود (نفس ، ورقة ٨ - ب) ، والمنثقي لابن الجار (المراكشي ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ١١ - ١) .

يستطيع ان يستغنى عن السنة<sup>(١)</sup> ، ولهذا السبب فإن علم الحديث انتشر في ذلك العصر الذى كان فى الغرب الاسلامى أشبه بصحوة للعصر النبوى .

### الفلسفة فى خدمة الدين :

نحن نعالج الفلسفة كعلم مساند لعلم الدين ، موضوع فى خدمة العقيدة الحقيقية . هذه الفلسفة اللاهوتية ( سكولاستيك ) تسمى " علم الكلام " ، تهدف الى الدفاع عن العقائد الدينية ، على عكس ما يفعله رجال الدين ، بالتعليقات العقلية ، وليست المستوحاة من النصوص الشرعية<sup>(٢)</sup> . وبالنسبة للمفكرين العرب كان هناك دائما رباط وثيق بين الفلسفة والدين ؛ فالفلسفة ( الحكمة ) عند القدماء لم تكن بالنسبة لهم إلا فيض العبقرية لدى اليونان المؤمنين بالله ويكتبه المقدسة المرسله الى المبعوثين من رسله قبل موسى<sup>(٣)</sup> . وهكذا فمن الواضح ان المقصود بالحكمة فى هذه الفترة يمكن ان يعتبر بمثابة دراسة آراء الفلاسفة المؤمنين العاملين على خدمة العقيدة السليمة . ولكن الاشتغال بالفلسفة بمعنى البحث عن الحقيقة ، كشئ كامل للمعرفة المنطقية المدركة بالعقل ، أثارت القطيعة مع كل المذاهب ، الامر الذى ترتب عليه المعارضة الشعبية للفلاسفة . واضطهادهم من قبل السلطات .

وكان يحب الخروج من ذلك المأزق ، ووجد الحل لذلك بربط الفلسفة بالدين . وفى هذا المجال كان لابن رشد السيادة دون منازع . ففى مقدمة رسالته المعروفة بفصل المقال<sup>(٤)</sup> . عرف ابن رشد كيف يعطى للبحث الفلسفى

---

(١) هـ . ماسيه ، الاسلام ، ص ٨٧ .

(٢) قارن ، ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

(٣) كتاب فيه سياسة الأمراء ولاء الجنود المقدمين لثلاثة عهود - كتاب مقدم الى الخليفة الحفصى المتوكل ( ١٣١٨ - ١٣٤٦ م ) . مخطوط الاسكوريال ( عربى ) رقم ٧١٩ ، ورقة ٣ - ١ .

(٤) فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال .

والعقلاني مظهراً لاهوتياً عندما اعتمد بمهارة على القرآن والسنة ، في ذلك العصر (١) . وهو يلاحظ مع ذلك انه مع هذا العلم فربما ضللنا عن "سبيل الله" لأننا قد نجد أحيانا تضارباً مع القانون الإلهي . وعند هذه النقطة يجد موافقاً مع السنة التي تنص على ضرورة الاعتقاد وحتمية الايمان (٢) . ففي نظره لا يوجد في ذلك تناقض : فالنص المقدس يتفق بحكم الضرورة مع العقل ، ولكنه بسبب الخطأ في التفسير الحرفي ، .. يفهم فهماً سيئاً (٣) . وعن هذا الطريق قبل ابن رشد مبدأ التأويل (التفسير المجازي) للصفحات المتشابهة من القرآن . فالتأويل هو الأساس المكين لمذهبه ، وعن هذا الطريق ، أراد ان يخضع تفسير الآيات الدينية - ربما عن غير قصد - للفلسفة . وتلك لم تكن عربية الأصل أو اسلامية ، بل كانت يونانية الأصل أو وثنية . وهكذا بدأ ابن رشد

---

(١) حيث : الم يقل الله : وحذوا المثل من ذلك يا اولى الالباب . الفلسفة واللاهوت ، ص ١٠ . والم يقل : "أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء .." (نفسه ص ٢٠ ؛ سورة الاعراف (٧) ، آية ١٨٤) والم يقل : "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن .." (نفسه ، ص ٧ ، سورة النحل (١٦) ، الآية ١٢٤ .

(٢) الم يقل الرسول للرجل الذي استمع الى نصيحته وجعل أحياء يشرب العسل لعله كان يعانى منها في بطنه فزادت علته : أنا اومن بالله وليس بيطن اخيك . ابن رشد ، الفلسفة والإلهيات ، ص ٥ .

(٣) ويصفته مؤمناً طيباً ، وحسب المبدأ الذي كان يسير عليه ، رجع الى القرآن نفسه من أجل ان يقرر هذا الأمر بطريقة قاطعة ، وهو يبره بأنه وجد صحة ما يقرره في الآية التي تقول : "هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هي أم الكتاب ، وآخر متشابهات . فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله" . وهو إذ يقف هنا ، يعود فيشرح الآية : "وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم" ثم يستمر في الشرح ، هؤلاء : "يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الالباب" . وهكذا يصبح شرح ابن رشد للآية مخالفاً للشرح السني المعتاد (انظر لـ جوتييه ، ابن رشد (بالفرنسية) ، ص ٢٩) . فكان ابن رشد يقف هنا معارضاً لابن تومرت وشرحه المعتاد للآية ، حيث تكون دليلاً شرعياً بأمر بضرورة الاعتقاد في صحة النصوص ، من قبل الرجال الراسخين في العلم . قارن كتاب ابن تومرت ، ص ٢٣٤



وابن تومرت بداية مشتركة ولكنهما انتهيا الى تصورات مختلفة .

### ابن رشد والمذاهب المختلفة:

بفضل فقره وامتحانه الدقيق للنظريات التقليدية ، وجد ابن رشد مختلفا على عدد من النقاط ، مع المذاهب الدينية فى عصره ، مثل : تعاليم ابن تومرت ، والأشاعرة ، والظاهرية ، وكذلك المالكية . فإن مبداه فى التأويل اختلف بشكل حاسم مع ابن تومرت . وهنا ينبغى التفرقة بين معارف ٣ ( ثلاث ) طبقات اجتماعية ، هى : العامة ، ورجال الدين ، والفلاسفة (١) . فعامة الشعب عليهم ان يفهموا النصوص المنزلة حرفيا ، وان يقبلوا وعيونهم مغمضة كل التأويلات والاستعارات . أما رجال الدين فلهم ان يلاحظوا الاختلافات بين الرموز التخيلية ، ولكنهم لا يستطيعون التمييز بينها ، وان يفهموا منها الحلول بالتعليلات البرهانية ، بمعنى الحلول الاحتمالية وليس القطعية . وأما الفلاسفة ، المتعمقين فى شرح النصوص الدينية ، فهم الوحيدون القادرون على التأويل ، الذين عليهم ان يستخلصوا الأفكار العميقة للنصوص المنزلة (٢) . وفى نظر ابن تومرت كان كل تصور عقلى لفكرة الإله يبدأ من العقيدة المطلقة والجبرية لكل الناس ، حتى أنه كان يود ادخال كل من العقيدة والشرعة اللتين ألفهما لذلك الغرض ، فى إفهام أكثر أهل الطبقة العاملة خشونة ، من البربر (٣) . أما فى ذهن ابن رشد ، فإن التأويل المادى لآية "الاستواء" كانت إجبارية بالنسبة للرجال القادرين على استخدام الأدلة البرهانية ؛ فإذا أخذوها حرفيا فرما يعنى ذلك عدم الاعتقاد

(١) ابن رشد ، فلسفة ولاهوت ، ص ٢١ .

(٢) وهنا نجد أنفسنا فى مجال الأرسطابسيه ذات التصنيف الثلاثى للتعليلات : الخطابية ، والمجدلية ، والبرهانية . انظر ل. جوتييه ، ابن رشد ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٣) جولدزيجر ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، ص ٨٠ ، وقارن النص ، ص ١٩٠ .

فيها ، وعلى العكس من ذلك فإن الرجال من أصحاب الأدلة الخطابية ينبغي عليهم أخذها حرفياً ، فالتأويل في هذه الحالة يعنى الكفر وعدم الإيمان أو البدعة على الأقل (١) . والحقيقة ان تعليم التأويل للعامة هو الذى ولد الاختلافات المذهبية (الفصل) فى الاسلام ، وهى المذاهب التى كفر بعضها بعضاً (٢) . وفى نظر ابن رشد ان التجسيم لم يكن فقط صفة إلهية يجب عدم مناقشتها (السكوت عنها) ، بل صفة مرضى عنها بالشرع فى كثير من الآيات القرآنية . وكان رأيه أنه ينبغي السكوت عن هذه المسألة ، اعتماداً على الآيتين : ' الله نور السموات والأرض ' ، و ' ليس كمثله شئ ' (٣) . ورغم ذلك فقد ظل يساند حتى النهاية فكرة التجسيم بهدف تقوية إيمان عامة الشعب : ولقد أعلن فى ضوء ذلك ان التأويل يزلزل العقيدة ، ويتعارض مع القانون الإلهى ، ويضع حداً لتعليقات النصوص المنزلة (٤) . وهنا يظهر ابن رشد ظاهرياً متعصباً . ألم يقل الرسول : " تنقسم أمتى الى ٧٢ (اثنين وسبعين) مذهباً ، كلها فى النار الا واحد " ، الأمر الذى يعنى أولئك الذين يتبعون المذهب الظاهرى (٥) .

وفى مسألة الصفات الإلهية ، يحاول ابن رشد ان يثبت ان المذهب الأشعرى يؤدى الى فكرة تصور تعدد ذات الخالق . وأليست هذه نظرية الثلاث الإلهى التى يؤديها المسيحيون ؟ ألم يقل الله : كفار أولئك الذين

---

(١) فلسفة اللاهوت ، ص ١٦ .

(٢) ابن رشد ، الفلسفة واللاهوت ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) الفلسفة واللاهوت ، ص ٦٠ : القرآن الكريم ، سورة النور (٢٤) آية ٣٤ .

(٤) فلسفة اللاهوت ، ص ٦٢ .

(٥) نفسه ، ص ٧٠ .

يقولون أن الله ثالث ثلاثة (١) . وهكذا كان الأشعرية ، وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي ، موضع سخرية شديدة على طول كتاب "الكشف عن مناهج الأدلة" ، حول جميع نقاط الخلاف ، من: تصور الذات الإلهية ، الوحدة الإلهية ، الصفات الإلهية ، خلق القرآن ثم التجسيم . فلقد أراد ابن رشد أن يخفض من منزلة الأشعرية إلى منزلة رجال الدين ، المنشقين على أنفسهم بسبب مذهبهم الوسط ، فهم مبتدعة أو كفار بشأن عدد من النقاط ومع ذلك فإن المفكر الكبير لم يستطع الفصل في هذه المسائل الحساسة ؛ فاكتمى بموقف متذبذب ، هو موقف المعلق ، مادحاً مرة الأشعرية لكي يهاجمهم بعد ذلك عدة مرات . وعن نفس المشكلة ، كان يأخذ بوجهة نظر معينة لكي يعلن بعد ذلك أنه مناصر لفكرة أخرى ، حتى أنه كان يترك المسألة معلقة في أحيان أخرى (٢) .

### تطهير ديني والموقف الخاص باليهود؛

في مجال العلوم والأفكار الدينية ، يحسن أيضاً معالجة مشكلة الأقليات غير الإسلامية التي كانت تعيش تحت مظلة الدولة على عهد المنصور . وفي البداية لا ينبغي أن يغيب الذهن أنه في دولة يظلمها التعصب مرتبطاً بالحماس الديني ، حيث يمكن اتهام الأعداء السياسيين أو أصحاب المذاهب الأخرى بالكفر حتى لو كانوا مسلمين ، لا تنتظر معاملة أقل قساوة بالنسبة للكفار الآخرين – غير المؤمنين حقيقة هذه المرة – من المسيحيين أو اليهود . فاختلافاً عن المشرق الذي كان يحض على المناقشات الدينية بين مختلف المدارس وإلى

---

(١) فلسفة ولاهوت ، قرآن كريم . سورة النور آية ٣٤ .

(٢) عن الصفات الإلهية انتهى في خاتمته بموقف حديد يترك المسألة كما هي في الشرع ، دون الدخول في التفصيلات (نفسه ، ٥٧) . وفي مسألة التجسيم يعنى حياده ، لا يقرر شيئاً ولا ينفي شيئاً . ثم أنه بعد ذلك يأخذ برأي المذهب الظاهري ، لكي يعود إلى رايه الذي بدأ به قبل ذلك (نفسه ، ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٨) .

إقامة نظام خاص بأهل الذمة (من دافعى الضرائب) (١) . أما المغرب فقد أظهر اتجاهات غير متساهلة تهدف الى الغاء الاختلافات بين المذاهب ، وفى نفس الوقت تقوية الوحدة السياسية لدوله . وهكذا كان يعقوب المحرك الأول لحركة تطهير دينية متشددة حتى يمكن القول أنها كانت "محكمة تفتيش" حقيقية .

وكان اليهود هدفا لتلك الحركة . ولم تكن القرارات التى اخضعتهم لمعاملات خاصة مستحدثة فى المغرب . فقبل ذلك وعلى عهد المرابطين منع علي بن تاشفين اليهود من الإقامة فى مراكش ، أوحى قضاء الليل فيها (٢) ولكن الموحدين الذين لم يسمحوا لآى من غير المسلمين بالبقاء فى أراضيهم (٣) . كانوا قد انزلوا بهم من البداية معاملة أكثر قسوة . ووجد اليهود أنفسهم مضطرين الى اعتناق الاسلام وهو الأمر الذى كان يأمل فيه المرابطون منذ سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ - ١١٠٧ م (٤) . ولكن التظاهر بالعقيدة الاسلامية كان سهلا عليهم ، وذلك أنه لم تكن تتخذ ضدهم اجراءات

(١) مد البداية شرع الفقهاء للنظام الذى يجب ان يخضع له غير المسلمين . فاستنادا الى التقاليد النبوية قرروا ان يتميز أهل الذمة عن المسلمين بشارات خاصة . ووقع عبا تنفيذ هذه المقررات على عاتق "المحتسب" . قارن الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٨ ، الطرطوش ، سراج الموك ، ص ١٣٦ وما بعدها . وعن حمل شارات معينة كان معروفا قبل القرن الثانى عشر ، وان أوامر الخليفة الماطمى الحاكم فى هذا الشأن ترجع الى سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ - ١٠٠٥ م . وقبل ذلك بقرن ونصف قرن ، وعلى عهد الخليفة المتوكل (٢٣٣/٨٤٩) ، كان اليهود والنصارى خاضعين لنظام مختلف ، خاصة فى الملابس من أجل تمييزهم عن المسلمين . إ. فانيان ، مجلة الدراسات اليهودية ، ١٩٨٤ ، ص ٢٩٤ ، جولدزهر ، ص ٧٧ .

(٢) كان مسموحا لهم بدخلها نهاراً ، ولكن بهدف العمل والخدمة التى كانت حلتهم متخصصة فيها ، أما من يوجد فيها بعد غروب الشمس فكانت أمواله وحياته تحت رحمة أيّ كان ، الادريسي ، ص ٦٩ ، وقارن إ. فانيان ، مجلة الدراسات اليهودية ، ١٨٩٤ ، ص ٢٩٧ .

(٣) عبدالوحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ .

(٤) الحلل ، ص ٧٥ ، م.ل. أوتيجا ، البربر فى مراكش (بالاسبانية) ، ص ٥٢ .

تفتيش دينية كذلك الذى سوف يحدث فيما بعد فى البلاد المسيحية (١) .  
إنهم يعلنون اسلامهم ، ويؤمنون المساجد من وقت الى آخر ، ويعلمون القرآن  
لأطفالهم (٢) . ولكن الأمراء أنفسهم كانوا يعرفون ان هذا التحول للاسلام كان  
وهميا ، ولهذا السبب كان المنصور يعد لهم مفاجآت أخرى . فقرب أواخر  
ملكه حقيقة ، أمرهم بلبس الغيار (الملابس الخاصة) حتى يميزهم عن بقية  
الشعب . وكانت تلك الملابس ذات لون أزرق غامق ، لها أكمام واسعة جداً ،  
وبدلاً من العمامة كانوا يضعون "طاقية" مضحكة الشكل (٣) . وكان يعقوب  
يقول أنه لو كان متأكداً من حسن عقيدتهم لتركهم يختلطون بالمسلمين ،  
ولكنه لو كان متأكداً من كفرهم لقتلهم فى التو واللحظة ، واستعيد نساءهم  
، وجعل أموالهم غنيمة للمسلمين (٤) . وكان عبدالواحد سعيداً وهو يضع  
فى نفس الفصل - دون أن نعرف إن كان قد فعل ذلك بقصد - الحركة  
المضادة لليهود والسخط على ابن رشد ، والحقيقة ان ذلك يكمل الآخر . ففى  
نفس نهاية عهد المنصور بالضبط ، أى فى نفس الوقت تقريبا الذى صدرت  
فيه الأوامر الخاصة باليهود (حوالى ٥٩٥هـ / ١١٩٨ - ١١٩٩م) كان سقوط  
المفكر الشهير فى هاوية عدم الرضا الأميرى . وهنا يجب تخصيص مكان  
لمؤامرات البلاط ، والحسد والأحقاد الشخصية . فان رشد الذى نال شاباً

---

(١) كاهن ، اليهود فى افريقيا الشمالية ، مستخلص من مجموعة الهوامش والمذكرات للجمعية الأثرية  
لمقاطعة قسنطينة ، ١٨٦٧ ، ص ٤٢ ، عبدالواحد يقول : انهم (اي اليهود) يتبعون ديننا ،  
وتقاليدينا ، والله أعلم بما فى قلوبهم ، وما تحوى بيوتهم (المعجب ، ص ٢٢٣) .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ . وقارن ابن عذارى ، المجهول ، ص ٧٩ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ . وقارن ابن عذارى ، المجهول ، ص ٧٩ ، الزركشى ، ص ١١  
والترجمة ٢٠ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ .

الخطوة من يوسف ، كان مرضيا عنه كهلاً من قبل يعقوب (١) . أما عن أسباب الوحشة فهي موضوع تخيلات كثيرة ، فيتردد كثيراً ما قيل عن صداقته لأعداء الأمير ، وفلة رعايته لمقامه ، والشكوك التي انتشرت حول عقيدة الفيلسوف (٢) . ولكن من المهم التركيز على هذه النقطة الأخيرة . فإن اهتماماته الفلسفية ، وتعليقاته الجريئة على المذاهب ، وسخريته الشديدة من رجال الدين ، والمفكرين الذين سبقوه ، مثل : ابن تومرت وملهمه الغزالي ، هي التي كانت بمثابة اسلحة استخدمها خصومه في التشكيك في صحة عقيدته . وهكذا فعندما نزل به سخط الأمير ، حكم عليه بالنفي إلى مدينة اليهود وهي اليسانة ( Lucena ) . وهكذا كان إرسال ابن رشد لكي يعيش بين اليهود ربطاً له بقضيتهم فاليهود بصفتهم مسلمين مكروهين ، كانوا موضع شك الأمير وشعبه ، وكانوا مصنّفين في طبقة وسط بين المؤمنين الحقيقيين والمرتدين الكفار (٣) . ولم يكن ابن رشد الضحية الوحيدة لعملية التطهير الديني ، فقد كان هنا العديد ، من العلماء ، والأطباء والفقهاء والقضاة

---

(١) عن بداية الفيلسوف الشاب انظر عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٧٤ - ١٧٥ . حيث لم يتوقف ابن رشد عن الصمت بالرضى المستمر على عهد يوسف . قفى سنة ٥٦٦هـ / ١١٦٩م كان يشغل في نسيلية وظيفه القاضي (نفسه ، ص ٢٢٢) ، وفي سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٥م عين طبيباً أول لبوسف بن محفل بن طفيل ثم عين في وظيفة قاضي الجماعة بقرطبة . وعز تمتعه بالاحسان وارضى على عهد المنصور انظر رثان ، ابن رشد ( Averroes - بالفرنسية ) ، ص ١٩ .

(٢) انظر رثان ، ابن رشد ( افرويز ) ، ص ٢٠ وما بعدها ، المراكشي ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ١-٧ وما بعدها .

(٣) هل عومل كما كان يعامل اليهود ؟ هذا امر لا يظن ، ولو كان غير ذلك ما تردد الكتاب في امدادنا بالمعلومات الخاصة بذلك الموضوع . وكل ما نعرفه بهذا الشأن هو ان عدداً من شرق ، هو تاج الدين بن حموية ، الذي كان يزور المغرب في ذلك الوقت حاول ان يراه ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، الامر الذي يبين صرامة الاعتقال الذي كان يعيش فيه الفيلسوف ، قارن رثان ، افرويز ، ص ٢٦ .

والشعراء وغيرهم ممن بقوا نفس المصير . وبينما كانت المحرقة تلتهم كتب اللاهوت والفلسفة ، فتحت السجون أبوابها واسعة لاستقبال النخبة من أصحاب العلوم والفكر الحر . وعين أبو بكر بن زهر ، طبيب الأمير وزميل ابن رشد ، قاضيا أول لمحكمة التفتيش الدينية ، المكلفة بتنفيذ الأوامر الخلافية بهذا الخصوص . ونفذ أبو بكر بكل إخلاص العمل الذي أسند إليه . فقام بالبحث في كل دكاكين الوراقين باشبيلية حتى لا يبقى كتاب واحد في الموضوعات الممنوعة ، والأسف يملأ قلوب أحباء العلوم (١) . وفي اشبيلية أيضا انطلق أبو بكر في مطاردة المالكية ، المعارضين العنيدين لأوامر الأمير ، ومذهبه . ووجهت المطاردة بصفة خاصة نحو الفقيه أبي الحسن محمد بن زرقون ، والفقيه أبي محمد بن عبدالكبير بن بقی ، والحاج أبي بكر محمد بن خلف التجيبی (٢) . وسقط الأول والثالث بين يدي "المفتش الديني" ، فسجننا ، وحجر على أموالهما ، وعذبا عذابا شديدا . أما أبو محمد بن عبدالكبير فقد نجا من العقوبة باختفائه طيلة وقت عمل محكمة التفتيش هذه . ولكن الحقيقة أيضا هي أن هؤلاء الفقراء الثلاثة ظلوا مالكية متشددين ، متفرغين لدراسة الفروع ، منكبين على الكتب الممنوعة (٣) . وبمجرد مرور العاصفة ثم العفو عن المحكومين ، أعيد لهم اعتبارهم . فحصل ابن رشد وأصحابه من المكوبين على عفو الأمير . وعند عودته الى مراكش ، استدعى يعقوب الى حضرته ابن رشد (٤) . وعين أبو جعفر الذهبي مراقبا لكتابات أطباء القصر وفلاسفته (٥) . واطلق سراح كل من ابن زرقون وابن خلف

(١) المراكشي ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ٨ - ١ . وقارن رثان ، افرويز ، ص ٣٣ .

(٢) الرعيني ، المخطوط ، ورقة ٨ - ب .

(٣) نفس المصدر ، ورقة ٧ - ١ ، ٨ - ب ، ٩ - ١ .

(٤) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٢٤ .

(٥) قارن . رثان ، افرويز ، ص ٢٥ .



التحيبي . وظهر ابن بقي (١) . ومن أسف على العلوم اللاهوتية والفلسفية ،  
فابن رشد لم ينل العقول إلا لكي يموت بعد ذلك مباشرة ، يوم الخميس ٩ صفر  
٥٩٥ هـ / ١٠ ديسمبر ١١٩٨ م (٢) . ومات الأمير بدوره بعد ذلك الوقت  
بقليل أما اليهود الذين كانوا حتي ذلك الوقت يتلقون الضربات دون توقف ،  
فسوف يأخذون شيئاً من حقوقهم في حياة شبه عادية . وهكذا ففي بداية  
عهد أبو عبدالله محمد الناصر ، قررت تعديل أوامر والده ، إثر محاولات من كل  
نوع قام بها اليهود الذين لجأوا الي جسد كل ما كانوا يرون أنه مفيد بالنسبة  
لهم . فسمح لهم أبو عبدالله بارتداء الملابس والعمائم الصفراء وبذلك خفض  
في تمييزهم بالغبار مقتصرًا في ذلك على لون الملابس فقط (٣) .

---

(١) فقد لقي ذات يوم أبا بكر بن زهر ، فقال له : يا ازرق لقد نجوت بمفضل عقلك (الرعي ، المخطوط  
، ورقة ٨ - ب ) .

(٢) المراكشي ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ٩ - ب ؛ ابن الآبار ، رقم ٨٥٣ ؛ الانصاري الذي  
يذكره رثان (افرويز ، ص ٢٦ ، عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٢٤ - حيث يضح وفاة ابن رشد في  
آخر سنة ٥٩٤ هـ .

(٣) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ ، الترجمة ص ٢٦٤ .

## المنصور والتصوف:

كان للتصوف أيضا كلمته وسط صخب المنازعات الدينية . ونحن لا نعني بالتصوف هنا مدرسة ذات مناهج تعليمية محددة أو فرعا من فلسفة لاهوتية ذات خصائص مميزة . فالمقصود هنا لا يكون في مجاله النظرى أو فى تطبيقاته العملية نظاما متوافقا أو محددًا منسجما (١) . ان بذور التصوف موجودة فى القرآن (٢) . وهذا الذى يشرح كيف ان صحابة النبی مارسوه منذ البداية وفى الجماعة الأولى كان المقصود بالمذهب هو الانقطاع تماما إلى الله ( أى حياة العبادة ) ، بترك اعراض الدنيا الفانية كالملاذات والأموال والسلطان التى يميل إليها الرجال (٣) . وهكذا كانت الناحية العملية هى التى يعمل حسابها فى البداية . ولكنه مع تطور العلوم ، تطور التصوف شيئا فشيئا . وفوق ذلك فقد اتخذ شكلا نظريا ، تطلب مجموعة قواعد جديد ومصطلحات فنية حتى يكتمل التصوف فى معالجته للكائنات الأرضية والسماوية ، والروح ، والعرش الإلهى . وفى هذه المجالات لا تصح الأدلة البرهانية ، فالمسألة تتعلق بالتجارب الباطنية ، والشعورية ، والحب ، والألم أو السعادة . وفى دراستنا سنكتفى بالإشارة الى الشكل النظرى للمسألة ، وسيكون الاهتمام أكثر بالجانب العملي الذى يشد انتباهنا بخاصة .

وفى هذه الفترة حيث كان الدين يسود كل شىء ، حدث فى سلسلة من الحروب وأعمال العنف التى لا تنقطع ان تواجه باسم الله كل من المؤمنين ، والزنادقة ، والكفار ، والسلاح فى اليد من أجل الدفاع عن أهدافهم أو الاستشهاد . وهكذا لم يكن من الغريب قيام حركة كان هدفها السماح لكل

---

(١) جولدزهر ، العقيدة ، والشرعة فى الإسلام ، ص ١٢٧ .

(٢) قارن ماسينيون الخلاج (بالفرنسية) ، ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٣) قارن ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ٣٩٠ .

طرف بازدهار حياته الروحية ، وتحقيق نوع من الكمال الصوفي ، وضمان الحياة الأبدية . هؤلاء الصوفية اصرروا على انكار الأعراض الدنيوية ، وهول الحساب الأخير ، وتطهير القلب ، وكمال الروح عن طريق قتل الجسد ، ودفعوا تعبدهم الى أقصى الحدود ، وفي هذا المجال أعطى ابن تومرت المثال ، ووصل بذلك الى درجة الولاية والقداسة . وبعده ظهر عبدالمؤمن فوق ذلك في هيئة الفاتح والمنظم الادارى ، وابنه يوسف كحاكم فيلسوف . أما يعقوب ، فإنه يقدم لاصورة قديس . ، فبعد هزيمة غُمرَة في افريقية ، وخيانة أخيه وعمه الذى أعدمه فى التو واللحظة (١) ، غشيه وخز الضمير ، وتحول فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٦ - ١١٨٧ م الى التصوف أى الزهد والتبتل (٢) . حدث ذلك بعد ٣ (ثلاثة) سنوات من اعتلائه العرش ، وهكذا يمكن التأكيد على أن إتجاهاته العنيدة فيما يتعلق بأمور الدين ، كانت نتيجة طبيعته لهذا التحول . ومنذ ذلك الوقت اتجهت كل عواطف الأمير نحو الصالحين والمنبتلين من الرجال . فقد كان يبحث عنهم فى كل مكان ، وكان يغمرهم بامتيازاته . ولكنه فى قلب التصوف نفسه كانت الخلافات قائمة بين مختلف المدارس ، فالصوفية لم يكونوا متفاهمين فيما بينهم . ولهذا السبب فإن بعض المالكية كانوا مطلوبين ، مثل : أبى زكريا المغيلى أو حتى أبى مدين شعيب ابن الحسين الأنصارى : رغم انه كان أحد أقطاب التصوف فى عصره ، ولكنه كان فى نفس الوقت مالكياً عنيداً . فعندما استدعى الرجلان الى مراکش ، ربما لم يستجب الواحد منهما أو الآخر للدعوة . وهكذا قيل ان ابا مدين عندما بدأ

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٦ .

(٢) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٢٠ . ومثل هذا الحدث ليس نادرا فى تاريخ القداسة .١. در منجهم ( حياة القديسين المسلمين ، ص ١٨ ، ١٩ ) حيث يكتب فى هذا المعنى ان "كل قديس ما كان يصل تقليديا أو نفسيا الى حياة الزهد والتصوف إلا نتيجة لهزة نفسية هى التى تحول ، وتوجهه نحو مصيره ، وتجعله يسمع النداء الذى لا يستطيع شوقه ان يرفضه .

المسير قال الكلمات الآتية : إنني اذهب ، ولكنني لن أراه أبداً ، وأنه ربما مات في الطريق قرب تلمسان (١) .

والى جانب هذا التصوف السلبي والسلمي ، كان هناك نوع آخر من الزهد النشط الحربي . فالاستشهاد في الجهاد ضد العدو الكافر ، والوقوف في صفوف الأبرار الى جانب حمزة ( عم النبي ) وجعفر كان من الموضوعات المحببة في أدب التصوف . هذا التصوف أو الزهد المحارب هو أصل نشأة منظمة الرباط (٢) . وهكذا كانت اسبانيا حيث الجهاد من أحل الدين ، موضع رباط بالامتياز ، حيث كان يعقوب مرابطا : وأثناء ما كان بالأندلس للجهاد ، في سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م ، التقى بالزاهد موسى بن عمران ، وأصله من مرتلة (ت ٥٩١هـ / ١١٩٥م) وأعطاه مبلغا من المال (٣) . وتقول القصة ان الرجل الطيب رفض الهدية ، ولكنه قدم على العكس من ذلك الى يعقوب مائة دينار من مصدر حلال ، ينفقها على نفسه أثناء تلك الحملة حتى يكون له النصر . وإن الأمير الزاهد قبل المبلغ ، ولم يزل يذكر أثره المبارك حتى الوقت الذي هباً

(١) المراكشي ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ٣٧ ، ١ - ٣٧ ، ٥ . وأبو مدين أصله من اشبيلية ، وسكن في فاس لمدة قصيرة ، ثم غادر المدينة متقزراً من أهلها . ثم إنه سار الى تلمسان ثم بعدها الى بجاية حيث استقر . انظر التلمساني ، البستان ، من ١٠٣ وما بعدها ( المقرئ ، ج ٤ ، ص ٦٧٥ وما بعدها ) . وهنا يعطى المؤلف تفاصيل طريفة عن أبي مدين ، الزاهد ، الفقيه في الشريعة ، العادم بالاحاديث النبوية ، انالكى المخلص . وهو يتكلم عن رحلته الى البلاد المقدسة ، ثم انه يعطى فكرة عن نظريته الصوفية ، في الحب الإلهي ، ويدكر بعضاً من كراماته ، ويختتم بمعارضته للظاهرة ، المذهب الرسمي للمصور ، ودعوته الى مراكش للمحاسبة ، وأخيراً وفاته . قارن القرطاس ، ص ١٧٠ ؛ يحيى بن خلدون ، تاريخ بنى عبدالواحد ، النص ، ص ٦٣ والترجمة ، ص ٦٠ - ٦٢ ؛ الزركشي ، ص ١١ ، ابن الأبار ، رقم ٢٠١٥ . وأبي بارجس ( Abbe Barges ، المرباط سيدي بومدين ( بالفرنسية ) ، ص ٣٥ وما بعدها ؛ م. أمين - تلاقوس ، حياة الأولياء الأندلسيين ( بالاسبانية ) ، ص ٢٣ والهامش ٢ ؛ دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٣٧ .

(٣) الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٧٥ .

الله له فيه النصر . وان بناء رباط الفتح ( الرباط العاصمة ) تؤكد أيضا اليوم التدبير المحارب ليعقوب المنصور (١) . ان الجود كمطلب عزيز على الرجال الاتقياء ، لم يكن إلا مظهر آخر من تصوف بطلنا . فهو في الوقت الذي يحتقر كل أعراض هذه الدنيا ، كان يفيض كرما وجودا بالنسبة لرجال المثقلين بالهموم ، من : الضعفاء ، والفقراء ، وخاصة الأيتام . وهكذا كانت مدينة مراكش مقسمة الى أحياء (أرباع) ، وفي كل منها كان الموكلون المزودون بالقود ، ومكلفين بالبحث عن الأسر الواقعة في الضيق (٢) . ليقدمون اليها المساعدات الضرورية . وفي نهاية كل سنة كان الأمير يأمر بان يقدم له قائمة بفقراء الأيتام . فكانوا يحشدون في موضع قريب من القصر الملكي ، حيث يختنون ؛ وبعد ذلك كان يعقوب يعطي كلاً منهم مثقالاً ، وثوباً ، وقرصة ، ورمانة ، وإلى جانب المثقال ربما أعطى في بعض الأحيان درهمين

(١) ج. مارسيه ، هامش على الربط (بالفرنسية) ، منوعات ر. باسيه ، ١٩٢٥ ، ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٢) عبدالواحد (المعجب ، ص ٢٠٧) يستخدم كلمة "مساتير" (ومفردا مستور) التي تعني الرجل التي يحبى حياة مناسبة ، مستقلا ماديا عن غيره في الظاهر وهو يشير هنا الى الرجال المذكورين في القرآن .. " مستورين بسطاء يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف لا يسألون الناس الخافا " ، وقارن السيوطي ، المحاضرة ، ج ٢ ص ١٢ - ١٣ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ ؛ ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٩ . إن فكرة الاحسان هذه والجود كانت غريزة على الأولياء في تلك الفترة ، وإيها كانت تكون بصفة خاصة البطرية الرئيسية عند أبي العباس السبتي (٥٢٤ - ٦٠١ هـ / ١١٣٠ - ١٢٠٤ م) شيخ مراكش . ففي نظره هو نفسه ، كانت ولابته تأتي من حقيقة انه عقد عهد مع الله يشترط فيه ان يقتسم كل دخله مع الفقراء . وفي نهاية عشرين سنة من تلك الممارسة التي كان يعطي فيها الفقراء نصف أمواله ، وجد نفسه قادراً بالتالي بعد تلك الممارسة ، على الحكم الصحيح على كل ما يحظر على باله . وبعد عشرين سنة أخرى رأى انه من العدل ان يعطي الفقراء ثلثي دخله وعندئذ زاد في إحسانه حتى الخمسة اساع ، وبعد خمسة عشر عاما من هذه الممارسة أصبحت لديه القدرة على الحكم في مملكة السماء . فكان عندما يقول "يا رب" كان الله يرد عليه : "ها انا ذا قد اجبتك" (المقرى ، ج ٤ ص ٧٥٠) .

حديدين (٣) . ولنفس السبب ، ومن أجل تحقيق المعونة العامة للناس ، اشأ يعقوب مستشفى كبيراً (بیمارستان) ، كان يستقبل المرضى مجاناً ، من الفقراء والاغنياء والأغراب . وهؤلاء كانوا يأخذون الملابس الخاصة من أجل النهار ومن أجل الليل ، ومن أجل الشتاء ومن أجل الصيف . وكانت نفقته ، بدون ثمن الدواء ، ثلاثين ديناراً في اليوم . وكان الأمير يشرف بنفسه على المرضى الفقراء ، وكل جمعه يزور المستشفى وهو يسأل بنفسه البعض والآخرين . وبعد شفائهم كان يقدم للفقراء معونة مالية . أما الاغنياء فكانت تعاد لهم نفودهم وأملأهم (١) .

### نهاية صوفية للمنصور:

ان التصوف الذي كان يحيط بشخص المنصور سيكون له صدى في نفوس أهل العصر بعد قليل من وفات الأمير . فقد دارت الهمهمات التي تقول انه احتقر التشريفات ، والثروات ، وزهد في الحياة الدنيا ، وساح في العالم منصرفاً الى التأمل والاستغفار . وكان ابن خلكان أول من أثار هذه المسألة (٢) . مؤكداً أنه كان في بعض القرى الفلسطينية قرب المجدل قبر يقول كل الناس انه قبر يعقوب . وهو يقول بعد ذلك إنه مات في المغرب . ولكنه يعطى عدداً من التواريخ المحتملة لوفاة ، وهو إلا يعرف ان كان ذلك قد حدث في مراكش أو في مدينة سلا . ان تأكيدات المتضاربة التي نجدتها عند معظم المؤرخين ، تدفعنا الى امتحان مقالة ابن خلكان بدلا من اسقاطها دفعة واحدة كسطورة لا تصدق ، ترجع أصلاً الى الإعتقادات الشعبية الخاطئة . انه يدهشنا ذلك السر الذي يحيط بوفاة عدد من الشخصيات الموحدية الكبيرة . وأولهم هو القائد الشهير الونشريشي الذي قتل في موقعة البحيرة . وكان عبد المؤمن قد

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

(٢) الوفيات ، ج ٣ ص ٣٧٩ (القرى ج ٢ ص ١١٩٠ ، السلاوى ، الاستغفا ، ج ١ ص ١٨٤ .



دفن قائد الحملة سراً خشية ان يشبط موته الروح المعنوية لدى الموحدين .  
 والمهم هنا ان هؤلاء الأخيرين تصوروا فعلا أنه رفع الى السماء بمعرفة الملائكة  
 (١) . وبعد ذلك تأتي وفاة محمد بن تومرت نفسه لتكون موضوعا للتخمين  
 والاحتمالات . فنحن لا نعرف على وجه الدقة متى أو كيف مات . والأمر هنا  
 يتعلق بتدبير سياسى ، بفضلله كان المسئولون عن ادارة البلاد يأملون فى  
 السيطرة على جماهير البربر الذين كانوا يعتقدون فى عصمته . أما مع  
 عبدالمؤمن فلم يتكرر الحدث ، ولكن كان علينا ان ننتظر وفاة ابنه الأمير لكى  
 نراه يعود للظهور من جديد . فمن المؤكد ان يوسف بن عبدالمؤمن كان قد  
 جرح جرحا خطيرا أمام شنترين ولكننا نجهل يوم أسلم الروح . والحقيقة ان  
 إعلان وفاته لم يتم إلا بعد أن وصلت معظم القوات الى اشبيلية . وهكذا  
 اعتقد بعض المؤرخين فى أنه أصيب بالمرض فى طريق العودة (٢) . وبعد وفاة  
 المنصور أتت وفاة الناصر لكى تكلل هى الأخرى بالأسرار . ويظل ابن خلكان  
 هو الراوى للحدث الغريب ، ولكنه ينسب أبوته هذه المرة الى المغاربة . فبعد  
 أن أصدر الأوامر الى الحراس فى حديقة قصره بقتل كل من يوجد هناك أثناء  
 الليل ، ربما قام الناصر بجولة تفتيش ليلية هناك ، وربما راح ضحية أوامره هو  
 نفسه (٣) . هل كان ثمة علاقة بين كل تلك الأحداث أم ان الأمر كان مجرد  
 مصادفة ، أو تدبير مفرض من قبل المؤرخين ، أم حدث طبيعى يرجع الى الحالة  
 النفسية لمجتمع ماخوذ بالأحداث فوق الطبيعية والأسرار ؟ والا يمكن أن نرى  
 فى ذلك مجموعة من الأحداث التى تداخلت فيما بينها بشكل مشترك ؟  
 وهكذا لا تكون نهاية المنصور السرية حدثا قائما بذاته ، بل كحلقة فى

(١) ابن الأثير ، ج١ ص ٤٠٧ .

(٢) ابن الأثير ، ج١٠ ، ص ٣٣١ ؛ ابن خلكان ، ج ٣ ص ٤٦٥ ، المقري ، ج ٢ ص ١١٨٨ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٢٨٢ .



سلسلة من الأحداث المتشابهة . ومع ذلك فنشير الى اختلاف يتمثل في ان الحدث يظهر هنا بشكل أوضح من حيث ميول يعقوب التصوفية . والحقيقة ان الحدث يظهر معقداً . فإذا كان المغاربة كانوا متعلقين بأميرهم الكبير الى درجة انهم رفضوا له ان يموت ميتة عادية ، وأرادوا له نهاية تتسم بالعظمة ، وتتوج بالأسرار ، فهو الأمر المقبول . ولكن كيف يفسر ان الشرقيين هم أيضا يقولون بوجود قبره في أرض بلادهم ، وهو الأمر الذي يؤكد ابن خلكان؟ وهذا التأكيد هو الذي يثير السلاوي (١) . ليس دون وجه حق ، على الا ينكر تلك النهاية الصوفية بوصفها أسطورة ، مثلما فعل ابن الخطيب (٢) والمقرئ (٣) . ولننظر في الوقائع التاريخية . فتبعاً للوثائق الأكثر أصالة ، ورغم اختلافها على تاريخ وفاة المنصور ، فأغلب الظن أنه توفي في الأشهر الأولى من سنة ٥٩٥ هـ ، وربما في ٢٢ ربيع الأول (٤) يناير ١١٩٩ م (٤) . وإذا كنا لا نعرف بالضبط مكان وفاته ، في مقره بمراكش أو في سلا أثناء إحدى رحلاته الى تلك المدينة ، فمن المحتمل انه دفن بشكل نهائي في تنمل الى جانب أسلافه (٥) . وفي تنمل الحديثة ، ليس المظفر في موقعة الارك ، الوحيد من بين أسرة بني عبد المؤمن الذي يصل اسمه الى أبسط سكان

(١) الاستقصا ، ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) رقم الحلل ، ص ٥٩ .

(٣) النفح ، ج ٢ ص ١١٩٠ .

(٤) ابن عذارى ، المجهول ، ص ٨١ (اعلان ولاية محمد في ٢٣ ربيع الأول ٥٩٥ هـ) ، القرطاس ، ص ١٥٢ (عشية الجمعة - ٢٢ ربيع الأول ٥٩٥ هـ) ، ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ (٢٨ ربيع الأول ٥٩٥ هـ) ، ابن الأبار ، ج ١ ص ٧٠ ، (بعد شهر تقريبا بعد موت ابن رشد ، في ٩ صفر ٥٩٥ هـ) ، ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٩٥ (١٨ ربيع الثاني ٥٩٥ هـ ، ١٨ جمادى الأول ٥٩٥ هـ) ، الحلل ، ص ١٣٤ (ربيع الأول ٥٩٥ هـ) ، عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٢٤ (أول صفر ٥٩٥ هـ) ، ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ (أول جمادى الأول ٥٩٥ هـ ، ١٧ ربيع الثاني ، أول صفر) .

(٥) الحلل ، ص ١٣٤ .

المدينة<sup>(١)</sup>. ومن جهة أخرى فإذا كان موقف الدولة كان قد استقر في ذلك الوقت في الغرب مع استعداد المسيحيين الاسبان للدخول في السلم بعد الصراع العنيف ، فلم يكن الأمر كذلك في افريقية حيث كانت الأحوال مرتبكة . فولى لم يكن له من العمر إلا عشرين عاما ، وكانت مسئوليات حكومة الامبراطورية الواسعة ثقيلة على كتفيه الصغيرين ، الأمر الذي لم يسمح لوالده بالتنازل عن الحكم والرحلة الى المشرق . ومن المعروف ان المنصور كان قد عبر عن رغبته في المسير الى مصر والمشرق ليس من أجل صلاح الدين ، ولكن كفأخ على رأس جيوشه<sup>(٢)</sup> . ونحن نذكر أيضا أنه كانت لديه الفرصة للتدخل بجيوشه ضد الصليبيين في الشام ، ولكنه أسقط دعوة صلاح الدين ، العزيزه على قلب كل مسلم<sup>(٢)</sup> . ونحن نطن هذا الأمر الأخير على الأقل كان له صداه البعيد في قلوب المغاربة المقيمين في المشرق ، والذين كان عدد كبير منهم يقوم بالجهاد . ولا شك ان هذا الصدى هو الذي أدى الى اصطناع تلك القصة التي تريد ان يكون المنصور قد تنازل عن العرش ، واتخذ طريق الأرض المقدسة في الشام حيث كان الكفار قد لاقوا هذا ثم مزيرة ، ولكنهم كانوا ما يزالون معلقين بها . وكان ذلك بالنسبة لنفس مؤلفي الأسطورة ، شراء لنفس المنصور ، ومثالا على الورع وحسن العقيدة بالنسبة للمشاركة . ويمكن ان نستخلص من ذلك ان الأسطورة ، الوليدة وهو الأمر

---

(١) ف - فرید ، خراب تنمل (بالفرنسية)، هسبيريس ، ١٩٢٢ ، ص ١٦٣ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٠٤ والهوامش .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٣٨ .

المستغرب فى المشرق ، كانت ذات أصل مغربى (١) . وفوق ذلك فهناك قصة أخرى ، وهذه المرة مغربية ، تأتي لتؤكد هذا الافتراض . فالأمير القديس لم يكن قد ذهب الى المشرق لكي ينقطع الى التأمل وطلب العفو ، ولكن الى اسبانيا للجهاد كمرباط بسيط (٢) .

### الحياة العقلية:

لقد كان النشاط العقلى العظيم على عهد المنصور يمارس فى كل المجالات وفى الأشكال الأكثر تنوعا . ولنبدأ أولا بالنظر فى الطب والمدارس التى كانت تلقى دروسه فيها . فكما هو الحال بالنسبة لذلك الوقت ، كان الطب تركبة لرجال الدين . فابن رشد اشتهر كطبيب وابن طفيل الذى دان له ابن رشد بفضل تقديمه للأمير ابى يعقوب يوسف الذى غمره بأفضاله ، كان هو أيضا

---

(١) ولقد تطورت تلك الأسطورة على مر القرون . فبدورائها من فم الى فم كانت تضاف اليها تفصيلات طريفة ، ولكنها فى مقابل ذلك كانت تفقد دقتها . فعلى عهد ابن بطوطة ( نهاية القرن الرابع عشر ، الرحلة ، ح ١ ص ١٣٤ وما بعدها ) لم يعد ابو يوسف يعقوب هو الذى قام بالرحلة الصوفية فى المشرق ، ولكن والده انا يعقوب يوسف ، على حياة نور الدين وصلاح الدين . وتبعنا لان بطوطة فرما ذهب الأمير العربى الى دمشق لكي يسقط مريضا ، ويبقى متروكا فى الأسواق . وبعد شقائه سيعمل كساحل فى بعض الرياض التى تعود الى نور الدين الذى سوف يعرفه بطريقته المجازية . ولكن القديس العربى ربما رفض التشريفات التى عرضت عليه ، ويكون قد هرب ذات صباح فى البرد القارس . وعلي غمط عبيره من القديسين كانت له كراماته الخاصة به ، فهو مثل دى النون المصرى ( ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م - قارن درمنجهام ، حياة الأولياء المسلمين ( بالفرنسية ) ، ص ١٠٥ وما بعدها ) الاستنصار ، حيث الإشارة الى انه ربما تعلم الصاعقة الكبرى : الكيمياء . وهكذا كان يمكنه تحويل الحاس الى ذهب . والأسطورة تريد أيضا ان يكون قد كتب الى نور الدين يقص عليه قصة الذهب ، ويطلب منه إقامة مستشفى ( بيمارستان ) للفقراء والعرباء . وفى نهاية رسالته ، لم ينس ، كما يقال ، الإشارة الى أن ابراهيم بن ادهم ( ت ١٦١ / ٧٧٧ - وقارن ١. درمنجهام ، حياة القديسين المسلمين ( بالفرنسية ) ، ص ٣٣ وما بعدها ) الصوفى الشهير لم يكن الوحيد من الملوك الذى ترك عرشه ، فهو أيضا ترك عرش المغرب .

(٢) الصفحات التالية .

أول فلاسفة عصره ، والطبيب الأول للأمير . وفي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م ، عين ابن رشد طبيباً أول للأمير بدلاً من ابن طفيل الذي كان قد أسن . وكان زميل ابن رشد وقتئذ في وظيفة طبيب الأمير هو أبا بكر بن زهر ، وكانت الصداقة التي ربطته بأبي مروان بن زهر ( المعروف بـ **Avenzoar** - ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ) من الوثائق بحيث أن ابن رشد كتب بنفسه رسالته عن "الكليات" في الجسم الانساني ( أى العموميات ) وطلب من صديقه أن يكتب من جانبه كتاباً عن الجزئيات ( أعضاء الجسم الانساني المختلفة ) بهدف أن يصبح الكتابان عملاً كاملاً في الطب<sup>(١)</sup> . ولقد عرفت تلك الرسالة في الطب بنجاح لا بأس به في العصور الوسطى ، ولكنها لم تكن تقارن بقانون ابن سينا<sup>(٢)</sup> . وفي المجال الطبي ينسب إلى ابن سينا اختراع هام ، يتمثل في أنه يمكن فسادة الأطفال دون خطر<sup>(٣)</sup> . أما عن أبي بكر بن زهر فإن شهرته كطبيب ماهر كانت تفوق معرفته كرجل دين أو فيلسوف . فقد كان يعلم أو يعتقد حلقات حرّة في الطب ، حسب المعتاد في ذلك العصر . ويرجع الفضل للأمير الذي عندما أعدم الكتب "الحظيرة" ( على الدين ) ، استثنى الطب إلى جانب الحساب ومبادئ الفلك ، دون أن ينسى أن تكون دراسة الطب من ذلك الحين تحت رقابة الدولة . وكان انشاء المستشفيات ( بیمارستان ) الكبير في مراکش ( العاصمة ) دليلاً على الحب الذي يكنه المنصور للطب . وكان ذلك بیمارستان غنيا بالأدوية ، فقد كان فيه صيادلة أكفاء يعملون في تركيب الأشربة الدوائية ، والأدهنة والأكحال وأدوية الرمد<sup>(٤)</sup> .

( ١ ) قارن رثان ، افرويز ، ص ٤١ ، دائرة المعارف الاسلامية ، ابن رشد ، ج ٢ ص ٤٣٦ .

( ٢ ) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

( ٣ ) انظر رثان ، افرويز ، ص ٤٥ .

( ٤ ) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ ، الترجمة ، ص ٢٥٠ ، الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

ورغم ان الطب كان قد غلب على العلوم الأخرى ، فإن التنجيم لم يكن يشغل مكانة أقل . فقد كان هناك علماء ، مشاهير يعملون بهذا العلم ، وعالم مثل ابن رشد كان يضيفه الى مجمل معارفه العمومية . هذا وينسب سخط الأمير على المفكر الشهير بسبب اشتغاله بالفلك ، وذلك بعد الكشف عن مخطوطة فيه بخط يده ، تحوى تعليقات عن كوكب الزهرة التى اعتبرها كإلهة (١) . وكان علم النجوم فرعاً من الفلسفة ، التى كانت مسألتها التى تشغل الأذهان هى بقاء العالم . ومع ذلك فقد كانت حقلاً خصبا لردود فعل سحرية - دينية مثيرة للأرواح . وهكذا شاعت فى الاندلس سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م فى بلاد الاندلس نبوءة عن عاصفة حادثة تكون خطراً رهيباً على العالم . ويقال ان هذه النبوءة وفدت من الهذر عن طريق مصر وكان على العاصفة ان تقوم ما بين يوم الاثنين ٢٧ جمادى ( ٢٦ أغسطس ) فى منتصف الليل ويوم الخميس ٢٩ من نفس الشهر فى منتصف الليل ايضاً . وكان عليها أن تدمر البلد جميعاً ، فكل شئ سيكون عرضة للمسح ، من : المباني والزروع . وتملك الناس فزع شديد . فقليل ان كل واحد حفر الملاجئ تحت الأرض (٢) . وبسبب تصرف ابن رشد فى مواجهة مثل هذا الحدث كان سقوطه فى الوحشة مع الأمير ، فبعد ان درس المسألة فى مجمع من العلماء ، من الناحية الطبيعية ، وتبعاً لما تنبىء به النجوم ، فقد كان عليه أن ينكر إمكانية حدوث مثل هذه العاصفة ، وذلك دون ان يقيم وزناً لبعض ما تقوله الآيات القرآنية بشأن قوم عاد (٣) . وهكذا اعتبر التنجيم من العلوم الخطرة ، وصدرت الأوامر التفتيشية بمنعه ، باستثناء مبادئ الفلك ، التى تستخدم فى

(١) عبد اللطيف ، المعجب ، ص ٢٢٤ ، الترجمة ، ص ٢٦٦ .

(٢) المراكشى ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ١٦٠ ، مخطوط باريس ، ورقة ١-٨ ، ٨ - ب .

(٣) المراكشى ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ٨ - ب .

حساب ساعات النهار والليل ، ورسم اتجاه القبلة .

### اللغة العربية:

لقد ازدهرت أيضا اللغة العربية والحساب والكيمياء وغيرها . وكانت المدارس في المدن الكبيرة تعلم كل فروع العلوم المختلفة ، وإذا لم يكن لدينا فيها أسماء كبيرة مثل ابن رشد في الفلسفة ، وابن زهر في الطب فإننا لا نقدم أسماء كبار الأساتذة من المشاهير . وهنا لن نعالج إلا اللغة العربية ، عنصر الوحدة بالامتياز بين كل سكان الدولة . ومع ذلك لا ينبغي علينا ان ننسى ان المغرب كان منقسما الى عاملين : عربى وبربرى ، يختلفان لغويا رغم وحدتهما الدينية . ولما كانت الأسرة الموحدية أسرة بربرية ، لم يكن من المنتظر ان تقوم بمجهود من أجل تعريب المغرب أو نشر لغة القرآن بين البربر ، فان تومرت عندما فكر في تعريف عامة الشعب بالله ، لم يتردد في نشر تعاليمه بين الكتلة المصمودية باللهجة البربرية . فالحقيقة ان الأمراء ، وأفراد العائلة الحاكمة كانوا يجيدون العربية ويعرفون القرآن ، ويستمعون الى الشعراء ويكافئونهم ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعامة الشعب . فلقد ظلوا برابرة لا يتكلمون ولا يفهمون إلا لغتهم (١) . والحقيقة انه وقع على عاتق كل من أفريقية والاندلس عبء القيام بدور مهم في مجال التعريب .

فلقد وقع على عاتق إفريقية التي تعربت منذ دخول الهلالية ، بتشكيل غير مباشر حقيقة ، تعريب بعض أقاليم المغرب الأقصى (٢) ، حيث كانت تمارس نفوذاً لغوياً شبه بالنفوذ الذى كانت تمارسه بأفريقية . ومن جهة أخرى فإن أفريقية كانت قد أصبحت ميدان قتال ، وكانت قد توقفت عن ان يصبح

---

(١) عبد الواحد يقول بمناسبة زيارة قام بها الغز الذين يصحبهم المصور الى تنمل ان «سواء البربريات كن يشدن بلعنتهم بمناقب مهديهم ابن تومرت الذى كان قد تنبأ بهذا الحدث - المعجب ، ص ٢١٠ والترجمة ، ص ٢٥٢ .

(٢) انظر فيما سبق .

مناسبة لنشر العلوم ، فمن بين كل المدارس الكبرى ، كان العلماء يتجهون نحو المدن الكبرى في المغرب الأقصى . واستقبلت فاس أعداداً كبيرة منهم ، وظهر نشاطاً عقلياً عريضاً (١). وعلى نفس النسق فإن الأندلس بصفتها مركزاً ممتازاً للعربية في المغرب ، قامت بدور شبيه وإن كان بشكل مختلف . فلقد انجذب إلى العواصم المغربية المزهوة بفخامتها ، وكذلك بهريق البلاط الخلافي ، اساتذة اللغة العربية ، وعلماء الأدب والشعراء ، الذين تدفقوا عليها من أجل أن يعطى البعض دروساً حرة ، أو لينشر الآخرون مدائح الأمراء من أجل الثروة .

### الشعر

بفضل الأندلس سوف يجد الشعر حقلاً خصباً في المغرب الموحدى ؛ فلقد فرض الشعر معظم رجال الطبقة المستنيرة ، وبفضلهم عرف فترة ازدهار ، من حيث تنوع الموضوعات ، وتعدد الأفكار ، الأمر الذي أدى إلى ميلد شعر بلع من الأهمية ما يتطلب تخصيص دراسة له ، أكثر استفاضة . وهذه الدراسة يمكن أن نخدمنا في التعرف بشكل أفضل على الحالة الروحية والظروف الاجتماعية التي كانت تسود في ذلك الوقت .

ونقطة البداية التاريخية كانت تشجيع الأسرة الحاكمة التي أعطت للشعر تقدماً لم يعرف له مثيل على عهد المرابطين . وفي هذا المجال لا يصح المقارنة بين رئيس كل من الدولتين الأولى : ابن تاشفين وعبد المؤمن . فبينما كان الأول بربرياً بدوياً ، عامياً يعرف العربية بصعوبة (٢) ، فإن الآخر رغم أروسته البربرية ، كان مثقفاً جداً ، مجيداً في اللغة العربية . وفي هذه الظروف لم يكن من المستغرب أن يلقي الشعر ظروفًا صعبة في الفترة الأولى ، وعلى العكس من ذلك ستكون حالته على عهد عبد المؤمن ، الذي كان يحب المديح

---

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٦٠

(٢) انظر دوزي ، المسلمون في إسبانيا (بالفرنسية) ، ج ٣ ص ١٣٥



، ويقترض هونفسه الشعر (١) .

أما عن خلفاء عبدالمؤمن ، فابنه يوسف كان يعرف العربية ، والتاريخ والتقاليد العربية (٢) . أما عن ازدهار الشعر على عهد المنصور ، فتفسره الاستقبالات الفخمة ، والمكافآت السخية من قبل الأمير ، حيث كان الكثير من رعاة الشعر ، من أمراء العائلة الملكية ، وكان هؤلاء يقيمون في الأقاليم على جانبي العدوتين ، مع حاشيتهم ورجال بلاطهم (٣) .

### الشعراء:

كل مسلم من النخبة كان يجب ان يقرض الشعر ، وإذا لم يفعل بسبب عدم الموهبة ، لم يكن ينقصه معرفة كبار الشعراء ، وحفظ قطع مختارة من الشعر عن ظهر قلب ، وان يكون سعيداً بحضور المجالس الشعرية . ويعقوب

---

(١) حسب ابن صاحب الصلاة ، فإن عبدالمؤمن كان يضمن الخطابات الرسمية التي كان يرسلها الى ابنه يوسف باشبيلية عندما كان يغفروا افريقية ، كثيراً من الأشعار من انشائه هو . وكان يوسف يقرأها امام الموحدين وأهل المدينة الذين كانوا يلتقطونه ويحفظونه (المن بالامامة ، المخطوط ورقة ٣ - ب ، ٤ - ١) . وعندما عبر عبدالمؤمن المضيق في ٥٥٥ - ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ - ١١٦١ م لكي يقيم عدة أشهر في جبل طارق ، استدعى شخصيات كل من العدوتين ومثقفيهما . ولقد تأثر الشعراء بهذه الدعوة ، لأن الخليفة حتى ذلك الوقت لم يكن قد استقبلهم إلا بناء على طلبهم ، عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٥١ والترجمة ، ١٨٣ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام . وقارن هـ . بيريس ، الشعر في فاس على عهد المرابطين والموحدين ، هستيريس ، ج ١٨ ، ١٩٤٣ ، ص ٢٨ ؛ وعن الحفل الشعري ، قارن . ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١١ - أو ما بعدها .

(٢) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٦٩ ، الترجمة ، ص ٢٠٥ .

(٣) من بين أعضاء الأسرة المالكة كان كتاب أبي الربيع حاكم المغرب الأوسط ، هم لشعراء : أبو عبدالله محمد بن عبدربه (المغرب من حلى المغرب ، المخطوط ج ٢ ، ورقة ١٨ - ب ) ، وأبو بكر عبد الرحمن بن مفاور (نفسه ، ج ٤ ، ورقة ١٠١ - ب ) ، أبو عبدالله بن أبي حفص ابن عبدالمؤمن ، والى بلنسية كان كاتبه الشاعر أبا القاسم محمد بن نوح (نفسه ، ج ٤ ورقة ٤١ - ب) وأبا زكريا ابن أبي العزيز (نفسه ، ج ٤ ورقة ١٠٢ - ب ) ، الخ .

لم يقرض الشعر شخصيا ، تماما مثل والده يوسف (١) . ولكنه لم ينقصه ان يضيف الشعر الى معارفه الدينية (٢) . أما أبو الربيع على العكس من ذلك ، والذي كان ابن عم الأمير ، ووالى المغرب الأوسط ثم بطليوس ، فقد كان شاعراً . ولما كان الشعر فى تلك الحقبة ليس أكثر من تكوينات أسلوب ذكية ، فلن ندهش اذا رأينا من يقرضه من الأشخاص ذوى الأرواح المحدودة غنائيا ، مثل ابن رشد ، ابن زهر أو ابن الذهبى . وابن الأبار يدعى ان الفيلسوف الكبير كان يحفظ عن ظهر قلب دواوين المتنسى وحبیب ، وانه كان ينشدها كثيرا فى دروسه (٣) . وهكذا أعطى المجتمع الموحدى على عهد يعقوب عددا من الشعراء ، وان كان الكثير منهم هواة شعر أو من شعراء المناسبات .

وقبل ان نخرج بالخواتيم ، يستحسن ان نقدم بعض عينات من شعر ذلك العصر . ويمكن تقسيم الموضوعات الشعرية بسهولة فى مجموعتين كبيرتين ، هما : الأشعار الدينية ، الأشعار المدنية . ولكن الموضوعات التاريخية تهمننا هنا أكثر من غيرها . وذلك انها تعرفنا برود الفعل التى كانت تعكسها الأحداث الجارية على الانتاج الشعري . وفي كل من المجموعتين سنجمعها فى طبقة خاصة ، نبدأ بدراستها .

كانت الحقبة فترة حرب من ناحية ودين من الناحية الأخرى ، وهكذا كان للحرب والدين أثرهما فى تهميس خيال الشعراء .

فتورة بنى غانية كانت من الموضوعات الخصبية . وهكذا كان سقوط قفصة فى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م تحت ضغط المنجنىقات الموحدية موضوع يستحق الاحتفال به فى كل بلاد المغرب . ومن أجل احياء هذا النصر العسكرى أنشد

---

(١) ابن خلكان يقول ان يوسف ترك لنا اشعاراً ليست جيدة (ج ٣ ص ٤٦٦) .

(٢) ما سبق ، ص ١١ .

(٣) التكملة ، رقم ٨٥٣

ابن مجير (١) . شاعر المنصور الرسمي (٢) ، شعراً جميلاً يذكر لنا منه الحمير  
بيتين ، هما (٣) .

ما غُبر قفصة إلا أنها اجترمت فلم يكن عند أهل الحلم تشريبٌ  
مابالها زار ..... حوزتها فلم يكن عندها أهلٌ وترحيبٌ

ومرة أخرى اكتسحت المدينة بهطول المقذوفات عليها ، ورغم حصانتها  
فقد أخضعت . وهذا الحدث سيكون أيضاً موضوع شعر قصصى وساخر فى  
نفس الوقت من عمل ابراهيم الزويلي (٤) ، حيث مارس الشاعر قريحته فى  
المجال الدينى :

سائل بقفصة هل كان الشقى لها بعلاً وكانت له حمالة الخطب  
تبديداً كافر بالله القبهها فكان كالكاثر الأشقى أبى لهب  
لما زنت وهى تحت الأمر مُحَصَّنة حصنتموها أبتلع الشرع بالحقب

(١) ابو بكر يحيى بن عبدالحليل ابن عبدالرحمن بن مجبر الفهرى ، الذى نشأ فى مرسية ، وعاش  
بخاصة فى اشبيلية وتوفى فى مراكش سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، بعد ان انشا أكثر من ٩ (تسعة)  
آلاف بيت من الشعر . ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٢٠٥٥ ، المقبرى ، ج ٢ ص ٨٠٨ . وقارن  
الحميرى ، الروض المعطار ، الترجمة ، ص ١٢٩ ، النجوم الزاهرة ، يورد بشكل تاريخى خاطئ ،  
انه عند وفاة المنصور (٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م) انشد شاعره ابن مجبر قصيدة طويلة من ١٠٧ (مائة  
وسبعة) أبيات ، من انشائه ، الترجمة . ، فانيان ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٣ ص ٣٨١ ، النجوم الزاهرة ، ترجمة ، فانيان ، ص ٩٤ .

(٣) انظر الروض المعطار ، ص ١٩٠ - ١٩١ والترجمة ، ص ٢٣١ .

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن عبدالله بن أغلب الخولانى الزويلي ، وهو الكاتب المشهور  
، المتوفى فى مراكش فى نهاية سنة ٦١٦ هـ / ١٢٢٠ م . الرعينى ، المخطوط ، ورقة ٣٤ - ب ٤  
عبدالواحد يقول عنه ان الامر يتعلق بمن يسمى ابراهيم ، والذى يضعه بين اصدقائه والمعروف باسم  
الزويلي . المعجب ، ص ١٩٨ ، الترجمة ، ص ٢٣٧ .

وكان الجهاد في الأندلس أحد الموضوعات المفضلة عند الشعراء . فالحث على جهاد عدو الاسلام لم يكن أكثر من شرح فقرات من القرآن ، كما كان في نفس الوقت رابطة توحيد بين المسلمين .

فعندما علم يعقوب وهو في سلا ، اثناء اقامته في سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ، بانتصار قواته البحرية على البرتغاليين ، بعث اليه ابن مجبر بالمدائح التالية (١) :

قلائدُ فتح كان يذخرها الدهرُ      فلما أردت الغزوَ أبرزها النصر

وعند وصول المنصور الى قرطبة ، اثناء نفس الحملة ، انشد ابن مجبر في شعر له يصف فيه حفل عقد اللواء الذي تم في المسجد الجامع (٢) :

بشرأى هذا اللواءُ ما عقدا      إلا وقد مدةً الروح الامين بدأ  
واقبل النصرُ لا يعدو بناحية      فحيثما قصدت راياته قصداً  
واستقبلته بتبشير الفتوح فقد      كادت تكون على اكتافه لبداً  
وكتب نفس المؤلف في السنة التالية قصيدة شعر مشهورة بمناسبة استعادة مدينة شلب ينشد في أولها :

دعا الشوقُ قلبي والركائب والركبا      فلبوا جميعاً وهو أول من لبى  
وظلنا نشاوى للذى بقلوبنا      نخال الهوى كاساً ويحسبنا شرباً  
إذ القضبُ هزتها السرياح تذكروا      قدود الحسان البيض فاعتنقوا القضباً  
ومن أجل الاحتفال بانتصار الأرك (الاركوس) نظم احتفال كبير على ضفة الوادى الكبير . واستقبل "المنتصر" كبار رجال الدولة والشعراء الذين اتوا

(١) الحميرى ، الروض المعمار ، ص ١٠٧ ، الترجمة ، ص ١٣١ .

(٢) الحميرى ، الروض المعمار ، ص ١٠٧ ، الترجمة ، ص ١٣١ .

يهنثون "بطل الاسلام" (١) . وكان عدد الشعراء الحاضرين من الكثرة بحيث لم يسمح للواحد منهم بإنشاء البيت الواحد من الشعر أو البيتين وكومت أوراق الشعر أمام المنتصر حتى أخفت الكومة العظيمة المحيطين به (٢) . وقال أحد الشعراء في احتفاله بالمناسبة:

- أنت تشغل بين السادة تلك المكانة التي يشغلها نبينا بين رسل الله  
- لقد أحببت دين الهاشمي ، كما فعل ذلك من قبل جدك الأكبر عبدالمؤمن بن علي .

وسر المنصور بذلك وكافا الشاعر بألف دينار . ولكنه حسب قول المقرئ لم يعط الشعراء الآخرون شيئاً بسبب عددهم الكبير . ويقرظ عبد الواحد شعراً انشده أمام المنصور أحد أصدقائه ، وهو علي بن حزمون ، المرسى أصلاً ، وهو:

جيتك معطرة النفس      نفحات الفتح باندئس  
فذرا الكفار وماتمهم      ان الاسلام لفى عرس  
إمام الحق وناصره      طهرت الأرض من الدنس  
وملات قلوب الناس هدى      فدنا التوفيق للتمس

أما أبو الوليد الشقندي (ت. في ٦٢٩هـ / ١٢٣١ - ١٢٣٢ م) قاضي بياسه ، وهو أديب وعالم في حاشية المنصور ، فقد وجه إليه قصيدة منها (٣) .  
- اذا وقفت وقف اسعد معك ، ستكون كالسهم والعدو كالهدف

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢١٢ ، والترجمة ، ص ١٣١ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٠٧ - ٨٠٨ .

(٣) المغرب في حلى المغرب ، مخطوط ، ورقة ، ١٣٦ - ١٣٧ ، وقارن . الشقندي ، ترجمة ١ - جارميا جوميت ، Elogia del Islam Espagnol ، ص ١٢ - ١٣ .

- العالم جميعا لك ، تطويه ، وتبسطه

- واى شىء صوبت اليه لا يستطيع مقاومتك وبمناسبة عقد الهدنة مع

الفونس القشتالى فى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ، حسب طلب هذا الأخير ،

أنشد شعر فى مديح الأمير الكبير . بتعبيرات قريبة .

ومن المناسب ذكر بعض فقرات من الشعر الملحمى الذى يذكر بأحداث

تاريخية أقل أهمية . فمناسبة لقاء مع المسيحيين قال أبو بكر محمد بن

وزير ، أحد أعيان اشبيلية ، والقائد الأندلسى ، ذلك الشعر التالى : (١).

- عندما التقينا ( فى ميدان القتال ) قام قتال حار . وفى الجانبين كان ناجون

وكان قتلى

- لم يسلم صدر ، فالكل حمل فى رقبتة ضربات السيوف

- لم يكن هناك ملجأ سوى البيض والقنا . لقد شن الطرفان حربا دون رحمة

- حملتنا المفاجئة حطمت هجمات العدى .. والذى كان يتوقف اثناء

القتال لم يكن أمامه الا الهزيمة . وهناك قصيدة طويلة فى وصف خيل

المنصور نظمها ابن مجبر الشاعر الرسمى (٢) :

- له ميادين تدريب الخيول العتيقة ، التى تسير راقصة الرجال النشوى

الباحثين عن الموسيقى والشراب .

- انها عروسات صغيرات فى صباح العرس ، ولكنها لا ينقصها السحر

الطبيعى . انها لا تحتاج الى جواهر او خلاخيل فى الأرجل او عقود فى

الاعناق .

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج ١ ورقة ٧١ - ٧١ ، ب .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٠٣ ، السلاوى الإستقصا ، ١٨١ .

- أنها تشير في العدو أنواء تنسف أرض الأعداء

- أننا نعطيه (أصل الخيل) اسم "جواد" (كريم) لأننا عندما نطلب منه سباقا يعطى اثنين .

ومن ناحية الميورقيين نجد بعض قطع من الشعر الملحمي الذي لا يقل في مستواه عن شعر الموحدين ، ان لم يفوقها في الجودة . فعبد البر بن فرسان ، وأصله من وادي آش (ت في فزان سنة ٦١١هـ / ١٢١٤ - ١٢١٥ م) (١) . كان قد اكتسب شهرة صاحب السيف والقلم جميعا (٢) ، فإليه تنسب هذه الأبيات المشهورة :

أجُبْنَا ورمحي ناصري وحسامي وعجزاً وعزمي قائدي وزمامي  
ولي منك بطأش اليدين غَضَنَفَر يضارب عن أشباله ويحامي  
ألا غنياني بالصهيل فإنه سماعي ورقراق الدماء مداامي

ويخبرنا المقرئ أن هذا الشخص ، انشأ على عهد نجاح الميورقيين كثيراً من القطع الشعرية عن الحروب التي أصبحت لا تنفصل عن اسمه . ولكنه عندما أسن ضاق بحياة عدم الاستقرار التي كان يعيشها مع الميورقيين بافريقية ، فطلب من سيده ان يعفيه من وظيفته حتى يتسنى له القيام بفريضة الحج (٣) . والزبارة فقال تلك الأبيات :

امْنُ بتسريح على فعله سببُ الزيارة للمحطيم ويثرب  
ولئن تقول كاشح أن الهوى درَسْتُ معالنه وانكر مذهبي

(١) انظر الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٩٢ والهامش ، ابن خلدون العبر ، ج ٦ ص ١٩٢ ، المقرئ ، ج ٢ ص ٦٤١ ، ٩٣٥ وما سبق ، ص ٦٨ .

(٢) الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٩٢ ، المقرئ ، ج ٢ ص ٦٤٢ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٤٢ ، ٩٤٩ .



فمقاتلى ما إن مللت وإنما عمرى أبى حمل النجاد ومنكبى  
وعجزت عن ان استثير كمينها وأشق بالصمصام صدر الموكب  
والفونس (ملك قشتالة) كان هو الآخر موضع المديح شعراً . فلدينا بعض  
النماذج من انشاء سفيره ابن الفخار (١) .

- أيا عظمة الادفونش ، فلتكن دائما سعيدا ، كما العروس الشابة فى ليلة  
عرسها .

- فلنخلع النعل تشريفا فالمكان الذى تقف فيه هو مكان مقدس .

### الشعر الدينى :

هذا الشعر يقدم لنا تشكيلة من الموضوعات ، مثل : مذهب ابن تومرت ،  
وعلوم الدين ، والتصوف . فلقد وصلتنا قطعة من قصيدة أنشدت أمام  
يوسف على قبر ابن تومرت ، بمناسبة "الحج" السنوى التقليدى أو الزيارة .  
هذه القطعة تعبر بالشعر عن أساسيات مذهب المهدي الموحدى . وفيها نجد  
تشابه اسم ابن تومرت مع اسم النبى ، وماهية رسالته ، من : إحياء علوم الدين  
، وسيادة العدل ، ومحاربة المسيح الدجال . وحسب قول عبدالواحد (٢) ،  
فإن الذى انشأ ذلك الشعر رجل جزائرى أصلاً ، ويضيف الى ذلك ان المؤلف  
، الذى لم يستطع الحضور الى الحفل التذكارى ، بعث بعض أقاربه ينشد  
الشعر ، وهكذا يضع الشاعر وسط التخمينات ، وبدلك يقترح ان تكون  
القطعة قد ألقت على عهد عبدالمؤمن . وفى رأينا أن ذكر الثالث والرابع من  
أمراء بنى عبدالمؤمن ( المنصور والناصر ) دلالة على أن انشاء ذلك الشعر كان  
جزئيا على الأقل من عهد الناصر ابن المنصور .

وهنا يظهر عالم شهير ، هو أبو الوليد يونس بن محمد القسطللى المعروف

(١) المقرئ ، ج٢ ص ٩٤٩ .

(٢) المعجب ، ص ١٣٣ ، الترجمة ، ص ١٦٤ .

باسم الشاعر الجزيري ، نسبة الى موطنه الأول ، والذي كان يرغب في احياء  
مذهب ابن تومرت الذي كان قد فسد وتغير حسب رايه . ولقد انشأ الرجل  
شعرا في ذلك الموضوع ، يبدأه هكذا (١) .

- كان في فكره سراً سوف يظهر لكم ذات يوم

- سأصل إلى هدى إذا ما ساعدني جدي

- ولا فإنني سأستشهد وأنا أريد اصلاح ديني

وفي رأى ابن سعيد (٢) . ان قصة ذلك الرجل كانت معروفة في كل البلاد  
التابعة لبنى عبدالمؤمن ، وحيث كان يطارد . وعامة الشعب كانت تعتقد انه  
كان يستطيع ان يتقمص شكل كلب أو قط ، وفي فزعهم من تلك الفكرة ،  
كانوا يرجمون الكلاب والقطط . وظل الحال على هذا المول حتى اليوم الذي  
قبض فيه على الشاعر في منطقة بسطة . فضرب عنقه وارسل رأسه الى مراكش  
(العاصمة) .

وكان على الشعراء ان يقوموا بدورهم أيضا في مجال النزاعات المذهبية .  
فكان أتباع كل مذهب يحشدون شعراءهم للدفاع عن دعواتهم . وفي

---

(١) المغرب في حلى المغرب ، والمخطوط ، ورقة ٤٤ - ب ٤ ج ٢ ، ص ١٠٢٤ . وحسب رأى ابن سعيد  
(المغرب) ، كان الجزيري في القاهرة سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ - ١٢٠٥ م . ولكنه حسب رواية ابن  
عذارى ، (المجهول ، ص ٦٢٣) فإن الرجل ثار على عهد المنصور ، وعند مروره بالاندلس  
سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م عرف بفراره من السجن الذي كان معتقلا فيه ، بفضل فساد قاضي المدينة  
الذى كان يقبل الرشا . واغتاز المنصور لذلك وأمر بتصفية كل اصحاب الشاعر ، وكان عددهم ٩٩  
(تسعة وتسعين) رجلا ، وجلد القاضي الذي مات اثناء اعمال التعذيب . وعلى العكس من ذلك  
فإن رواية كل من ابن سعيد والمقرئ التى ترى ان الشاعر قصص عليه على أيام الناصر في منطقة بسطة  
، وأما ابن عذارى الذى يصفه بالنصراني ، يقول انه كان يبحث عنه يتم في كل مكان حتى تم  
القبض عليه في منطقة مرسية . واقتيد الى اشبيلية سائرا على قدميه أمام الموحدين . وعندما سئل  
عن دعوته أنكر كل ما نسب اليه ، ولكنه بعد ان عذب تم صلبه .

(٢) المغرب في حلى المغرب ، المخطوط ، ج ١ ورقة ٤٤ - ب .

الأوساط العلمية كان الشاعر ابو عبدالله الحميدى هو المدافع عن المالكية (١)  
أما عن شعراء الموحدين فكانوا يصفون بنى غانية بالكفار ، وهؤلاء لم يلبثوا  
ان يردوا على ذلك بالمثل عن طريق شعرائهم . من ذلك ما قاله أحد شعرائهم  
الذى يدعى بالرعينى ، وهو أصلاً من منطقة مالقة ، فله :

- أنتم ( بنو غانية ) ضوء النهار للدين ، الذى يمحو ظلمات الشك . وبكم  
ينير العالم (٢) .

وكان السخط على الفلاسفة يجد من الشعراء من يؤيده . فابو الحسين ابن  
جبير ، يكيل فى العبارات التالية غضبه على ابن رشد ، قائلاً (٣) .

- لم يبق فى الطريق الرشيد ، يا ابن الرشيد ( لعب بالكلمات ) ، بينما أعمال  
أيامك ترتفع عالياً . لقد كنت خائناً للدين ، ولم يفعل مثل هذا جدك  
- لقد ضرب القضاء كل هؤلاء المزيفين الذين يخلطون الفلسفة بالدين ،  
وينشرون الزندقة لقد درسوا المنطق ، ولكننا نقول فيه بحق : ان الكلام  
يحمل السوء .

وكان للتصوف هو الآخر شعراؤه . فكان مذهب الصوفية يمكن ان يلخص  
شعراً لعبدالله ابن أبى نصر (٤) فى الآتى :

- لا تشغل نفسك بما لا يعود عليك بالعفو يوم الحساب  
ويعير ابو مدين عن نفس الفكرة قائلاً :

قل ' يا الله ، واترك الدنيا بكل ما فيها ، اذا أردت ان تكون من ابناء

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢١٢ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج ١ ورقة ٢٥٠ - ب .

(٣) المراكشى ، الذيل ، المخطوط (باريس) ، ورقة ٨ - ب ، ٩ - أ ، ابن جبير ، ص ١٤ - ١٥ ، رتل  
، افروير ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) الرعينى ، المخطوط ، ورقة ٤ - أ .

الله (١).

وزاهد آخر ، هو أبو الحجاج المنصفي ، من سبته ، يعبر بالشعر عن فكرة طريفة تماما ، ففي نظره انه نفسه خطأ ، ولكنه لما كان مؤمنا بعفو الله ، فهو لا يخاف العقاب .

- تقول روحى لى : لن يتأخر الموت ، وانت غارق فى بحر من الخطيئة  
- ماذا جمعت من الطعام ؟ قلت اسكت ، لما نحضر الطعام فى بيت رجل  
سحى (٢). والزاهد أبو الربيع سليمان بن حكم الغافقى (ت ٦١٨ هـ /  
١٢٢١م) كان زاهداً فى عرض الدنيا ، متذكراً قرب يوم الحساب ، يقول  
أيضا :

- يسعد الرجل أمام تدفق أيامه ، ويرجو ان تتحقق آماله  
- ولكنه ينزف دمه بدلا من أن يذرف دموعه ، عندما يفقد شيئا من  
ثروته (٣) .

### شعر دنيوى:

وكانت الحياة الدنيا بكل اشكالها كان لها أيضا أنواعها الشعرية ، من :  
المديح ، والحب والخمر .

### المديح:

كان المنصور موضوعا للمديح من جانب جميع الشعراء . فمعظم الاشعار

---

(١) يحيى بن خلدون ، تاريخ بنى عبدالواحد ، ص ٦٣ ، والترجمة ص ٨٢ ، والأب برغيس ، سيدى  
أبو مدين ، ص ٣٨ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج ٥٤ ورقة ٦٨ - ب .

(٣) الرعينى ، المخطوط ورقة ، ٢٨ - ١ .

فى ديوان ابن مجبر كانت مخصصة له (١) . كما أشاد به ابوالقاسم بن نوح  
فى كثير من أشعاره (٢) . أما عن الأديب ابو اسحق ابراهيم بن يعقوب  
الكائنى ، وهو أسود من قبيلة كانم فى منطقة غانة (٣) ، خلد اسمه بفضل  
البيتين الأولين من قصيدة فى مدح المنصور ، يستحقان فعلا الاعجاب الذى  
أكنه لهما الكثير من المؤلفين والكتاب (٤) :

- لقد رفع الحجاب من أجلى ، ولكن عيناي تريانه فى حجاب من العظمة .  
- وان كرمه سمح لى بالاقتراب منه ، ولكنى ابتعدت عنه خوفا ( احتراماً )  
عندما أصبحت بالقرب منه .

وابن منقذ سفير صلاح الدين الى بطلنا ، لم يقصر فى مدحه ونوال المكافأة  
منه . وفى حماس الاشادة بكرم الموحدى وجوده ، الذى لا يقارن الا بالبحر ،  
ينسى ابن منقذ الهدف الحقيقى من سفارته ، فلا يشير اليها إلا اشارات  
غامضة :

- عبرت بحرا لكى أجد آخر ، اتساعه لا حدود له .  
- لقد عبرت البر والبحر لكى ازورك ، وأنا متأكد من ان جودك الذى لا حدود  
له سيضمن نجاحى (٥) .

وشاعر آخر هو : القاسم بن طلحة ، من شعراء البلاط (٦) ، يقارنه بالشمس ،

---

(١) ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٣٨١ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج٤ ، ورقة ٤١ - ب .

(٣) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٨٢ ، العمري يعطى هامشا عن الشاعر ، المسالك ، ترجمة ، ص ٤٥ ؛  
المقرئ ، ج٢ ص ١١٨٩ .

(٤) ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٣٨٢ ، النجوم الزاهرة ، فصلة ، الترجمة ، ص ٩٤ .

(٥) ابو شامة ، ج٢ ص ١٧٤ ؛ السلاوى ، الاستقصا ، ص ١٧٥ .

(٦) المغرب فى حلى المغرب ، ج٤ ورقة ١٧٩ - ١ .

وهو يقول :

- وهل هذا سبب لآلا أعبر عن حبي له أن يكون شمساً ولكنها تشرق من الغرب .

وكان أفراد الأسرة المالكة أيضاً موضوعاً للمدائح . فالشاعر الشهير ابن خروف الاشبيلي الأصل ، والمتوفى في حلب سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م<sup>(١)</sup>. تغنى بمدح ادريس بن يوسف ، أخى المنصور ، ووالى سبتة وكذلك بمدح ابى سعيد بن جامع وزير مراکش ، وكذلك بمدح الكاتب أبى عبدالله بن عيَّاش .

### مشاعر الموت:

فى هذا المجال انشأ شاعر قصيدة جنائزية من مائة بيت وسبعة أبيات ، انشدت حسب قول ابن تغرى بردى<sup>(٢)</sup> . على قبر المنصور ، وهى تبدأ كالآتى:

- هل تظن انه يترك الأعمال الجليلة وهو مازال بعد شاباً ، بينما قد بلغ سن النضج؟

وأنشد أبو بكر محمد بن عبدالرحمن الكتندى قصيدة جنائزية يحيى فيها ذكرى أبى سعيد عثمان بن عبدالمؤمن ، حاكم غرناطة ، وكان أهل المدينة ينظمون منها ذلك البيت من الشعر ، بصفة خاصة<sup>(٣)</sup> :

- ذهب المليك وبقيت طيبات الأفعال ، ولكن أين القمر ؟

وإذا كان السخط على ابن رشد قد وجد من الشعراء من يتغنى به ، فإن وفاة الاستاذ الكبير قد وجد الكثير من الزملاء الذين يأسفون عليه شعراً .

(١) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ح ١ ورقة ٢٧١ - ١ : الرعى ، المخطوط ، ورقة ١٨ - ب : ابن الأبار ، النكمة ، ج ٢ ص ٦٧٨ ، القرى ، ج ٢ ص ٦٣٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ، فصلة ، ترجمة ، ص ٩٤ . ويقول المؤلف ان القصيدة هى من عمل ابن مجبر (ت ٥٨٨ هـ) . والمحمل ان يكون هذا الشعر انشأ بمناسبة وفاة يوسف .

(٣) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج ٤ ، ورقة ٤ - ب .

- هل يمكن ان عرف ذلك ؟ هل يمكن لرجل ان يحقق شيئا يريدہ طالما ان الاحداث التعسة تمنعه من ذلك ؟

- لقد ذهب نجم العلوم الذى كانت فصاحته تضىء الطريق وتكشف الاسرار .

- لم اكن اظن انه بعد وفاه أبيك ، إمكانية تحمل مثل هذا الحدث التعس .

- لم اعد اعرف منذ وفاته من الأتعس بعد رحيله : أبناؤه ، أم عصره أم صديقه .

### شعر السخرية:

انشد ابن خروف شعرا فى مدح : أبى عبدالله محمد بن عياش ، كاتب البلاط . ولكنه لما لم ينل إلا مكافأة غير مجزية ، رفض الهدية وانشأ شعرا فى مهاجمة ضعف الراعي ، منه :

- لقد مدحت ابن عياش ، ولكن المكافأة التى اعطانيها ، ذكرتني بأيام التعاسة .

- لقد أعدت اليه عظمته ، وقمت بمسح كل ما كان له فى قلبى .

- سأحاول تجربة حظى فى المشرق لأننى رأيت ان الشمس تزول فى المغرب<sup>(١)</sup> . ولم يتأخر فى الرحيل إلى الشرق حيث لو فى حلب .

### الحب والخمر:

مع الشعر الذى يعالج الحب والخمر ، نشاهد حالة من الحياة الروحية الغربية : فالدين هنا ينبغى ان يترك مكانا كبيرا للحياة المدنية ( حياة الطبقة العالية ، ومجالس الحب والشراب ) التى تذهب أحيانا حدّ اللاإعقول .

فالحب الرفيع ( الملوكى ) كان له هوانه من بين الشعراء . فابو عبدالله محمد

(١) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج ١ ورقة ٢٧٢ - ب .



ابن عبدالعزيز ، كاتب حاكم سبتة على عهد المنصور هو ابو زكريا بن ابي ابراهيم ، كتب النموذج التالى : (١) .

- أيتها الجميلة التى ناديتها لارىك حبيبى ، والسر الذى كنت أكنه فى ضميرى .

- أنا ضحيتك . هل تعرفين ماهو المي والى اى حد أتألم من الشوق  
- ياليتنى لم أعرف الحب ، ولا لحظة واحدة ، فمن التوق غرب نجمى ( لعب  
بالكلمات : هوى : سقط ) .

وعن ابن رشد يذكر ابن سعيد تلك الأبيات التالية :  
- ان العشق لا يشغلنى ولكنى لا أنكره ، فكثير ماتسلىنى ذكرياته .  
- كيف يمكن لرجل فى الستين من عمره ان ينشغل بفتاة صغيرة فى العاشرة  
لدرجة ان يفقد صبره .

- كان قبل ذلك راضيا ومحترما ، وعندما شده الجمال ، أبعدته العفة .  
أما ابو بكر بن عبدالرحمن بن مغاور ، فمناسبة عشق واحد من إخوته  
لإمرأة من بنى بَنِيْقَ ، يصرخ عاليا :  
- أيا بنى بَنِيْقَ ، أوقفوا نظرات غزلانكم الموجهة إلينا ، بماانه لا تثر بيننا  
وبينكم .

- هل سمحتم بذوق عسلكم لكل آكل ، ومنعتموه عن تحله هو نفسه ؟  
ولم يفتقد حب الغلمان بين الهواة من الشعراء . فابو العباس أحمد  
الكساء ، من قرية ما كارينا قرب اشبيلية ، الذى كان قد سمح لنفسه بحب  
موسى بن عبدالصمد ، "ظريف" اشبيلية فى ذلك الوقت ، ألف أشعاراً

---

(١) نفسه ، والمخطوط ، ج ٤ ورقة ٢٧٢ - ب .

جنائزية في ذكرى وفاة حبيبته - الغالى (١) ، منه :

- لقد بدأ دق اجراس حبي الأزلى ، بأعلان وفاة موسى بن عبد الصمد  
وفى شعر آخر يقول :

- لقد ذهبت إلهة الرياض الى جنتها ، لقد طار الجمال عن الأرض

- والآن فالعشاق فى حداد وحزن ، أنهم يبكون البعض على البعض

أما عن التعريف بشعر الخمر ، فلنقف مثلاً عند أبى الحسن رضى بن رضا ،  
وأصله من مالقه ، وهو كاتب أمراء بنى عبد المؤمن حتى عهد الناصر (٢) .  
وكان هذا الشاعر يتعاطى الخمر الى حد أنه كان دائماً فى حالة سكر (٣) ،  
ومن شعره هذا :

- أشرب بحرأ بعد بحر ، وعانق زهرة بعد زهرة

- جول انظارك فى عالم فرح ، فكم من الوقت طال عليك الكدر

- لا تدمن ما تلام عليه ، ولا تقبل الاعذار أبدا .

والى جانب الخمر أضاف أبو بكر عبد الرحمن بن مغاور الزنا والسب (٤) ،  
ومنه :

- الحمد لله . لقد حققنا آمالنا ، فلاعقوة على الشراب ( الخمر ) ولا السماع  
( الموسيقى ) .

- لقد حللها لنا القاضى ( هذه وتلك ) ، وسنشكره مزيداً إذا حلل لنا الزنا  
من هذا العرض ، رغم ما به من نقص ، نستطيع استخلاص عدة حقائق ،  
أولها : السيادة المطلقة للأندلس فى ميدان الأدب . فقد كد الشعراء فى

(١) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج ١ ورقة ٥٤ - ب (المقرى ، مع ٢ ص ١٠٢٢ ، ١٠٥٧ .

(٢) نفسه ، المخطوط ، ج ١ ورقة ١٧ - ب .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ، المخطوط ، ج ٤ ، ص ١٠٢ - ب .

مجملهم من أصل أندلسي ، الأمر الذي يعنى ان الأمر كان لا يتعلق بنهضة مغربية ، ولكن باستمرار عصر الأمراء المحليين المعروف بـ'بملوك الطوائف' . وهذا الافتراض يقويه ما هو معروف من ان الأفكار الأندلسية حقيقة ، هي التي كان يعبر عنها الشعراء ، وهي التي كانت الى ما وراء العدو ( المضيق ) من طرف الى آخر في الدولة الأبراطورية . واذا كان المجتمع الموحدى له تأثيره على الحياة الادبية بفضل أفكاره الدينية الجديدة ، وممارساته السياسية ، الأمر الذي يظهر في الشعر الدينى والسياسى ، فقد كان للمجتمع الأندلسى أصداءه أيضا في الشعر ذى الموضوعات المدنية التي غلبت على التي كانت للموحدين . وهنا لنا ان نتساءل ان كانت الحركة الموحدية قد استطاعت حل المشاكل المعوية والاجتماعية في الغرب الإسلامى . فالاصلاح الدينى والرقابة على الأخلاق العامة التي قررها ابن تومرت والتي تأكدت بصرامة بمعرفة يعقوب ، لا يظهر أنها أتت بثمارها : فالزنا ، والعشق بنفس الجنس ، ومجالس السماع والشراب ظلت مستمرة في الأندلس ، بل وعبرت العدو الى قلب الدولة .

وحقيقة أكيدة ثانية ، وهي ان الشعر كان قد صار فنا من فنون البلاط ، يربط مصيره بمصير الأسرة المالكة ، فباستثناء بعض الشعراء العائرين أو الهواة ، كان معظم العاملين في صناعة الشعر من الموظفين في الدولة بالعاصمة أو الأقاليم . وهكذا فلم يكن هناك شعراء محترفين ، وكان الشعر لا يطعم أصحابه إلا بشكل بائس . وهكذا لم يكافئ المنصور إلا شاعرا واحدا بمناسبة الاحتفال بانتصار الأرك . وابن خروف اليائس من ضعف رعاية الشعر ، كان عليه ان يهاجر ، لكي يموت بحلب . واذا كان الشعراء يدخلون من وقت الى آخر تحت رعاية السادة ( الامراء ) من الموحدين ، فإن هؤلاء الآخرين كانوا مستغرقين في مهام أخرى أكثر ضرورة .

ومن المقبول طبعا انه رغم العدد الكبير من الشعراء في ذلك العصر ، إلا

أنهم كانوا مشغولين بوظائفهم ، يائسين من جدوى رعاتهم الكبار بالنسبة لهم ، فكانوا لا يقدمون أفضل ما لديهم ، وهكذا أصبح في معظمه عبارة عن تركيبات عبقرية من العبارات الطنانة ، والكلمات الفخمة ، والصور المصطنعة ، والاستعارات التي يصعب حل رموزها .

وفي النهاية نشير الى العلاقة التي تربط الانتاج الشعري بالموقف السياسى فى تلك الفترة . فبفضل فترات السلام والأمن ظهر كمية كبيرة من الشعر والشعراء ، كما ظهرت أنواع جديدة من الموضوعات ، فى تلك الفترات الواقعة ما بين قعقة الحرب وضجيج السلاح .

هذه الاعتبارات الخاصة بالانتاج الشعري ستنتفك فى الخواتيم العامة التى سنحاول استخلاصها بالنسبة لمجمل الحياة الدينية والفكرية . وهذا الاتفاق يرجع الى حقيقة ان الشعر بصفته الرابطة المتميزة بين كل المفكرين يمثل كافة الأفكار السائدة وقتئذ ، بشكل تقريبي .

ومن أجل ختام الفصل الخالى ، فمن المناسب التركيز على بعض العلامات التى يمكن ان تظهر لنا مميزة . وهنا نذكر أنه لأول مرة يصبح المغرب مركز نشاط فكرى وضاء ، بفضل حركة التوحيد لآمن تومرت ، التى فجرت أول مشاعلها . ومن غير شك فإن الأندلس ونخبته قامت بدور فائق . ولا شك انه يمكنها الادعاء بأنها اما كانت تواصل القيام بشاغلها التقليدى . ولكنه ما كان يتهيا لها ذلك بدون هيمنة المغرب الذى كان قادرا على تهيئة فترة من الهدوء والاستقرار . وحقيقة ان مراكش (العاصمة) وحليفتها كانت المركز الذى يتجه نحوه التيار العلمى والأدبى ، أمر يؤكد دور المغرب ، ويجعل منه حامى حمى الفكر والثقافة .

أما عن الحركة الفكرية نفسها ، فنلخص بشكل سريع علاماتها المميزة كما نيسب لنا على طول الدراسة التى خصصناها لها . وأول ما نلاحظ هو أهمية

العلوم والأفكار الدينية الراجعة الى طبيعة مذهب التوحيد ، وخاصة الدولة الدينية . ومن ناحية أخرى نلاحظ عدم التخصص فى العلوم والآداب ، وهى العلامة المميزة حقيقة لنسبة كبيرة من النحبة الاسلامية فى العصر الوسيط .

وفى النهاية نحاول توضيح حكم عام على مغزى تلك الحركة .

فرغم هيمنته كان المغرب لا يستطيع ان يملئ مذهبه وأفكاره ؛ فالأندلس كانت تحتفظ دائما بشخصيتها التقليدية . وبسبب ضيق الوقت على ما نظر ، لم يستطع أى من المغرب أو الأندلس الاندماج فى الآخر . ففى وقت كانا تنفقان وتعيشان فى علاقات حسنة ، ولكن لكى يتواجد الاثنان فى وقت آخر ويتصادمان . وكانت الأندلس هى التى توجد أفكارها بعناد لكى تصادم أفكار المغرب ، وبالتالي كان عليها ان تدفع ثمن ذلك العناد .

واذا كان النشاط الفكرى يعبر عن نفسه بوضوح ، فإن الفترة تظهر على الأقل كمعصر انتقالى . فاختلاط التيارات التى لم تستطع الاندماج فيما بينها ، ألم تكن علامة مميزة ؟ ولكنه لو أن الظروف كانت مواتية ، فنحن نظن ان مثل تلك الفترة كان يمكن ان تؤتى ثمارها بعد ذلك بقليل . فربما كانت قد تمكنت من تقديم حركة فكرية موحدة حقا ، كما كان يمكن ان تكون نتاج المعصر الموحدى نفسه ، أو قبل ذلك دولة مغربية - اسبانية ، كنتلك التى كانت قد بدأت فى التكوين على عهد المرابطين . وكان ذلك يمكن ان يكون شيئا آخر غير الذى يعمل به ابن تومرت ، أو يوسف أو يعقوب ، الذين وجهوا النشاط الفكرى كما ارتأوا أنفسهم مثل بقية أعمال الدولة . والحقيقة ، ألم يظهر المصور كانه محور الذى تدور حوله الحركة الفكرية ؟ ألم يملئ فى يوم من الأيام الظاهرية كمذهب رسمى للدولة ، وهو يطارد المالكية ؟ ألم يفرض فى يوم آخر على اليهود اجراءات غير عادية . ومرة أخرى ألم يمنع الفكر الحر ، ويجرم الفلاسفة مرة أخرى لكى يعفو عنهم بعد ذلك بقليل من الوقت ؟

والسؤال الذى يوضع امامنا الآن هو من أجل معرفة إذا ما كان الأمير نفسه متأثراً بصفة عدم الاستقرار فى مجال الفكر ، أم انه هو الذى كان يؤثر فى آخر الأمر ، حسب هواه . والذى نراه أن الحقيقة تكمن فى فكرة التأثير التبادلى . فالاختلاط ، والتردد ، وعدم الاستقرار هى التى أدت الى الاختفاء التدريجى لمذهب ابن تومرت ؛ فكل تلك الأمور - نت تمثل من غير شك المظاهر الأولى لانهايار حركة التوحيد فى المغرب .

## الحياة الفنية

فى المغرب كما فى الاندلس ، بينما كانت القوات الموحدية تتقدم منتصرة ، وهى تفتح الطريق أمام الأفكار الدينية لابن تومرت ، وبينما كان الاستقرار السياسى يسود فى كل مكان ، وازدهار الفلسفة والأدب يدفع جذوره عميقة فى الأرض ، بدأت ترتفع المنشآت المغربية الكبرى ، دات الطابع الموحدى .

وإذا كان المنصور قد قام هنا بدور مهم ، فيجب الاعتراف بما كان من الفضل لسابقه ، عبد المؤمن ويوسف . فالأول بنى جامع تنملل ، بالقرب من ضريح المهدي (١) ، وهو أول معبد موحدى ، مازالت بقاياه موجودة الى الآن . ولقد بنى أيضا رباط تازا (٢) . وتبع الثانى نهج والده ، فبدأ البناء الحقيقى بمدينة الرباط (رباط الفتح) (٣) ، ولكنه اهتم أكثر من ذلك باشبيلية التى بنى مسجدها الكبير (٤) .

(١) القرطاس ، النص ، ص ١٢٦ ، وقارن هـ . ترأس ، معابد وقلاع موحدية (بالفرنسية) ، ص ٢٧ .  
(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٣٥ ، كما وضع الأساسات الأولى لمدينة الرباط . ودمع مراکش العاصمة بطابعه الخاص .

(٣) عبد الواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٤) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ١٦٥ - ١ ، فصل انتونيا (اشبيلية ومبانيها الأثرية العربية) ، ص ١٣٤ وما بعدها (القرطاس ، ص ١٣٨) . ان يوسف هو الذى جعل من اشبيلية مدينة كبيرة . فقد أعاد بناء أسوارها من جهة النهر ، عندما تهدمت سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م بسبب الطوفان (الميضاد) وفى سنة ٥٦٦ هـ أقام فى المدينة ، وأبشأ جسرا على الوادى الكبير لاستخدام أهلها وكذلك أهل الشرق (ضاحيتها) الذين يستطيعون عبوره دون دفع المكس -

ولكنه رغم ما كانا عليه من كونهما بنائين ، فإن هذين الأميرين كان عليهما ان ينخسفا أمام خلفهما المنصور (١) . فإليه تنسب أكبر البنايا الخاصة بالدولة المؤمنية . ومن بين العمائر التي بقيت من العصر الموحدى ، ثلاث منائر شهيرة هي : الكتبية بمراكش ، وبرج حسن بالرباط ثم برج الجامع الكبير باشبيلية ( الخيرالدا حاليا ) ، وهي تتشابه فيما بينها بشكل ملفت للنظر . ومن هذا التشابه ظهرت فكرة ان الأبراج الثلاثة ربما كانت "إخوات" ، وربما بنيت فى وقت واحد ، على يدى نفس الأمير ( الذى ربما كان المنصور ) ، وبمعرفة نفس المهندس ، وهو من يطلق عليه اسم 'جابر' (٢) . وذهبت القصة فى مداها حتى نسبت بناء كل من جامعى الرباط واشبيلية الى المنصور (٣) . ولكنه أمر لا يصدق ان تنسب كل هذه الثروة المعمارية الى يعقوب ، مهما وصف بأنه من كبار البنائين ، من حيث ان عهده الذى لم يتجاوز الخمسة عشر عاما كان مليئا بالحروب . هذا ، كما ينبغى الا يغيب عن الذهن ان بناء كل واحد من تلك العمائر الثلاث - كما هو الحال بالنسبة لكل العمائر العظيمة - كان وثيق الصلة بالأحداث التاريخية .

ماذا كانت اذن مساهمة المنصور ؟ إن غياب كل الأعمال الاصلية الخاصة بالعصر مما يختص بالفن تجعل عمل مؤرخ الفن فى هذا المجال ، من أصعب الأمور . والمهم أننا سنحاول رغم ذلك ، بإلقاء الضوء هنا على دور أميرنا الحقيقى ، اعتمادا على المعلومات المتفرقة هنا وهناك .

- وايضا لمرور العساكر وبى أيضا حصورا أخرى حول المدينة وجلب الماء فى قناة (ساقية) ، وبى نفعية ، وقوى ابواب المدينة من جهة النهر ( الوادى ) لمواجهة آثار الفيضان ، كما بى قصورا فيها وراء باب جهور (قارن . ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٠ ، ١ - ١٦٠ - ب ، وفصله انتونيا ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(١) قارن ، ف . ليربول ( Ferriol ) ، ضرائب تنمل ، هسبيريس ، ١٩٢٢ ، ص ١٦٣ .

(٢) انظر جيربور دى برانجاي ( De Pergey ) ، محاولة عن العمارة العربية (بالفرنسية) ، ص ١٠٣ ؛ أ.ف. كالفير ( Calvert ) ، بقايا عربية بالاندلس (بالإنجليزية) ، ص ٣٧١ ، هـ . تيراس ، الجامع الكبير باشبيلية ، ذكرى هـ . باسية (بالفرنسية) ، ١٩٢٤ ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٣) القرطاس ، ص ١٥١ ، والترجمة ، ص ٣٢١ .



فأصل الكتبية يرجع الى أيام المرابطين . وفي كل مرة كان أمير مغربي يستطيع اقرار فترة من السلام والامن النسبي ، كان الجامع يصبح موضعاً لأعمال حديدة ، من : التوسعة ، والتحديد ، والترميم أو الهدم واعادة البناء من جديد ، حسب مقتضى الأحوال . وهكذا فبعد أن أنشئ في المدينة جامع كبير واسع ، أضاف إليه عبدالمؤمن حسب صاحب الاستبصار في اتجاه القبلة بناءً له نفس القدر وأكثر ، وذلك في موضع قصر قديم (١) . والى جانب هذين المبنيين ، قرر بناء ذلك المنار الضخم الذي لا نظير له في بلاد الاسلام ، وان ابنه يوسف هو الذي أكمله (٢) . هذا بينما ينسب صاحب القرطاس تلك المئذنة (الكتبية) إلى يعقوب (٣) . وذلك في الوقت الذي لا يقدم الاستبصار أية اشارة الى ذلك . وهنا ننظر فيما إذا كانت معلومات ليون الافريقى (الحسن الوزان) يمكن ان تقدم لنا وسيلة للخروج من هذا المأرق . فتبعاً لمعلومات ذلك المؤلف ، وسع المنصور ذلك الجامع بمقدار ٥٠ (خمسين) ذراعاً من كل جانب ، وزينه بعدد من العمود الجميلة التي نقلت من الاندلس . كما أمر بحمر صهريج واسع له نفس مساحة الجامع وأمر بتغطيته بالقباب (٤) . وفوق ذلك فقد أمر باقامة برج من الحجر المنجر ، قياساته واسعة أشبه ببرج الكوليزيه (Colisee) في روما (٥) . واعتماداً على تلك الرواية ، يمكن لنا ان نستخلص أنه اذا كان الجامع ومنارته قد بنيا بمعرفة عبدالمؤمن واكتملا على عهد يوسف ، فإنما كانت فقط موضع توسعة وأعمال ترميم على عهد يعقوب .

أما عن جامع اشبيلية الكبير فله تاريخ مشابه وان كان أكثر حداثة وأقل تعقيد . وابن صاحب الصلاة يعطينا معلومات تفصيلية عن تاريخ بنائه .

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٠ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٣ ، الخلل ، ص ١١٤ هـ نراس ،

معابد وقلاع موحدية ، ص ١٠٣ .

(٢) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨١ .

(٣) القرطاس ، ص ١٧٩ .

(٤) ليون الافريقى ، نشرة شيفر (Schefer) ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٥) نفس المصدر .

فبعد استقرار الموحدين فى اشبيلية ضاق جامع المدينة وقتئذ ( جامع عَدْبَس )  
عن استيعاب المصلين الذى اضطروا الى الانتشار فى المجنبت الصغيرة  
وفى الأسواق ( المجاورة ) (١) . ولكنه فى شهر رمضان من سنة ٥٦٧ هـ  
/ مايه ١١٧١ م (٢) أصدر يوسف الأوامر بالبدء فى بناء جامع جديد . واختار  
فى داخل القصبة موقعا لبناء المعبد ، حيث هدم كثير من البيوت . . وعهد  
بالعمل الى رئيس العرفاء ( المعمارين ) أحمد بن باس ، الذى كان يساعده  
عدد من البنائين العرفاء ، من الأندلسيين ، ومن مراکش ، وفاس ومنطقة  
العدوة ( المضيق ) . وشارك فى العمل اعداد ، من صناع "السقالات" الخشبية  
، والتجارين ، وعمال اليومية والصناع ، وبالحساب اتضح انه ينبغى ان يكون  
عمق الأساسات اكثر طولاً من ارتفاع البناء . واستخدم فى البناء الحجر  
والطابية ( الجدران المصبوبة ) والملاط ( المونة ) .

والى جانب أحمد بن باس ، كان أبو داود يلول بن جلداسن ، من رجال  
البلاط الخلفى ، يشرف على نفقات البناء . وفى بعض الأحيان كان أبو بكر  
ابن زهر وأبو بكر البنيافى يسند اليهما هذا الاشراف ، بمساعدة عبدالرحمن  
ابن مروان العنسى ، الغرناطى أصلاً . ولكن هذا الأخير لم يكن أميناً فعزل .  
وعندئذ عهد بالاشراف المالى الى أبى داود ، يساعده من يسمى ابراهيم الدبّاغ  
مع مشاركة ابن زهر .

وكان اسفل المعبد صهريج قديم فحول مجراه نحو الصحن . وأظهر عرفاء  
البناء حماسة شديدة فى تفصيل قبة المحراب وبنائها . وظهروا مهارتهم فعلا  
فى بناء القباب وفى عمل الجص . وفى جدار المحراب ، على اليسار ، كان هناك  
ساباط ( ممر مسقوف ) مخصص للأمير ، يربط ما بين القصر الملكى والجامع .  
وفى الحائط وعلى يمين المحراب ، كان هناك ما يشبه الحجرة المسقوفة بقبة ،  
بنيت خصيصاً لتكون مأوى للمنبر ، والتى كانت رقيقة تثير الإعجاب .  
وكان المنبر مطعماً بالخشب الثمين المنقوش ، وبالعاج وصفائح الذهب  
والفضة .

( ١ ) ابن صاحب الصلاة : المخطوط ، ورقة ١٦٥ - ب ، والفصلة ، ص ١٣٤ .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٦ - ب ، والفصلة ، ص ١٣٥ .

وكانت المقصورة ( الملكية ) مصنوعة من العود ( الخشب ) الثمين . وكان الخليفة بنفسه وبمعاونة أخيه : السيد أبى حفص ، يشرف على العمل وعلى توزيع « البركات » ( الأجور ) . وفى اليوم الـ ١٤ من شعبان سنة ٥٧١ هـ / ١٧ فبراير ١١٧٥ م ، وهو يوم انتهاء الأعمال ، أمر أمير المؤمنين بصرف العرفاء من المهندسين والبنائين ، وكذلك بقية الصاع . وهكذا استغرق العمل ثلاث سنوات وأحد عشر شهرا هلاليا (١) . ويؤكد المؤلف ان العمل استمر بدون انقطاع على مدى فصول السنة (٢) . ورغم ذلك فالظاهر ان الأمر لم يكن كذلك ، فبناه علي ابن صاحب الصلاة نفسه ، أن افتتاح المسجد الكبير نفسه كان في سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م أى بعد ست سنوات من التاريخ السابق . وفى شهر ذى الحجة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م كان السيد أبو اسحق ابراهيم ، ابن الأمير وحاكم اشبيلية عائداً من زيارة والده بمراكش ، وبهذه المناسبة وتبعاً لأمر الخليفة أقام صلاة الجمعة بالمسجد الكبير . وعندئذ رفع منبر الجامع القديم لابن عبدس ، والتي كانت مقصورته قد رفعت فى شهر شعبان ٥٧٠ هـ / فبراير - مارس ١١٧٠ م . وكان أول خطيب هو أبو القاسم عبدالرحمن بن عفير البلى ، الكاتب فى خدمة السيد الوالى (٣) .

ان السطور السابقة رغم أهميتها ، لا تمثل إلا مقدمة لتاريخ المنارة ، أى الي ما يتصل بموضوعنا مباشرة . وعندما عرض ابن صاحب الصلاة الى هذا الموضوع ، بدأ بالتغنى بمدائح المنارة الكبيرة : "الصومعة" . فهى لا نظير لها فى أى مسجد بالاندلس . وهى مبنية بالطوب ، لها شكل عجيب ، كما اشتملت على مستجدات ملفتة للنظر . وهى ترتفع عالياً فى السماء حتى

(١) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٧ - ب ، والفصلة ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٧ - ب ، والفصلة ، ص ١٢٩ ، حيث يقول المؤلف ان الجامع تم فى عدة سنوات .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٠٨ - أ ، الفصلة ، ص ١٥٧ .

أنها ترى على بعد مرحلة من اشبيلية . وقد تم بناؤها بناء على أوامر الخليفة عندما حضر الى اشبيلية في ١٣ صفر ٥٨٠ هـ / ٢٨ مايه ١١٨٤ م ، عند حملته على شنترين . فلقد استدعى ابا داود يلول بن جلداسن ، وأمره بالبدء ، أثناء الحملة - ببناء أسوار القصبة ، وإنشاء برج للجامع يربطه بتلك الأسوار (١) .

وبدأ أبو داود بهدم المنازل في المكان المختار تبعا للخطة المرسومة ، ثم انه حفر الأساسات للأسوار . ولكنه للأسف فإنه مات بعد شهر واحد ، تبعه الخليفة بعد ذلك بقليل (٢) . وعندما أعلنت خلافة أبي يعقوب ، لم ينفذ بنفس الدقة مشروعات أبيه الذي توفي أمام شنترين . فقد أصدر الخليفة الجديد أوامره الى محمد بن مروان ، الفرناطي أصلا ، والذي حل محل أبي داود ، بصرف النظر عن بناء الأسوار ، والاستمرار في بناء المنارة . وبعد حفر الأساسات بجوار المسجد ، عثر المهندس العريف : أحمد بن باسه على بئر طماه بالحجارة والجير ، ورصفه حتى تتأكد مقاومة الأساسات . وكان المشرف على المصروفات هو أبو سعيد محمد . وبنى العريف المهندس القسم الأسفل بالحجارة المعروفة « بالحاجون » التي أخذت سور قصر بن عباد القديم . واستعاض عن درجات السلم المعتاد بطريق محني انحناء لولبيا خفيفا لاستخدام دواب الركوب ، والرجال ، والحراس وبعد عدة أشهر عزل أبو سعيد المشرف على النفقات ، وتوقف العمل الى أن حضر من مراكش أبو بكر ابن زهر ( ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ) . وبناء على تعليمات الأمير ، أعطى ابن زهر الأوامر بالعودة الى العمل من أجل إنهاء بناء البرج ، وإصلاح الأجزاء من الجامع التي كانت قد أصابها الشروخ . وهكذا بدأ على الغماري ، المهندس العريف ،

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، والمخطوط ورقة ١٦٨ - ١ ، والفصلة ، ص ١٣٨ .

(٢) نفس المصدر .

العمل ، فرمّ الأروقة الثلاثة التي كانت قد هدمت جزئياً في الجانب الغربي ، وفي الوسط ، وأسسها وقواها . فمن جهة الغرب بنى من الخارج مسنداً مرتفعاً كما كسى البرج بحجارة الكُندان . وفي السقف المبنى بشكل افقى بالطوب فتح نوافذ مكسوة بالزجاج للإنارة المباشرة في بيت الصلاة . واستمر العمل لعدة سنوات . ولما كان أبو بكر بن زهر قد ذهب الى مراکش لدى الأمير ، فإن العمل توقف لحين عودته الى اشبيلية لأنه كان قد اعتاد ان يشرف بنفسه على البنائين .

وعند عودة الأمير من موقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، أعطى الأوامر ببناء الأسواق حول الجامع ، وان يرفع فوق الصومعة مجموعة من الكريات ( تفافيح ) المتتالية المصنوعة من المعدن المذهب هذه التفافيح أثارت اعجاب ابن صاحب الصلاة . فلقد رفعت فوق الصومعة في حضور الأمير . وكان الاحتفال بذلك في يوم ٣٠ ربيع الثاني من ٥٩٤ هـ / ١٠ مارس ١١٩٨ م . وفي هذا اليوم أتى المهندسون لكى يغرسوها في القضيب الحديدى الذى ثبت مسبقاً في قمة المبنى ، والذي كان يزن ١٤٠ ريعاً من الحديد . وان تذهب الكريات الأربع ( ٣ ثلاثة كبيرة وواحدة صغيرة ) كلف مبلغ ٧٢,٠٠٠ ( اثنين وسبعين الفا ) مثقال يعقوبى . وكانت التفافيح قد كسيت بالقماش حتى لا تتسخ بالأيدي أو بالتراب ، ونقلت على عجل حتى المنار وسط فرحة حموع التي كانت فرحتها بالحمد لله والشكر . وعندما رفعت الكسوة عنها ، برق الذهب بشكل أغشى العيون (١) . أما عن الأسواق فتطبت البدء بأعمال

( ١ ) وهنا لا بأس من ذكر رواية صاحب القرطاس . فهو يروى ان لتفافيح كرت من كبر بحيث ان الوسطى منها لم يمكن ادخالها من باب المؤذن الامر الذى دعا الى هدم جزء يسمى المرحم من الباب . وكان سطور الحديد الذى ركبت عليه التفافيح يزن وحده ٤٠ ريعاً . أما الصانع الذى أنشأ التفاحات والذي علقها في رأس الصومعة ، وهو رجل يسمى . ان ثبت صقلى فقد استخدم من أحل تذهيب التفافيح ، مبلغ ١٠٠,٠٠٠ ( مائة ألف ) دينار من الذهب ( ص ١٣١ ) والترجمة ، ص ٣٢٢ .

توسعة في المنطقة المحيطة بالجامع . وهكذا هدمت المنازل ، والدكاكين والفنادق المجاورة ، في ٧ من ربيع الأول سنة ٥٩٢هـ / ١٠ فبراير ١١٩٦م ، وذلك بعد تعويض أصحابها . وبنيت الاسواق الجديدة والدكاكين ، وأحيطت بسور مربع مواز للجامع ، ولهائ ( أربعة ) أبواب ، واحد في كل جانب . وعندما تم البناء نقلت اليه أسواق العطاري ، والقماشين والخياطين .

وكما رأينا سابقا فحن نثق في رواية ابن صاحب الصلاة المفصلة . وهكذا يمكن ان تحتتم بشيء من التأكيد انه إذا كان الجامع ومشروع بناء المنارة يرجعان إلى يوسف ، فإن الصومعة نفسها والترميمات العديدة التي أحدثت بالمسجد ترجع الى يعقوب المنصور .

أما عن جامع حسان فهو يمثل لنا عملا خاصا بـيعقوب وحده . وفيما يتعلق بانشاء مدينة رباط الفتح ( الرباط العاصمة ) ، التي لم تكن أصلا إلا موضعا لحشد الجيوش للحملات العسكرية في الأندلس ، فهي وثيق الصلة بالأحداث الأخيرة . وهذه دارت أولا في بلاد برغواطة في حياة عبدالمؤمن ، ثم في الأندلس حيث كانت موقعة الأرك أسعد المصادفات . وبوصف مدينة الرباط ( رباط الفتح ) ثغراً جهاديا مع جامعها الكبير ، لم تعد المدينة أكثر من نذر يقدم رمزاً لوجه الله ، وعلامة شكر على ما أنعم به من العون الذي آزر به يعقوب ، ودليل على التدين الإيجابي والمقاتل لبطلنا الموحدي (١) . فبعد عودته من الأندلس ( ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ - ١١٩٧ م ) كان بدء العمل في تأسيس « رباط الفتح » ، إذا أخذنا برواية صاحب القرطاس (٢) . ولكنه إذا أخذنا في الاعتبار مؤلفين آخر من أهل الثقة فيمكن إجراء بعض التعديلات

---

(١) قارن ح مارييه ، هامش على الأريطة في بلاد البربر ، منوعات هـ . باسيه (بالفرنسية) ، ١٩٢٥ ، ص ٤١٢ .

(٢) القرطاس ، ص ١٧٠ ، والترجمة ، ص ٢٢٣ وما بعدها .



على هذه الرواية . فبداية رباط الفتح ترجع فى الحقيقة الى عبدالمؤمن . فلقد كانت وقتئذ معسكراً للموحدين ، وبناء المدينة نفسه يرجع الى يوسف . فحسب عبدالواحد حقيقة ، فإن تخطيط المدينة ورسم حدودها تمت على عهد يوسف الذى بدأ العمل ، ولكن المنية لم تمهله ليكمل ما كان قد بدأه . وهكذا كان ابنه هو الذى تابع العمل البناء وأكمل الأسوار . وبعد ذلك بنى يعقوب جامعاً عظيماً ذا قياسات غير عادية . وكانت عليه منارة بالغة الارتفاع لها طريق لولبى ، تمكن دواب الحمل من الصعود بالطين والطوب والجير حتى أعلاها . ولكن الجامع ظل غير كامل حيث توقف العمل فيه بوفاة يعقوب . وعلى العكس من ذلك فإن المدينة بتحصيلاتها كانت انتهت على عهد المنصور (١) .

وهناك حدث أكيد ، وهو ان بناء الجامع ومنارته متقدم على بناء المدينة ، وهذا الأمر يسمح باعتبار سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ - ١١٩٧م (٢) ، كتاريخ لانتهاء من بناء أسوار المدينة ، وبداية لبناء الجامع والصومعة .

### **السمات العامة للمنارات الثلاث، بمراكش، واشبيلية، والرباط،**

يظهر للموهلة الأولى أن الكتبية ومنارته لا تدخلان فى إطار دراستنا من حيث نسبة بنائهما الى عبدالمؤمن ويوسف . وبناء على ذلك لا يكون من المناسب إلا معالجة المارتين (الصومعتين) المنسوبتين الى يعقوب ، وهما الخاصتين بكل من اشبيلية والرباط . ومع ذلك فمن حيث ان الثلاثة تكون مجموعة منسجمة فيما بينها ، فإن ذلك يمنع من أية محاولة للتفرقة بين الواحدة منها والأخرى ، وهنا لا ينبغى نسيان الرواية التى تنسبها جميعاً الى

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٢) القرطاس ، ص ١٧٩ ، والترجمة ص ٣٢٣ .



مهندس بقاء واحد (١) . وهكذا لا يكون من غير المناسب إلحاق الصومعة الأولى بالاثنتين الأخريين .

وفي نظرنا ان شهرة المنارات الثلاث ترجع بشكل عام الى كونهما من أعمال الفن الحقيقية ، والعالمية التي تتفق مع القواعد العامة للجماليات المعمارية ، من : الأصالة ، وروح التضحية ، والحقيقة ، والقوة ... الخ (٢) . وعن طريق هذه الانية الثلاث نصل الى مرحلة ثورة فنية ، ليس في الحقيقة الا نتيجة طبيعية للثورة الدينية والاجتماعية التي قام بها الموحدون . وهذا ما تفسره القياسات الكبيرة لمعابد ذلك العصر . فتذوق المنصور للأبنية الضخمة ، وحاجة الانصار من الموحدين أو من العساكر المقيمين بأعداد وفيرة في مراكز العاصمة ، أو المتجمعين في الرباط ، موضع الحشود العسكرية ، أو المحتشدين في اشبينية من أجل الجهاد ، كل ذلك كان استجابة لضرورات أوجدتها الثورة الدينية . وهكذا فعلى عكس المعابد الكبرى في العصور السابقة ، مثل جامع قرطبة الذي تم بناؤه ببطىء وبطريقة صعبة على طول حكم أسرة ملكية بأكملها على طول العديد من السنين ، فإن المعابد الموحدية بنيت دفعة واحدة حسب برنامج مُقرر سلفاً .

ففي هذه الصفة المشتركة أولاً وقبل كل شيء ، تكمن أصالة الأبراج الثلاث . ثم ان مايفت النظر بقوة بعد ذلك ، هو الاندفاع نحو السماء ثم الشكل المربع أو المكعب ، الذى سيصبح الشكل التقليدى ، لطراز المنارة المغربية - الأندلسية ، وبرج الناكوس - المنارة الاسباني . وإذا كان الانطلاق نحو السماء يدخل فى صفات العظمة الراجعة الى الثورة الدينية الموحدية ، فيجب الاشارة الى ان الابراج الثلاثة اقتبسوا من غير شك كلهم المربع من

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢٧١ وهامش ٢ .

(٢) انظر ، راسكون ، مصابيح العمارة السبع ( الترجمة الفرنسية ، ١٩٣٠ م ) .

المباني القديمة السابقة . فمن المحتمل ان يكون طراز المنارة المربعة قد جلب الى افريقية من دمشق ( ٧٠٧ هـ / ١٢١١ م ) منذ أيام الأمويين (١) . وأول نموذج نُقِدَ في افريقية هو منارة جامع القيروان (٢) . وعن طريق افريقية دخل النموذج الى اسبانيا ، حيث تم اقتباسه في شكله الاسلامي في كتالونيا وفي الروسيون ، ومن هناك انتشر في فرنسا وفي الولايات الريفانية (٣) . ورغم ان هذا الشكل كان قد اقتبس منذ وقت مبكر من إفريقية ، فهناك رأى يميل الى ان الموحدون الأوائل اقتبسوه عن طريق الأندلس بعد ان كان قد تأقلم في شبه الجزيرة . وهنا يصبح جامع قرطبة الكبير هو النموذج بالامتياز الذي حاول الموحدون جهدهم ان ينشئوا له مثيلاً . وهنا يمكن التأكيد على ان منارة جامع قرطبة الكبير ، بفضل قامتها المشوقة ، تمثل النموذج الأصل للأبراج الثلاثة التي ترجع الى النصف الثاني للقرن الثاني عشر (السادس الهجري) . ومع ذلك فعبد الواحد ، يقرر ان المنصور أراد ان يجعل من صومعة الرباط قرينا لمنار الأسكندرية القديم (٤) . وهنا يحسن التساؤل عما إذا كان لذلك التأثير هو الآخر اعتباره المقبول .

وهنا تستحق خاصية وجود مطلع منحدر لولبي الشكل مجموعة على

(١) انظر ديولافوا ، مجموعة فن واحد (Dieu La Foy ArsUna) ، اسبانيا والبرتغال (بالفرنسية) ، ص ٣٥ .

(٢) فكري (أحمد) ، مسجد القيروان الجامع ، ص ١٢ .

(٣) ديولافوا ، مجموعة فن واحد ، اسبانيا والبرتغال (بالفرنسية) ، ص ٣٥ .

(٤) المعجب ، ص ١٩٢ - حيث كان منار الاسكندرية موضع اعجاب المعارة الذين سمحت لهم الظروف بريادة الاسكندرية في ذلك الوقت . فقد كان مربع الشكل ، مرتعاً في الهواء بشكل مثير ، ولم يكن له درج بل منحدر لولبي يسمح لقارسين بالصعود سويًا فيه الى القمة . وانظر ابن جبير ، ص ٤١ ، الاستبصار ، المخطوط ورقة ٤٣ س وما بعدها .

قبوات بدلاً من الدرج ، ان تكون سعة أصالة لا شك فيها . هذا ، ولو ان  
جيرو دي برانجي ( Girault de Prangey ) ينكر تلك الأصالة على المهندسين  
الموحدين ، ويريد ان ينسبها الي العبقريّة البيزنطية (١) . ولكننا في ذلك  
الوقت نكون بعيداً عن ذلك العصر الذي كان فيه على الفن الاسلامي ان  
يقتبس عناصره من فارس أو من البيزنطيين ، فهو الآن ( في القرن الثاني عشر /  
٦ هـ ) في مرحلة النضج الكامل ، وأنه كان الذي يؤثر على العكس ، بدوره ،  
على فن البلاد غير الاسلامية ، مثل : اسبانيا المسيحية ، وفرنسا وكذلك  
ايطاليا . وكل الظواهر تدل على ان هذا الابتكار الأصيل كان ابتكاراً موحدياً  
خالصاً ، نابعا من حاجات الموقف الآني الضرورية . فكان الحاجة الى ان يتم  
النقل الى أعلى ، الى مسافة أكثر من ٦٠ ( ستين ) متراً ، مواد البناء ، من :  
الحجارة والطوب والملاط - فضلاً عن التفافيح - هي التي مثلت مشكلة كان  
من الضروري البحث لها عن حل بأى ثمن . وهكذا كان السبيل الى اختراع  
ذلك الطريق المنحدر في شكل لولبي ، والذي كان يسمح للعمال ولدواب  
الحمل بالوصول بسهولة الى الجزء الأعلى من بدن الصومعة ، حيث الشرفة .

### صومعة اشبيلية :

ومنار اشبيلية يحمل حالياً اسم الجيرالدا ( Giralda ) بمعنى الدوّارة -  
سنة الى منحدر الصعود اللولبي أو الحلزوني - وهو يقف حالياً على يسار باب  
القضبان ( بويرتادي لوس بالوس : Puerta de Los Pols ) ، على الواجهة  
الشرقية للكتدرائية التي يكون برج القوس فيها . ويندفع البرج العظيم عالياً  
نحو السماء الى ارتفاع ٩٣ ( ثلاثة وتسعين ) متراً ، إذا أخذنا في الاعتبار أن  
هناك حوالي مترين مغروسة حالياً تحت الأرض نتيجة لارتفاع الأرض في  
الخارج على مرّ العصور . ومن السهل ملاحظة ان المبنى الأثرى الحالي ينقسم

(١) ج. دي برانجي ، محاولة لدراسة العمارة عند العرب ( بالفرنسية ) ، ص ١١٠ .

الى جزئين ، يمثل الجزء الرئيسى منهما المبنى الموحدى ذا الطراز العربي . وارتفاعه ٦٧ ( سبعة وستون ) متراً من سطح الأرض الى الشرفة ( عند السطح ) أما الجزء الآخر حيث الأجراس ، والذي لا يتفق طرازه للأسف مع العمارة الاسلامية ، فهو حديث . وهو يرتفع من السطح الى القمة لمسافة ٣٤ ( اربعة وثلاثين ) متراً . والبناء الموحدى مصنوع من الطوب ، وهى مادة البناء المفضلة فى الأندلس ، سوى الجزء الأسفل الذى يتركز على أساسات صلبة من كتل الحجارة ، الآتية حسب رواية ابن صاحب الصلاة ، من أسوار قصر ابن عباد القديم (١) . والمحمتمل ان تكون كتلا من الصخر من قصر قديم ، من حيث جرت العادة على استخدام مواد المباني الأثرية القديمة ، من : الحجارة والاعمدة فى انشاء المباني الاسلامية ، من : المساجد والقصور والتحسينات . والجزء من حجارة الأساسات يرتفع الى حوالى مترين ونصف المتر .

وعلى عكس المنارات المغربية السابقة، مثل ، القيروان والزيتونة ، التى ترتفع وهى تضيق من أسفل على أعلى ، فإن عرض صومعة أشبيلية ، وهو ١٥ ( خمسة عشر ) متراً هو نفس القياس من أسفل كما فى أعلى حتى شرفة السطح . وهنا ينبغى ملاحظة ان سمك الجدران الخارجية الذى يعادل ٢ ( مترين ) عند مستوى سطح الأرض ، يزداد سمكا مع الارتفاع الى أعلى ، بحيث تكون المسافة الداخلية بين الجدران فى أعلى المنارة أقل منها عند القاعدة ، وهو أسلوب رفيع فى البناء مبنى على حسابات دقيقة تضمن ثبات البناء واستقراره (٢) . أما عن وسط البرج فتشغله نواة ، عبارة عن كتلة مكتنزة من البناء ، ترتفع دفعة واحدة الى أعلى دون اختصار فى السعة أو زيادة ،

(١) الى بالإمامة ، مخطوط ، ورقة ١٦٨ - ب ، ١٦٩ - ا ، والفصل ٤ ص ١٣٩ .

(٢) جيرو ، محاولة لدراسة العمارة عند العرب ، ص ١٠٥ ج . مارسيه ، مجمل الفن الاسلامى ، ص ٣٣٧ ، ب . ا . بلاى ( F.A.Pleye ) ، المجمل فى تاريخ اسبانيا ( بالاسبانية ) ، ج ١ ص ٩٧٩ .

وهي تقوم بدور الكتف الذى يسند الجدران الأربعة الخارجية عن طريق ٣٥ حدة ترتفع حتى السطح . والحدرات محمولة على نوع من القبوات المضلعة بالطوب والتي تصل ما بين الجدران الخارجية والسواة الوسطى لزيادة صلابة البناء . وفى داخل النواة الوسطى حفر ٧ غرف متوالية بعضها فوق بعض ، وهي مسقوفة بنوع من القبوات المضلعة بالطوب على شاكلة قبوات الحدرات المحيطة بالسواة الوسطى . وهي ليست مكسوة برحارف غنية مثل تلك الموجودة بالكتيبة .

### الزخرفة:

كما هو الحال بالنسبة للخطة المعمارية الخالصة ، فإن صومعة اشبيلية تقدم لنا فى تخطيطها الزخرفى النموذج لواحدة من أجمل مجوهرات العمارة الاسلامية . فهي على عكس المنارات السابقة الظاهرة القناعة المقصودة (١) ، تكشف عن رغبة فى الثراء والتنوع الزخرفى . فإذا كان المبنى يمثل وحدة من وجهة النظر المعمارية ، فإننا نلاحظ على عكس ذلك أربع طبقات زخرفية افقية ، بعضها فوق بعض ، وهي مقسمة من جهة أخرى الى ثلاث مناطق رأسية من أعلى الى أسفل . وهنا نجد الزخرفة تغلب على الفراغ ، وهي انداع موحدة جديد ، وان كان لا يتفق تماما مع مذهب ابن تومرت الذى يدعو الى السساطة (٢) .

والشاك أو السافذه يمثل الوحدة الزخرفية بالامتياز على أوجه البرج الأربعة وهو مفرد أو مزدوج ، ثلاثى أو نصف دائرى ، متجاوز أو منكسر ، مقرنص أو غير مقرنص ، والنوافذ تمثل كتلا من الظل ضرورية للتوازن مع كتل الضوء الساقطة على الواجهة ، وتعطى القوة للبناء . وفى رأينا ان الطابق الزخرفى

(١) احمد فكري ، المسجد الجامع بالقبروان ، ص ١٢٣ .

(٢) هـ. بتراس ، معابد وحصون موحدة ، ص ١٨ .

الأول يبدأ من سطح الأرض ويرتفع الي منتصف البدن . وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار النوافذ التي تمثل العناصر الزخرفية الوحيدة ، فإن هذا الجزء من الصومعة يظهر متوازعا ، ويعبر عن تقشف جدير بالموحدين . ومع ذلك ، فإذا كان ذلك التقشف يركز جزئيا على فقر في المادة الزخرفية ، فهو يكون مع الأجزاء العليا ، المشغولة بشراء ، مجموعا جماليا من عناصر مختلفة ، لا يؤثر أبداً على استمرارية السطحية والتكرار . والواجهات الأربعة تركز تقريبا على تصور واحد . ولكي نأخذ فكرة من ذلك التصور ، فلنأخذ الواجهة الشرقية مثلا ، فهي التي تلفت النظر للوهلة الأولى عندما يتجه الزائر نحو مدخل البرج . فالنوافذ تشكل هنا لوحات من التقويسات المختلفة الرائعة المنظر . وفي قاعدة اللوحات تظهر ثلاث نوافذ مستطيلة الشكل مفتوحة على نفس المستوى وسط المناطق الرأسية ثلاثة عقود مفصصة ( خمسية ) . وفوق ذلك توجد لوحة تشتمل على عقد مفصص منكر يحيط عقدا آخر من نفس الطراز ، ويحيط على عمودين صغيرين من الممر لهما قامة رشيقة ، ويتوجهما راسان منحوتان بعناصر هندسية . والجميع ، من : الفتحات أو السوف ، والعقد المحيط ، والاطار تبرز وسط إطار مستطيل ، والمجموعة تشكل لوحة زخرفية أسفل لوحة أخرى تحيط بفتحتين توأمتين في شكل عقد مفصص منكسر . وتعلو النافذتين عناصر زخرفية من الملائم المشبك . وننتهي رحابة هذا الطابق بشباك معزول وحده ، مكون من عقد حدودي يقع داخل إطار مستطيل والطابقان التاليان متماثلان ، فليس الواحد منهما إلا تكرار للآخر . والنوافذ هنا تشغل المنطقة الوسطى ، بينما المطفقتان الجانبيتان مشغولتان بزخرفة هندسية من المشبكات . والمنطقة الوسطى مزينة بلوحتين من الأقواس الصغيرة المتراكبة ، وكل واحدة منها تحوي فتحتين توأمتين قوسيتين متجاورتين ، يحيط بهما قوس مفصص بكسور ، يظهر مرتفعا بعض

الشيء في الاطار المستطيل للوحة . والزخرفة الهندسية في شكل المشبك من المنطقتين الجانبيتين تنزل على قوسين توأمين صغيرين ، وهميين ، في شكل عقد مفصص . والعقدين الصغيرين ينزلان بدورهما على ثلاثة أعمدة رشيقة من المرمر ، تيجانها منقوشة بزخرفة هندسية .

والطابق الزخرفي في الرابع أشبه بشريط أو افريز وعنصره الأصلي هو زخرفة الأقواس الصغيرة المسطحة التي يعلوها افريز من الملاط في أشكال مشككة .  
والوفاذ في الواجهات الأربعة ذات فتحة واحدة أو فتحتين ، وهي للأسف ليست مفتحة على نفس المستوى الأفقي ، إذ ان مستواها المتدرج يبين من الخارج مسار الحدرات الداخلية ، وهي مع ذلك متنوعة الشكل ، وذات أصالة أكيدة .

أما شرفة السطوح فكانت ينبغي ان تزخرف كما هو المعتاد بتاج من العرائس المسننة . وهذه الزخرفة كانت من غير شك على نسق حائط الصحن الذي مازال قائما بأكثافة الساندة .

وكما هو الحال في الكتبية ، فإن البدن الرئيسي للصومعة يعلوه نوع من البرج المربع أقل اتساعا وحجما ، يرتفع الي عشرة أمتار وهو ينهي المبنى .  
وفوق هذا « الجوسق » الأخير يقف السفود الحديدي رافعا كرات « التفافيح » .  
والحقيقة انه يوجد مفتاح حجري لقبة الكتدرائية يتمثل فيه شكل الصومعة في حالتها الأولية ، والتي تبين لنا تناسق كل تلك العناصر المختلفة وتناغمها (١) .

وظل البرج على حالته تلك حتى سنة ١٣٩٥ ( ٨٩٢ هـ ) حيث فقط جزءه الأعلى إثر زلزلة أرضية هدمت كثيرا من المباني (٢) . وفي سنة ١٥٦٨

(١) هـ تيراس ، جامع اشيلية الكبير ، الكتاب التذكاري هـ . ناسيه ، ح ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) هـ . جيرو دي برانجاي ، محاولة لدراسة العمارة العربية ، ص ١٠٧ .



( ١٠٦٥ هـ ) بنى فوقه فرناد - رويز بناء من طراز عصر النهضة ، من أربعة طوابق ، آخرها قبة لتكون قاعدة لتمثال العقيدة الهائل الحجم ، من عمل بار تولومى مورل ، وهذا التمثال عرف عند العامة باسم « جيرالديو » ( الخير الدا ) .

### جامع اشبيلية:

بناء على ما تبقى من الجامع القديم لا نستطيع اليوم الا محاولة تخطيط تقريبي له . فالصحن بقى كما هو حسبما ترسمه زاوية الجدار فى الواجهة الشرقية . والجدران ليست فى الحقيقة إلا تمثيلا لأسوار جامع قرطبة مع اكتافها من الكتل الحجرية المربعة والتي يقل حجمها كلما صعدنا الى أعلى بالتدريج ، وهى تسند الجدران بشكل وثيق . والمدخل الرئيسى للجامع ( باب الغفران : puerta del Perdon ) مارال موجوداً كما كان ، لم يصبه إلا بعض التغيير ، فى وسط الحائط الشمالى للصحن ، إنها بوابة من عقد نصف دائرى متجاوز . وان الأعمال الأثرية الحديثة تسمح بالكشف عن زخرفة العقود الحاملة للجدران الداخلية للصحن ، وهى عبارة عن فصوص دقيقة أساسها عناصر رهرية ونباتية معدلة بعمل خطوط منحنية تحيط بالعقد . وزخرفة الباب الرئيسى المصنوعة من البرونز هندسية فى أساسها ، ووحدتها هى الخرطوشة متكررة بشكل منتظم على قاعدة من الزخرفة الوردية . والخرطوشة تغطى معظم المساحة ، وتحوى زخرفة خطية بالطراز الكوفى يتكرر فيها مديح : « اللهم الله . لا إله إلا الله » . وقبضة الباب مشغولة بالحفر فى شكل زهرى ، يذكر بهيئة اليد . وهناك كتابة بالخط النسخى تحتل ما يعادل ظهر اليد ، وتكرر مديح : « صلى الله على محمد » .

وتوجد الأجزاء السفلية من أعمدة المصلى القديم التى كان يجب ان تحمل العقود التى تكون أروقة بيت الصلاة . وتلك العقود من الطوب ولها شكل

صلبية ، وهى تسمح لنا بافتراض ، ان عدد الأروقة كان ١٧ (سبعة عشر) (١) كما فى الكتيبة ولكنه رغم ان المصلى يذكر من قريب بطراز المساجد الأندلسية (٢) . فإن تخطيط الكندرائية الحالى لا يسمح بتصوير عمق بيت الصلاة القديم ولا عدد البلاطات (٣).

### مسجد حسان وصومعته بالرباط:

لم يبق للأسف من جامع المنصور الكبير المبنى بالرباط عقب الانتصار الكبير فى موقعة الأرك (آلاركوس ١١٩٦م / ٥٩٣هـ) إلا بعض الخرائب ، وهو الجامع الذى يبنى بخمس المغام من الاستعانة بسواعد الأسرى المسيحيين ، كبادرة شكر لله على معونته أثناء القتال . وتلك الخرائب ليست كافية لإعطاء صورة مضبوطة مما فيه الكفاية عن حالة المسجد الأولية . والمعروف حقيقة هو أنه لم يتم على حياة المنصور (٤) . (المتوفى ٥٩٦هـ / ١١٩٩م) . والحقيقة ان مثل هذا المبنى ما كان من الممكن ان ينتهى ابدأ قبل أربع سنوات على الأقل . ولا شك ان توقف العمل عقب وفاة المنصور ، وعدم استئنافها على عهد أى من خلفائه لنقص الموارد ، تسبب فى سرعة خراب الأجزاء التى كانت قد بنيت من المعبد . وبسبب هذا الأمر ، ولعدم وجود وثائق أصلية ، فإن أى محاولة لإعادة بناء الأثر سوف تعنى مجهودا غير مجد ، ينبى فقط على

(١) قارن ، هـ . تيراس ، جامع اشبيلية الكبير ، تذكاري هـ . باسيه ، ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) ديولافوا ، فن واحد ، امبانيا والبرتغال ، ص ١٤٩ .

(٣) حسب هـ . تيراس ، فإن المصلى ربما كان فيه ١٤ (أربعة عشر) بلاطاً بمعنى اجمالي عدد ٢٤ مع الـ ٨ (ثمانية) بلاطات فى الصحن (مسجد اشبيلية الكبير - تذكاري هـ . باسيه ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) بحسب هـ . تيراس ربما حوى بيت الصلاة ١٤ (أربعة عشر) بلاطاً بمعنى ٢٤ (أربعة وعشرين) باضافة ثمانية بلاطات الصحن . مسجد اشبيلية الكبير ، تذكاري هـ . باسيه ، ج ٢ ص ٢٦٢ .

مجرد التخمينات ، ويؤدي الى نتائج متضاربة (١) . أما عن برج حسان ، فإن جزاءه المرم يرتفع الى ٤٤ ( اربعة وأربعين ) متراً (٢) ، ولكنه كان لو قدر له التمام لارتفع الى ٦٠ ( ستين ) متراً ، توأميه : كتسية مراکش ، ودواره ( جيرالدا ) اشبيلية . وهكذا يظهر لنا أسلوب البناء ، من : القامة المربعة المرتفعة على نفس الوتيره دون اتساع أو ضيق في الكتلة ، ومطلع حلزوني اتساعه متران معقود على قبيبات تحيط بالنواة المركزية التي تحوى قاعات بعضها فوق بعض ، وتربط الجدران الخارجية بالنواة ، وهى نفس الأوضاع الهندسية الجيدة التي عملت على تقوية المبنى . ولكنه وعلى خلاف صومعة اشبيلية ، فإن منارة حسان مبنية بالحجارة المنجرة ، الوردية اللون . ومن وجهة النظر الزخرفية ، فإن كان تكوينها مختلفاً عن زخرفة منارة اشبيلية ، فإنها تتبعها ، فى الخطوط العريضة ، فالعناصر الزخرفية هى نفسها ، من : الكسوة او الفتحات الانيقة ، من : نافذة ، ومسطحه ، منفردة أو مزدوجة ، مع حركة التشبيكات أو العقود المفصصة .

### قصبة مراکش ومسجدها :

فى مدينة مراکش المدموغة بطابع عبدالمؤمن ، نجد أن القصبة ومسجدها ، رغم ذلك ، من إنشاء المنصور . فحسب رواية الاستبصار ، فإن بقاءهما صدر الأمر به بمعرفة يعقوب فى بداية سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م (٣) . ومن عتسب تكون الأعمال فيهما قد انتهت فى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦ - ١١٩٧ م ، إذا قبلنا قصة صاحب القرطاس (٤) .

(١) ج، مارسيه يقرر أن الحطة التى رسمها ج. هاينو لا تتفق أبداً مع تلك التى رسمها ديولافوا ، مجمل الفن الاسلامى (بالفرنسية) ، ص ٣٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .

(٣) الاستبصار ، والترجمة ، ١٨٢ .

(٤) النص ، ص ١٥٢ ، ١٧٩ ، والترجمة ٣٨٣ . وهنا يمكن ملاحظة - حسب اقوال مؤلف القرطاس =

أما عن رواية العمري الذي ينقل رواية ابن سعيد ، فتسمى القصة المراكشية « بمدينة تامراكش » ، إذ يقول انه يوجد بمراكش العاصمة القصور الكبيرة ، الواسعة ، وخاصة ذلك الذي بناه المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وهي تقع وسط مدينة كان قد خططها خارج مراكش ، خاصة له ولحاشيته المقربة ، وكانت تسمى « تامراكش » (١) .

والحقيقة ان المنصور كان قد جعل من القصة وضواحيها ، مدينة ملكية تحوى القصور له ولحاشيته . وفي ذلك يقول ابن سعيد انه لا يعرف كيف يستطيع وصف تلك المدينة الجديدة ، الوصف الذي يعبر عن واقع الأمر . ففي نظره فقد كانت بجدرانها الضخمة ، وأبوابها المرتفعة ، واحدة من أعظم العجائب التي خطرت على فكر أمير من الأمراء . وهو يقدم لنا في الصفحات التالية من روايته وصفا دقيقا للقصة ، وهي القصر الخلافي ، وبيت البللور ، وبيت الريحان ( الآس ) . وكان المدينة الأميرية محاطة بأسوار لها ٣ ( ثلاثة ) أبواب ، هي : باب الجنان ، وباب الغلمان المفتوح على مدينة مراكش ، وباب الرياض . وعلى ميدان فسيح يقوم الجامع الكبير (٢) . وأرض الصحن مسكوة بشباك من النحاس الأندلسي . والجامع وثيق البناء ، وفير الزخرفة ، ومما يستحق التنويه ان المنبر وكذلك المقصورة تظهران في بنائهما براعة فائقة في

---

= انه يمكن ان يكون يعقوب قد أمر ببناء لقصة والجامع قبل موقعة الاركوس مباشرة ، في سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، وهو الأمر غير المحتمل ، من حيث ان الأمير كان ، من جهة مشغولا بالحرب المقدسة ، ومن جهة أخرى فإن رواية نفس المؤلف المتعلقة بطريقة الأعمال في سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ - ١١٩٧ م ، لا تسمح في الاعتقاد بأن العمل الضخم يمكن ان يكون قد تم في أقل من ٣ ( ثلاث ) سنوات .

(١) المسالك ، الترجمة ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) مسالك الأبيصار ، الترجمة ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ . فانبيان ، مستخلصات لم تنشر (Extraits inédits) . ص ١٥ وما بعدها ، وقارن ليون الأفريقي ، ج ١ ص ١٩٨ وما بعدها .

البناء . فقد كان لهما آلية تسمح بإخفائهما خلال كل أيام الاسبوع عدا يوم الجمعة حيث كانت تلك الآلية تسمح بظهورها عندما يدخل الخليفة الجامع من أحل أداء الصلاة الجامعة . ولقد تغنى كل الشعراء بالمقصورة وبانيها المنصور (١) ، كما فعل ابن مجبر حيث يقول :

— تارة تحيط بأؤلئك الذين بداخلها ، فتصبح كأنها السوار

— وتارة تختفى عن انظارهم ، فكأنها سر من الأسرار

— كأن كل شيء فى علمها ، فهي تتوافق مع كل الظروف

— فعندما تشعر مقدم الإمام لزيارتها مع حاشيته ، تقوم لاستقباله

— فعندما يظهر تظهر هي الأخرى ، وعندما يرحل تختفى ، كما تظهر الهالات وتختفى مع القمر .

وتخطيط المسجد الحالى ، بمصلاه المحدود السعة بالنسبة للصحن الرئيسى ، وبالنسبة للصحن الأربعة الجانبية ، لا يظهر بصدق شكل المعبد الموحدى (٢) وفى القرن السادس عشر عندما اختار السعديون القصبية فى مراكش كمقر ملكى لهم ، كان عليهم ان يرموها فى أكثر من مرة خلال عهدهم . ورغم كل ذلك فقد بقيت المنارة عمل المنصور الأصلية . ولكننا هنا بعيد عن مارة اشبيلية حيث صومعة الرباط أقل حجما ، كما ان نواتها الوسطى لا تنفذ فيها الحجرات ، وحيث السلم بديلا للحدرات الدائرية (٣) .

(١) المقرئ ، لفتح ، ج ٢ ، ص ٨٠٤ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٨٠ ، ويظهر صاحب الحلال الموشية (ص ١١٩ - ١٢٠) عبدالمؤمن كبانى تلك المقصورة العجيبة التى ينسب ان تكون محصنة لجامع الكتبية من غير شك . وهذا التأكيد لا يكون مقبولا من حيث انه لم يكن من المقبول أن يتم من هذا العمل المتروك من جانب عبدالمؤمن فى وقت كانت الدولة الموحدية تميل الى البساطة والتششف .

(٢) هـ . تيراس ، معاهد وقلاع موحدية ، ص ٢٧١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ ، وما بعدها .

## العمارة المدنية والعسكرية:

لم يتوقف تذوق المنصور للانشاءات المعمارية على النوع الدينى فقط ، بل انه تعداه إلى مجال العمارة المدنية وكذلك العسكرية . ومن بين المباني التى اشتهرت فى العاصمة مراكش ، كان للبيمارستان ( المستشفى ) شهرة واسعة بين عامة الناس حيث اشتهر باسم « دار الفرج » ، وهو من المباني التى يحق للمنصور ان يزهو ببنائها حيث أنه أثار حماس كل من عبدالواحد ( المراكشى ) وصاحب الاستبصار ( المجهول المراكشى أيضا ) . فحسب الأول بدأ المنصور باختيار موضع متسع فى المنطقة المستوية تماما من المدينة ، وأمر المهندسين ببناء ذلك المستشفى فى هيئة فخمة . وعندئذ أظهر هؤلاء مهارة بالغة فى كسوته بالزخرفة العظيمة ، من : الحفر الفاخر ، والزينة المبهرة بشكل راد على ما كان متوقعا . وغرس المنصور فيه كل أنواع اشجار الزينة وأشجار الفاكهة . وأجرى فيه المياه الكثيرة التى كانت تجرى حول جميع الغرف ، بالإضافة الى ٤ ( أربعة ) أحواض كبيرة انشئت فى وسط المنشأة ، وكان أحدها من الرخام الأبيض ، وفرش المنصور المبنى بالبسط الثمينة ، وبسط الصوف والقطن والحرير والجلد .

وفى مجال العمارة المدنية ، نتذكر بما قام به يعقوب فى العاصمة ، من : القنوات والحدايق والصهاريج (١) .

ولم تستثنى العاصمة الأندلسية ، اشبيلية ، من اهتمامات المنصور الخيرة ، من : القصور الأميرية وقنوات الماء ، والأسواق التى كانت تنشأ فى كل مرة كان يزور الأندلس .

فعند عودته من حملة شلب ، أقام المنصور على ضفة الوادى الكبير ، قلعة حصينة تشتمل على القصور والقباب . وعندما انتهى العمل من بناء القصور

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٦١ .

كانت موضع رضاه ، بل ربما فاقت توقعاته ، وأعطيت تلك المجموعة من المباني اسم « حصن الفرج » . وعند عودته من موقعة الأرك الكبيرة ، عقد مؤتمراً في إحدى القباب ( الفساطيط ) المطل على النهر ، وسمح للناس بالدخول حيث تغنى الشعراء بأناشيد النصر (١) .

وإذا لم يكن قد بقي لناشيء من قصور المنصور ، فقد بقيت لنا أجزاء هامة من المباني العسكرية التي توضح نشاطه في مجال الأعمال الدفاعية . فلقد كان يهتم بالبناء بشكل عام ، وبناء القصبات في المدن الرئيسية في كل الدولة بشكل خاص ، كما في : مراكش وفاس والرباط واشبيلية . وبقايا التحصينات الموجودة في الرباط دليل على نشاطه الخارق للعادة في ذلك المجال . فالأسوار تمتد على طول ٥ ( خمسة ) كيلو مترات ونصف ، وهي تشكل زاوية كبيرة من البحر إلى القصر الأميري ، ومن هناك إلى ضفة وادي بورجرج ( أبو الرقراق ) ، وهي مزودة بالأبراج المستطيلة (٢) .

ولما كانت اشبيلية بمثابة القاعدة العامة للعمليات الحربية في الأندلس فإنه كانت موضع عناية يعقوب . فالتحصينات والأسوار الممتدة حتى باب ماكارينا ( Macarena ) ، يجب أن تكون جزئياً من عمله إن لم تكن كلياً كذلك . والحقيقة أن تلك التحصينات القديمة أصلاً كانت موضع عناية الأمويين الذين أعادوا بناءها قبل أن يفعل ذلك الموحدون مرة أخرى . والحقيقة أن تلك التحصينات تظهر أصالة في التخطيط . فالأسوار تمتد مستقيمة ، ولكن في شكل منكر أو متعرج على هيئة زوايا بارزة وداخلية ، الأمر الذي كان يزيد في صلابتها . وهي تتكون من ٣ ( ثلاثة ) عناصر ، هي : السور الرئيسي ، ويرتفع إلى ٦ أمتار ، وتقويه الأبراج ، وخندق اتساعه متران ،

---

(١) عبد الواحد ، المعجب ، ص ٢٥٤ .

(٢) ج. مارسيه ، مجمل الفن الإسلامي ، ج ١ ص ٣٥٣ .



تحميه ستارة ارتفاعها متران ونصف المتر ، تمنع المهاجمين وتصدهم . والأسوار والأبراج يتوجهها نوع من الأفريز مكون من شريط من البناء يرتفع عليه مسننات هرمية الشكل وكتل البناء التي تتوج سور الستارة الخارجى الصغير تنفذ فيها فتحات يستخدمها المقاتلون فى الرمي . وهى مصنوعة فى القاعدة من الطابية أى "البُتون" . والطوب أو الطابوق ، يستخدم عادة فى بناء الأبراج وفى الزوايا بخاصة ، وكذلك من أجل الأفريز أو الاشرطة التى تتفق مع الطوابق المتوالية . والأبراج ترتفع الى ١٦ متراً . وهى عادة مربعة ، وان كان بعضها له شكل مستدير ( من مئمن أو ذى ١٢ ضلعاً ) وعادة ما يكون برجاً ثلاثى الطبقات ، ويؤوى العدد الكبير من الرجال بأسلحتهم الوافية ، مشرعاً فى مقدمة الأسوار . والنموذج لدينا لهذه الأبراج ، هو برج الذهب ( Tote D'ro ) على ضفة الوادى الكبير ، غير بعيد من القصر الموحدى الكبير ، وقرباً من المسجد الجامع . ونحن نفترض انه كان ذلك البرج يرتبط بسور أشبه ما يكون بذلك الذى يرتبط بسور أشبه بسور المكارينا ( Macarena ) بالقصر الموحدى .

وفى ضواحي اشبيلية ، ينسب الى ابنى يوسف يعقوب تلك القلعة المسماة بقلعة الجواديرة ، والتى تُظهر تقريبا نفس الأساليب الدفاعية التى كانت لأسوار المكارينا .

مما تقدم نستخلص أنه إذا قارنا الحياة الفكرية ، بمجال الفن المعماري يكون هذا الأخير ملموساً بشكل أوضح ، وخاصة فيما يتعلق بالعمارة الدينية . فالحقيقة انه اذا لم يكن المزج تاماً بين المغرب والأندلس فى المجال الفكرى ، فإنه كان تاماً كاملاً فى الثانى ، حيث تولد فن مغربى - أندلسى قلباً وقالبا . فمساجد ذلك العصر ، توضح فى نفس الوقت الخصائص الموحدية والتأثيرات الأندلسية ؛ وهذه الأخيرة كانت تمارس أولاً وقبل كل شئ تحت تأثير جامع

قرطبة الكبير . ومع ذلك فقد كانت الغلبة للسماة الموحدة ، من :  
المساحات الفسيحة للمساجد ، مما يتوافق مع الأعداد الكبيرة للمعتقدين في  
المذهب الموحدي . وتأتي بعد ذلك القوة التي تتمثل في القوة السياسية  
والدينية ، ثم البساطة أخيراً والتكشف ، وهما الصفتان اللتان تتفقان مع نقاء  
المجتمع الإسلامي الأول ، الذي كان ينشده المهدي ابن تومرت وخلفاؤه من  
بنى عبد المؤمن .

وإذا كان العمل السياسي الذي قام به المنصور لم يقدر له البقاء طويلاً ، فإن  
ذلك لم يكن مصير أعماله المعمارية . ففي الرباط واشبيلية ومراكش مازالت  
بقايا أعماله مبانيه تشهد إلى الآن ما كان عليه عهده من العظمة . لقد طرد  
الموحدون من شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولكن نفوذهم سيستمر مؤثراً في هذا  
المجال ليس في إسبانيا المسيحية فقط ، بل وخارج حدودها أيضاً .

## الغاية

تتلخص أهمية عصر المنصور الموحدي في أنها تعتبر بمثابة العصر الذهبي للمغرب . ففيها بلغ ذروة العظمة . فمراكش العاصمة كانت تسود الغرب الاسلامي بعدوتيه من نخوم مصر حتى وادي تاجه . فالتهديد المسيحي الاسباني كان قد دفع بعيداً بعد انتصار سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥ م ، والمسألة الاندلسية ظهرت وكأنها حلت ، وظهر المغرب وكأنه حقق فترة طويلة من السعادة والازدهار والانتاج الوفير في كل المجالات .

ومع ذلك فامامنا مسألة تتلخص في : الى أي حد يتفق مثل هذا الحكم على تلك الفترة مع توالي الاحداث فيما بعد ؟ فهناك نقطتان تظهران لنا بالفتى الأهمية بالنسبة لدراسة تلك المسألة ، وهما : شخصية الأمير ، والمسألة الاندلسية ، فمن الأول استمدت الامبراطورية قوتها ، ومن الثانية وجودها وكيونونها .

فالمنصور كان يشغل بجدارة وظيفته كأمر ، كما يظهر وكأنه نجح في حل المشكلة الاندلسية . ولكنه كان حلاً مؤقتاً . وإذا لم يكن لموته في البداية رد فعل مباشر ، فكان علينا الانتظار مدة ١٣ ( ثلاثة عشرة سنة فقط ) لكي نشاهد كارثة العقاب ( ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ) ، التي كانت حدثاً فاصلاً هذه المرة ، في تفكك واضمحلال الامبراطورية الموحدية . والحقيقة انه ليس من العدالة إلقاء عبء كل ما ترتب على ذلك ، على عاتق الناصر وحده . فالمسألة تظهر أكثر تعقيداً ، فربما كان من الأفضل البحث عن عوامل الضعف التي غرست جذورها في النظام منذ عهود سابقة ، وقبل ذلك على عهده بطبيعة الحال ، وفي الحقيقة فإن شخصية يعقوب تتحمل نصيباً من تلك المسئولية ، على أساس تركيز ادارة شئون الدولة حول شخص الأمير ، الأمر الذي أظهرته الدراسة . وادعاء الموحدين في حقهم بلقب الخلافة ، والذي كان أمراً مبهما

غير دقيق ، ازداد قوة مع وصوله الى العرش ، حيث بدأ هو بالمطالبة بحقوق أكثر من قبل على العالم الاسلامي . ففي كل الأمور كان الأمير وحده صاحب القرار الأخير بصفته « أميراً للمؤمنين » . ففيما يتعلق بالأمور الداخلية وفي إدارة ممالكه كان يفرض سلطانه بقوة على كل عماله . فكل من يخرج على القانون السلطاني لم يكن يتعرض للعقاب الشديد فقط ، بل كان يغامر بحياته أيضا . وهذا الاستبداد كان يظهر في تدخله في كل شيء ، في : العدالة ، وأمور الدين والشئون العسكرية . ولكن هذا النوع من الحكم المطلق كان يؤدي الى الخلط فيما بين الدواوين الادارية الى حدّ عدم التفرقة بين اختصاص المسئول أو الآخر ، والى عدم رسم خطوط واضحة بين الاختصاصات أو الأخرى .

ترتب على ذلك أن صارت إدارة الدولة من النوع الأكثر بدائية . وتلك كانت من نقاط الضعف في امبراطورية المنصور . فرأى جماعة العشرة أو جماعة الخمسين لم يكن إلا استشاريا . وهكذا عندما كان الخليفة يتعرض للمرض ، أو لموقف حرج ما ، كانت الدولة تنزل نحو الانهيار ، وكان المطالبون بالسلطة العليا يظهرون في كل الجهات .

ونقطة ضعف أخرى ينبغي الإشارة إليها . فالامبراطورية كانت تتكون من ثلاث بلاد ذات سمات متميزة ، هي : المغرب وأفريقيا والأندلس . وقوة الدولة كانت تتمثل في المغرب ، وهي لم تكن في الحقيقة إلا قوة الأسرة الحاكمة ، وقبيلة الخليفة . وبناء على ذلك كان من الطبيعي أن تكون افريقية ، البعيدة عن مراكز العاصمة ، دائما قاب قوسين أو أدنى من الثورة أو من الدخول في معسكر معادٍ ، وهو الأمر الذي كان موافيا بالنسبة لبني غانية ، وبالنسبة لتدخل خلافة بغداد غير المباشر ضد المنصور . وهكذا فبسبب رد الفعل غير الكافي ضد الميورقيين ، اتضح ان المنصور لم يكن قادرا على تهديد

أفريقية . حقيقة انه فضل مواصلة الصراع ضد المسيحيين فى الاندلس ، تاركا  
أفريقية لمصيرها ، ولكنها كانت سياسة خرقاء ، مترددة وضعيفة . وهكذا قدر  
لأفريقية ان تكون اقطاعا لأول حاكم يستطيع ان يكون قادرا على حفظ النظام  
والامن فيها . وهكذا نجح احد أبناء أسرة أبى حفص عمر ، رئيس قبيلة هنتاتة  
القوية ، ان يكون أسرة ملكية فى تلك المنطقة ، هى الأسرة الحفصية .

وإذا كانت الآلة الحربية الموحدية قد ظهرت ضعيفة نسبيا فى أفريقية ، فإن  
الوضع كان مختلفا بالاندلس حيث كانت الحرب هناك جهادا أى حربا مقدسة  
، وليست فتنة بين المسلمين . فالمسلمون من الزنادقة أو المعادين للموحدين .  
كانوا على استعداد للمشاركة فى عمل موحد ضد الكفار . هذا ، ولكن  
حشد الجيوش من بين غير الموحدين كان يمثل نقطة ضعف إضافية أخرى -  
فالقبايل المصمودية لم يكن لديها القدرة على تقديم الرجال للقيام بعمليات  
عسكرية كبرى ولفترة زمنية لا حدود لها . ويضاف الى ذلك موقف مالي  
حرج ، ترتب على استنزاف موارد الخزانة العامة نتيجة للأعمال العمرانية  
الضخمة التى قام بها المنصور . فمدينة رباط الفتح ( الرباط العاصمة ) لم يمكن  
إنهاء بنائها على عهد الناصر فقط ، بل ان رواتب الرجال لم يمكن الوفاء بها  
بانتظام ، الأمر الذى تسبب فى التملل داخل الجيش .

وفوق ذلك هناك عمل يمكن ان يثبت ضعف الآلة الموحدية وقتئذ . فلقد  
كانت الظروف مواتية فى اسبانيا بالنسبة للمنصور ، فكلما كان الفونس  
القشتالي يزداد قوة ، الأمر الذى كان يهدد استقلال جيرانهم ، كلما كان  
يزداد حقدهم عليه . وكانت فرصة طيبة للمنصور لكى يطبق مبدأ سياسة  
« فرق تسد » « Divide utimperes » ، لو أنه فعل . ولكنه عندما تغيرت  
الاحوال ، وأتت جهود البابوية فى سبيل تحقيق سياسة منسجمة فى اسبانيا  
المسيحية بشمارها المرجوه ، لم تكن الجيوش الموحدية تستطيع مواجهة العدو .

وعندما انهزم الموحدون لأول مرة ، تفككت الامبراطورية ، وانهارت كقلعة من الورق ، كما يقال .

وكان أمراً عجيبا ، فقد كانت حياتها مرتبطة بالاندلس . فهي التي قدمت الفخار للمنصور ، كما كانت الاندلس هي التي أجهزت على الامبراطورية الموحدية بطعنة الخلاص .

واذا نظرنا في خطة السياسة الدينية ، فإننا نجد ان سياسة المنصور لم تكن حسنة الحظ . فتعصبها لم يأت بشيء مفيد . فتعاليم ابن تومرت لم تنجح إلا الى حد ما ، والفساد لم تلبث ان ظهرت بواده منذ البداية . فأبناء عبدالمؤمن كانوا يشربون الخمر الذي يعنى أنهم لم يحترموا تعاليم ابن تومرت ، ولم يعتقدوا في رسالتهم أنفسهم . والحقيقة ان الحماس الدينى وحده ، كان يثير نشاط الموحدين . ولا شك ان اعلان الظاهرية كمذهب رسمى وحيد ، ومطاردة المالكية دون شفقة ، والاجراءات التعسفية ضد اليهود ، كل ذلك لم يكن له من ثمرة سوى التملل العام . وبدل تتابع الأحداث ، وانتصار المالكية النهائية على عهد المأمون ، ثامن امراء الموحدين ، يدعو الى التفكير حقا في ان تلك السياسة لم تنجح أبدا بشكل تام .

وفى المجالات الأخرى ، كانت الاندلس هي المهمة لبلاد المغرب . فالمغرب البربرى اقتبس منها معظم منظماته . فعلى المستوى الفكرى كانت الاندلس هي المعلمة ، فقد قدمت له العديد من الأدباء والعلماء والمفكرين والشعراء . وفى النهاية إذا كان المغرب قد هزم الاندلس بالسلاح ، فإن الاندلس قد سادته بالعلوم . وبذلك تكامل البلدان . ولكنه عندما ضعت الاندلس ، كان ذلك نذير نهاية العصر الذهبى للمغرب .

**الحمد لله رب العالمين**

## الفهرس

١	مقدمه
٢٣	القسم الأول
	التاريخ السياسى
٢٤	الأمبراطورية الموحدة عشية ولاية يعقوب المنصور
٢٤	الوحدة اللغوية والتوجهات الخاصة
٢٥	المغرب
٢٨	بلاد أفريقية
٣٠	أسبانيا الإسلامية
٣١	أبو يوسف يعقوب المنصور
٣٥	السياسة الداخلية الأسرة الملكية وسياسة الحلف العائلي
٤٠	السياسة الخارجية العلاقة مع نصارى أسبانيا
٤١	المنافشات الأولى
٤٢	سقوط شلب (Silve's)
٤٤	أول حملة ضد البرتغال
٤٩	الحملة الثانية ضد البرتغال
٥٢	سفارة صلاح الدين
٥٦	عودة هجوبية للأعداء وانتصار "الأرك" المدوى (٥٩١هـ / ١١٩٥م)
٦٥	الحملة الثانية
٦٩	الحملة الثالثة



٧٣	بنو غانية في افرقية
٧٣	السمات العامة للإمارة الميوقية على عهد بني غانية
٧٥	علاقات بني غانية الميوقيين بالموحدين عند ولاية يعقوب
٧٨	الاعتراف بالخلافة العباسية في بغداد
٧٩	أول مقاومة ورد الفعل عند الموحدين
٨٢	استرداد بجاية
٨٤	تحالف الغز والعرب مع بني غانية
٨٨	رد فعل المنصور
٨٩	انتصار كبير لابن غانية (ربيع الثاني ٥٨٣ هـ / يونيو ١١٨٧ م)
٩٠	نتائج الهزيمة في غمرة
٩٢	خضوع بلاد الجريد
٩٣	استعادة قنصة
٩٥	عودة المنصور الى المغرب و وفاة علي بن غانية
٩٧	موقف البليار منذ حملة علي حتى وفاته
٩٨	الميوقيون على عهد يحيى بن غانية
١٠١	مغزى حركة بني غانية وأهدافها
١٠٣	القسم الثاني
١٠٤	النظم السياسية والإدارية
١٠٤	خصائص الخلافة الموحدية
١١١	نظام الحكم في الدولة

١١٢	الحجابه
١١٤	الوزارة
١١٥	الكتابة
١١٨	مجالس الدولة
١١٨	مجلس العشرة
١١٩	مجلس الخمسين
١٢٠	الطلبة والحفاظ
١٢١	أجهزة الدولة الأخرى
١٢٢	إمامة الصلاة
١٢٤	تنظيم الجيش وخدماته
١٢٨	تنظيم ديوان الجيش وأسلوب عمله
١٣٠	التسليح والمعدات
١٣٢	رواتب العساكر وأعطيائهم
١٣٥	الربط (على الحدود)
١٣٨	التخطيط الحربى وإدارة المعركة وفن الحصار
١٣٩	الأسطول
١٤٢	العدالة والشرطة
١٤٥	اختصاصات القاضى
١٤٥	المخمسب
١٤٦	الولايات والأدارة المحلية

١٤٨	القبيلة : وحدة ادارية
١٤٨	ترتيب القبيلة الموحدة
١٤٩	القبيلة العربية
١٥٠	الخزانة العامة
١٥٠	دخول الخليفة الخاصة
١٥٢	الدخول العامة للدولة
١٥٦	القسم الثالث
١٥٧	الحياة الاقتصادية
١٥٧	الزراعة ومنتجات البحر
١٥٧	أ - المغرب
١٦٣	ب - افريقية
١٦٩	الصناعة
١٧٤	ج - اسبانيا الموحدة
١٧٥	التجارة
١٧٥	التجارة الداخلية
١٧٧	العلاقات التجارية مع الخارج
١٧٨	مصر : عميلا للدولة الموحدة
١٧٩	التجارة مع الممالك السودانية
١٨١	العلاقات الاقتصادية مع أوروبا المسيحية
١٨٣	مراكز التجارة الأجنبية

١٨٥	المنتجات المتبادلة تجاريا
١٨٦	طبيعة التبادل التجاري مع أوروبا
١٨٨	أسلوب جباية مكوس الجمارك
١٨٩	موقف جزر البليار
١٩٢	القسم الرابع
١٩٣	الحياة الدينية والفكرية والحياة الفنية
١٩٧	موقف المنصور من غير الموحدين
١٩٩	الإشراف على الأعمال الدينية
٢٠٠	فكرة الإمام
٢٠١	الظاهرية مذهب رسمي
٢٠٥	دراسة القرآن والحديث
٢٠٩	الفلسفة في خدمة الدين
٢١١	ابن رشد والمذاهب المختلفة
٢١٣	تطهير ديني والموقف الخاص باليهود
٢١٩	المنصور والتصوف
٢٢٣	نهاية صوفية للمنصور
٢٢٩	الحياة العقلية
٢٣٠	اللغة العربية
٢٣١	الشعر
٢٣٢	الشعراء

٢٣٩	الشعر الدينى
٢٤٢	شعر دينوى
٢٤٢	المدح
٢٤٤	مشاعر الموت
٢٤٥	شعر السخرية
٢٤٥	الحب والخمر
٢٥١	الحياة الفنية
٢٥٩	السمات العامة للمنارات الثلاث ، بمراكش ، واشيلية ، والرباط
٢٦٢	صومعة اشيلية
٢٦٤	الزخرفة
٢٦٧	جامع اشيلية
٢٦٨	مسجد حسان وصومعته بالرباط
٢٦٩	قصة مراكش ومسجدها
٢٧٢	العصارة المدنية والعسكرية
٢٧٦	الخاتمة
٢٨٠	الفهرس





48/1833